تقريظ مدير الجامعة
كلمة عن هذا الكتاب

بقلم العلامة الكبير والأديب البارع ونموذج السلف وقدوة الخلف
سماحة الشيخ الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي
مدير دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ، الهند .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد !

فقد اطلعتُ على مقالٍ علمي وأدبي ، أعده الأخ العزيز سعيد أحمد خان الندوي أيام دراسته في دار العلوم لندوة العلماء ، وعين له موضوع المقال الذي يكتبه الطالب في نهاية سنته الدراسية ، وذلك تحت إشراف أحد الأساتذة البارعين في الكلية التي يدرس فيها الطالب .

وهذا المؤلَّف القيم هو في الواقع مقال سنته الأخيرة في كلية الآداب واللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء عام ٢٠٢٠م ، كتبه تحت إشراف وتوجيهات فضيلة المشرف الشيخ محمد قيصر حسين الندوي ، أحد أساتذة الكلية والمشرف على هذه الكتابة التي وضعها في صورة كتابٍ مستقلٍّ حول «إعجاز اللغة في الحديث النبوي ظواهره ونماذجه» ، وإنه اطلع على هذا الكتاب وقرأها حرفًا حرفًا وصادق عليه ، ومع ذلك كان الطريق مفتوحًا للكاتب سعيد أحمد خان الندوي أن يرتب المقال ، ويصوره في صورة جميلة لكتابِ أدبٍ حديثيٍّ ، ويزينه ببيان الإعجاز الذي يختفي وراء هذا الأدب

النبوي العظيم .

إنه يذكر الفرق بين اللغة والأدب ، وكذا يبين العلاقة بين الأدب والدين في تعريف الموضوع .

ثم وزع هذا الكتاب حول ثلاثة أقسام بعد تعريف الموضوع :

فالقسم الأول يحتوي على ثلاثة فصول ، يبين فيها الفرق بين الأدب النبوي وغيره من آداب أخرى ، ويذكر أساليب البلاغة في هذا الأدب الغالي ، ودعائمها ، ومزاياها .

والقسم الثاني : يذكر فيه التصوير الفني في الحديث النبوي .

والقسم الثالث يحتوي على الإعجاز العلمي في الحديث النبوي .

ومن ثم كان هذا الكتاب موضع إفادة واستفادة للجميع ، ونحن إذ نهنئ المؤلف العزيز الأخ الأستاذ سعيد أحمد خان الندوي على وضع هذا الكتاب النافع ، أرجو أن يكون مبعث خير وبركة للجميع ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

والسلام

كتبه بيمينه :

سعيد الرحمن الأعظمي الندوي

مدير دار العلوم لندوة العلماء ، الهند .

٥/ ٥/ ١٤٤٢هـ - ٣١ / ١٢/ ٢٠٢٠م

كلمة العميد

فضيلة الشيخ العلامة نذر الحفيظ الندوي
عميد كلية اللغة العربية وآدابها
بدار العلوم ندوة العلماء لكناؤ، الهند

نحمده ونصلي على رسوله الكريم ، أما بعد !

فإن هذا البحث «إعجاز اللغة في الحديث النبوي ظواهره ونماذجه» قام بإعداده تلميذنا سعيد أحمد خان بن جلال الدين خان ، لنيل شهادة التخصص في الأدب العربي بكلية اللغة العربية وآدابها ، دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ ؛ تحت إشراف الأستاذ قيصر حسين الندوي ، وقد بذل جهده في إبراز البيان النبوي ، وخصائص إعجازه في ضوء الأحاديث المختارة من الأبواب المختلفة ، مستفيدًا بالمصادر الكثيرة والمؤلفات المتنوعات التي لا تخلو منها مكتبات العالم .

بعد تقرير المشرف وتزكيته نقدم هذه المقالة إلى سعادة العلامة الأديب مدامعة الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي راجين منه التكرم بالقبول ، وندعو الله تعالى للأخ العزيز سعيد أحمد خان ، ليزيده في المستقبل توفيقًا لخدمة الحديث النبوي !

والسلام

نذر الحفيظ الندوي

٢٤/رجب/١٤٤١ هـ



كلمة المشرف

فضيلة الشيخ مولانا محمد قيصر حسين الندوي
أستاذ دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ، الهند

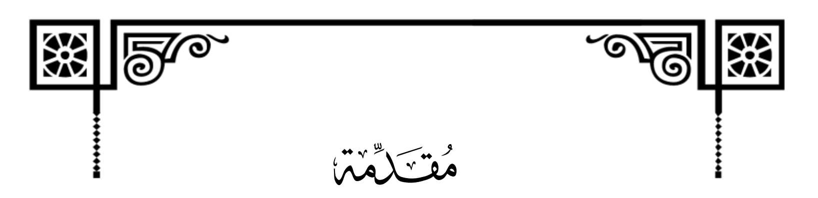
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد!

فإن الحديث النبوي هو ثاني المصادر والأصول للأدب العربي، وإن إعجازه البياني فاق كل فصاحة وبلاغة على ظهر الأرض في اللغة والأدب، ولكن مع الأسف كل الأسف؛ هذا الموضوع لم يُشَكَّل على حدة إلا قليلاً.

فقد كتب تلميذنا الرشيد الأخ سعيد أحمد خان الندوي -الدارس في السنة الأخيرة للدراسات العليا من قسم التخصص في اللغة العربية وآدابها- حول هذا الموضوع «إعجاز اللغة في الحديث النبوي ظواهره ونماذجه»، وجد واجتهد بأمرنا في جمع المواد وترتيبها اجتهادًا لا بأس به، وأحاط بجوانب كثيرة من إعجاز البيان النبوي، وأنا أرى بحثه هذا جديرًا بالتقديم إلى كلية اللغة العربية وآدابها للإجراءات اللازمة، وأتمنى له النجاح والفوز!

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتبه
محمد قيصر حسين الندوي
٢/ ٧/ ١٤٤١ هـ



مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنعم على أهل الأرض بوحيه ، ونوَّر قلوب عباده بكتابه ، وأنزله على أفضل الخلق وخاتم الأنبياء رسوله وحبيبه ﷺ .

ثم الصلاة على نبيه وقاسم علومه ومبلِّغ رسالته وأمين دينه ، الذي جعله مبيِّنًا لكتابه ومفسرًا لكلامه ، أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء مؤيدًا بنوره ونصرته ، وبعد !

قبل سنوات كثيرة رأت جدتي الكريمة (من أمي) رؤية صالحة عن الحديث النبوي الشريف ، وكانت بشارة لي من الله تعالى ، فكنت أتفكر منذ ذلك اليوم أن أكتب في زاوية من زوايا علوم الحديث ، فلم أفتش موضوعًا إلا ووجدتُ فيه كتبًا كثيرة ، أُلِّفتْ فيه من قديمة وحديثة ، فلما جئتُ إلى دار العلوم لندوة العلماء والتحقت بها -بعون الله تعالى وفضله- في التخصص في اللغة العربية وآدابها ؛ فمن أول يومي بها كنتُ أكلِّم نفسي أن أكتب مقالتي في موضوع « الإعجاز اللغوي في الحديث النبوي » .

وأشكر الله عدد ما لا يحصى على أنه شرح قلوب أساتذتي لتعيين مثل ما في قلبي ! فقد وضعوا لي هذا الموضوع « ظواهر إعجاز اللغة في الحديث ونماذجها »، فالشعور يطير في السماء فرحًا ، والسرور يطرب في الغناء نغمًا ، فلله الحمد أولا وآخرًا .

وبعد فراغي من التأليف ما زلتُ أفكر أن أقيدها في صورة الكتاب بمشورة بعض الأصدقاء المخلصين ، فسميته باسم «إعجاز اللغة في الحديث النبوي : ظواهره ونماذجه».

وإني قسمتُ مقالتي بعد تعريف الموضوع على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في الفرق بين الأدب النبوي وغيره .

الفصل الثاني : في مزايا البلاغة النبوية ومميزاتها وخصوصياتها .

الفصل الثالث : في أساليب البلاغة ودعائمها .

والقسم الثاني : في التصوير الفني في الحديث النبوي ، وهذان القسمان في الإعجاز البياني في الحديث النبوي .

وأما **القسم الثالث** فهو في بيان الإعجاز العلمي النبوي ، وقد ذكرتُه تحت العنوان : الطب النبوي .

وإني حاولتُ أن لا أذكر في أحاديث الأمثلة إلا ما هو حديث صحيح أو حسن ، وإن ذكرتُ غيرهما في موضع أو إثنين فأبيِّنُ درجته في الهوامش -إن شاء الله تعالى- .

ولقد كثرتِ الكتبُ في الإعجاز القرآني ، فقد ألف فيه كثيرٌ من الأدباء والعلماء والمفسرين ، مثل الشيخ سيد قطب والرافعي والصابوني وغيرهم تحت عنوانٍ جامعٍ مستقلٍّ أومشتملٍ مشتركٍ ، في كبيرٍ أوصغيرٍ .

ولكن هذا الموضوع «الإعجاز اللغوي في الحديث النبوي» يوجد

متروكا وغير معتنٍ به إلا من قليل ، وبغير ذلك قد انتشرتْ عناوينه في صفحات متفرقة ، فبعضها عند بعضٍ ، وبعض أخر عند الآخَرين ، فاقتضت الحاجةُ أن يرتب هذا الموضوع جامعًا عناوينه ، شاملاً أموره من غير إطنابٍ وإطلالٍ ، فجمعتُها -بتوفيق الله وعونه- ما يوجد بعد مطالعة عشرين كتابًا في هذا الموضوع ، واختصرتُها في البيان كي لا يطول الحجم ؛ فاتحا أبوابها للفرسان الذين يأتون بعدي ، ويدخلون فيها أفواجًا وأشواقًا ، فيشرحونها لفظًا لفظًا وبابًا وبابًا .

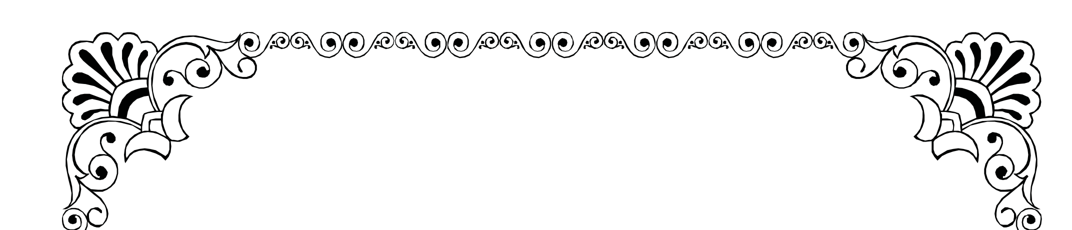
وأخيرًا نشكر أستاذي الكريم العلامة الكبير سماحة الشيخ الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي -مدير دار العلوم لندوة العلماء- ، فهو الذي شجعني وكتَب تقريظًا مُهِمًّا لتأليفي .

وكما نشكر مشرفي الأديب المحقق فضيلة الشيخ محمد قيصر حسين الندوي -أدام الله ظله علينا- ، فقد أرشدني إليها في كل أمورها ، وقرأها حرفًا حرفًا ، فجزاهم الله خيرًا في الدارين ! وتقبل منهم خدماتهم للدين الحميم !! آمين ، يا رب العالمين !

ومن النكران للجميل أن لا أشكر أخي الكريمَ الحبيب زيد المستقيم القاسمي ؛ فهو الذي رتب هذه المقالة بالكمبيوتر ، وأعانني في تخريج أحاديثها والحكم على أسانيدها ، وحسَّنها وزيَّنها على قدر المستطاع ، ولم أتأكد أن أجمع مثل هذا الكتاب إلا بتشجيع مثله -خلص الأحباب- ، وأشكر كلَّ من له يد -قليلة أوكثيرة- في تأليفي من أي جانب كان .

وليستْ عندي ألفاظ تؤَدِّي ما في قلبي من حمد الله وشكره ، وبأي أسلوبٍ رائقٍ أشكره فهو أقل مما أنعمه علي ، وما وفَّقه مثلي الحقير لهذا الخير العظيم ، فلا نقول فيه إلا ما علمناه بكتابه ، فالحمد لله رب العالمين !

سعيد أحمد خان الندوي
المتخصص في اللغة العربية وآدابها
بدار العلوم لندوة العلماء
١٦ ـ ١ ـ ٢٠٢٠م



تعريف الموضوع

وهو يشتمل علي خمسة مطالب :

المطلب الأول : بين اللغة والأدب والعلم

المطلب الثاني : الأدب في الدين أوالدين في الأدب

المطلب الثالث : معنى الإعجاز

المطلب الرابع : القرآن معجز ليس الحديث ، ولكن ...

المطلب الخامس : حجية الحديث في اللغة وبناء القاعدة النحوية



تعريف الموضوع

المطلب الأول : بين اللغة والأدب والعلم

إن « اللغة » هي مظهر أغراض الناس ، وهي تزدهر بالأدب والبلاغة والفصاحة ، ونبين تعريف « الأدب » قبل الفرق بينه وبين « العلم » ، ثم إن ما من تيار سعى أن يسيطر على الإسلام إلا وهو حدث في صورة الأدب بزخارف القول غرورًا ، فنحتاج لتعريفه إلى بعض الكلمات .

كان هذا اللفظ يستعمل لتهذيب النفس وتثقيف اللسان وتزيين الحس وترقيق الخيال ، من عهد الجاهلية والنبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم ، فقد قال النبي ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .[1]

ثم جاء دوره الثاني ، فنشأت فيه الوسعة المعنوية والوضعية ، فالآن يستعمل الأدب للفن الذي تظهر به الصورة الحقيقية الصحيحة للمجتمع

---

(١) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء صـ: ١، ونسبه السخاوي في المقاصد الحسنة صـ:٢٩ إلى العسكري في الأمثال وضعفه وأورده الشوكاني في الفوائد المجموعة رقم: ١٠٢٠، والفتني في تذكرة الموضوعات : ٨٧ .

وقال الحافظ ابن حجر (٨٥٢هـ) : سنده غريب ، وقد سُئل عنه بعض الأئمة فأنكروا وجوده . (الموسوعة الحديثية لابن حجر : ٣٩٩/٣) ، وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ): إن معناه صحيح ، ولكن لا يعرف به إسناد ثابت (مجموعة فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٧٥) ؛ وأيًّا كان فإن معنى الحديث صحيح وثابت وواقعي ، وهو حديث مشهور عند الأدباء والبلغاء .

والحضارة ، فلو يزن بها الأديب نفوس الناس وأحاسيسهم وألسنتهم وثقافاتهم في ميزان الحق ، فتلك مجموعة الأدب الحقيقي عند العليم الحكيم .

وهكذا ذكره أستاذنا الكريم العلامة مفكر الإسلام واضح رشيد الحسني الندوي -رحمه الله رحمة واسعة- [١]: الأدب هو الكلام المتضمن للأخيلة الدقيقة والمعاني الرقيقة ، أوالكلام الذي يؤثر على النفوس ، ويثير العواطف ويهذب النفس ويرقق الحس والخيال ويثقف اللسان ... ويصور تجارب حياة غيره أوأحاسيسه بطريق تصبح صورة للحياة ، وتعبيرًا صادقًا للأحاسيس . [٢]

---

(١) وهو الأديب النبيه المفكر العبقري ، والألمعي المعمق البارع الصحفي ، نادرة الفلك غرة عصره بداهة و ذكاء ، فخر العلماء ورائد الأدباء ، فصيح القلم ومصقع البيان ، من أكابر علماء الهند المعاصر الشيخ العلامة السيد واضح رشيد الحسني الندوي بن الشيخ رشيد أحمد الحسني . ولد في ١٠ اكتوبر ١٩٣٢ الميلادي في منطقة « رايبريلي » في ولاية « يوبي » من الهند ، من خريج الجامعة دار العلوم لندوة العلماء ، الهند .

وكان رئيس التحرير للمجلة نصف الشهرية العربية الأدبية « الرائد »، وكان رئيس التحرير المشارك للمجلة الشهرية « البعث الإسلامي »، الصادرة من دار العلوم ، كان دائم الفكر ومتواتر الأحزان للأمة حتى لقب بـ « مفكر الإسلام » و« مكمل حركة أبي الحسن علي ». وقد ألف وأحسن وجمع وأعجب ، ومن كتبه : فضائل القرآن الكريم ، وفضائل الصلاة على النبي ﷺ ، وأدب الصحوة الإسلامية ، الدعوة الإسلامية ومناهجها في الهند ، وتاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، وتاريخ الثقافة الإسلامية ، ومن قضايا الفكر الإسلامي (الغزو الفكري) ، وأعلام الأدب العربي في العصر ، وأدب أهل القلوب . وتوفى هذا الشيخ العظيم وقت الصباح بعد الأذان قبل صلاة الفجر يوم الأربعاء ١٦ يناير ٢٠١٩ الميلادي ، رحمه الله تعالى .

(٢) تاريخ الأدب العربي ؛ العصر الجاهلي صـ: ٧٩ .

وكذا بيَّن الشيخ الدكتور عبد الله خضر معاني كثيرة لـ« الأدب »، فقال: وقد يتضمن الأدب معنى الظرف وحسن تناول الأمور، وأدبه: علمه، فتأدب، والأدب بالفتح العجب، وأدب البحر كثرة ماله، والذي يفهم من هذا أن المادة ترجع إلى الأدب، وهو الدعوة إلى الولائم، ومنه أخذ مصطلح الأدب، إذ كان داعيًا على المحامد والفضائل.

وكذا معناه: حسن الأخلاق وفعل المكارم، إن هذه المعاني -على تعددها- ترتد إلى أصلٍ واحدٍ، وهو المعنى الخلقي، فالعرب كانت تستعمل لفظ « الأدب » للدلالة على كل خلقٍ جميلٍ، ولعل هذا الاستعمال هو الذي شكل نواة الدلالة الاصطلاحية لـ« الأدب » مع التطور التاريخي الذي خضعت له كثير من مفردات اللغة العربية، والأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدبا لأنه يؤدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح.

وقد ورد في الحديث عن ابن مسعود ﷺ: « إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلموا من مأدبته ».[١]

وتأول العلماء والشراح هذا الحديث: بأنه شبه القرآن بصنيع صنعة الله للناس، لهم فيه خير ومنافع، ثم دعاهم إليه.[٢]

---

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير »: ١٣٩/٩، رقم: ٨٦٤٦، وعبد الرزاق في « مصنفه » ٣٧٥/٣ – ٣٧٦، والدارمي في « سننه » ٣٣٥٨، وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٦٤: وفيه مسلم بن إبراهيم الهجري، وهو متروك.

(٢) أصول النقد الأدبي صـ: ١٤.

والأدب في دلالته العامة هو حسن الأخلاق وفعل المكارم، وإطلاقه على العلوم العربية مولد حدث في الإسلام، وهذا ما أكده كثير من المعجمين المعاصرين.

وقد قال الرافعي في حقيقة «الأدب»: وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته ومعانيه الإنسانية، وأن الأديب التام الأداة هو الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط، وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس، ولذلك كان موضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار، وأن الأديب مكلف تصحيح النفس الإنسانية، ونفي التزوير عنها وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود، ونفي الوثنية عن هذه الفكرة والسمو بها إلى فوق ثم إلى فوق ودائما إلى فوق. [(١)]

فلا يدخل في الأدب الحقيقي ما يضر بأخلاق المجتمع و يخل بها، ويكون حمضا وعرقلة للإنسانية، بل يدخل فيه كل ما يفيد لها من العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه، والتاريخ والسائنس وما إلى ذلك من العلوم، فلذا نرى بابًا مستقلاً لتراجم رجال الحديث والفقه في الكتب الأدبية، كما أقام الشيخ أحمد حسن الزيات [(٢)] بابًا مستقلاً في كتابه«تاريخ الأدب العربي» أنظر صفحة: ٧، ٨، و٢٧٧-٢٨٥.

---

(١) وحي القلم ٣/ ١٦

(٢) هو أحمد حسن الزيات باشا (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م -١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، من كبار رجال النهضة =

ثم الفرق بين «الأدب» و«العلم» من حيث كون «الأدب» فنًّا خاصًّا يوجد في الوقوع، فـ«العلم» يتعلق بالواقع الحقيقي الناشئ من تجارب الناس الصحيحة، و«الأدب» يتعلق بعواطفهم ومشاعرهم وآرائهم وأحاسيسهم، ومن جانبٍ آخر أن «العلم» يتجدد حينًا بعد حينٍ، لكون التجارب تزداد يومًا بعد يومٍ، وأما العواطف والمشاعر فقلما تتجدد؛ لكونها مغروزة في عمق الأنفس.[1]

= الثقافية في مصر والعالم العربي، وهو مؤسس مجلة «الرسالة». وقد اختير عضوًا في «المجامع اللغوية» في القاهرة، ودمشق، وفاز بجائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٦٢م في مصر. ويعد الزيات صاحب أسلوب خاص في الكتابة، وهو أحد أربعة، عُرف كل منهم بأسلوبه المتميز وطريقته الخاصة في الصياغة والتعبير، والثلاثة الآخرون هم: مصطفى صادق الرافعي، وطه حسين، والعقاد؛ وكان سليم الطبع صحيح النهج غزير الفكر قائدًا من قواد الحركة الأدبية الإسلامية، تشهد عليه كتبه مثل «تاريخ الأدب العربي»، و«دفاع عن البلاغة»، و«وحي الرسالة» وغيرها.

(١) تاريخ الأدب العربي لواضح رشيد الحسني الندوي صـ: ٨١.

المطلب الثاني : الأدب في الدين أو الدين في الأدب

وما ذكرناه من الفرق بين «العلم» و«الأدب» يتضح به أن ما بين «الدين» و«الأدب» مثل توأم الموز ! فعلاقة «الأدب» بـ«الدين» علاقة أقوى من علاقته بأيِّ موضوعٍ آخر ، فإن مقصد «الدين» أن يسلم العابد كل شعوره وعواطفه أمام خالقه ذي العزة والجلال ، وكأن «الأدب» يتولد منها .[١]

نعم ! ولذلك نرى أن الأشعار الجاهلية وافرة بالأبيات في مدح الله تعالى ، حتى يقال : ليس في تلك الأشعار بيت واحد ما يشير إلى الشرك بالله !

تعريف الرافعي الدين واللغة

وقد عرَّف الرافعي [٢] هذين تعريفًا حسنًا ، فقال : «اللغة» هي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها ؛ وأما «الدين» فهو حقيقة الخلق الاجتماعي في الأمة ، وهو الذي يجعل النفوس على طبقة واحدة

---

(١) أنظر : تأريخ الأدب العربي لواضح رشيد الحسني الندوي صـ : ٨٣ – ٨٤ ، وتاريخ آداب العرب للرافعي ١/ ١٥-١٦ .

(٢) هو الشيخ مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي العمري (١٢٩٨هـ-١٣٥٦هـ الموافق ١٨٨٠م -١٩٣٧م) ، ولد في مصر ، وينتمي إلى مدرسة المحافظين وهي مدرسة شعرية تابعة للشعر الكلاسيكي ، لقب بمعجزة الأدب العربي ، وكان من كبار أعلام الأدب العربي ، جاهد ضد الأدب الغربي والحضارة الغربية ، وكسر أسنان المستشرقين والأدباء الذين تأثروا بهم ، فألف وأكثر ، وجمع وأيد الدين ، وهو من تلك الثلة الذين حاربوا الكفار بأقلامهم ، ومن كتبه : «وحي القلم» في ثلاثة أجزاء ، و«تاريخ آداب العرب» في ثلاثة أجزاء ، و«إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» وغيرها ، فرحمه الله رحمة واسعة !

باختلاف مظاهر الأمة الاجتماعية عالية ونازلة .[١]

فكلاهما يتعلقان بنفس الأمة وأوضاع الاجتماع الحقيقية ، ومن ههنا تتفتح علاقة أحدهما مع الآخر ، ولا يسهل انتزاع اللغة من الدين أوانتساق الدين من «اللغة» ، نعم من هنا نقول : مهما تزداد تلك القوى من التوحيد والعبودية يتلون أدب الأديب معها بقدرها ، ويكاد يتصبغ بصبغتها .

المطلب الثالث : معنى الإعجاز

الإعجاز : مشتق من العجز ، وهو الضعف أوعدم القدرة ، أعجزه : جعله عاجزًا ، أعجزه الشيء : فاته ، لم يقو عليه ، أعجز في الكلام : أداه بأبلغ أسلوب ، أتى بإعجاز في التعبير ، ومنه إعجاز القرآن ، وهو معانيه البليغة بأبلغ الأساليب مـمَّا يعجز عنه الناس ، ولا يقوى عليه ، أي : نسبة العجز إلى الناس بسبب اعتقاد المسلمين بعدم قدرة أي شخص على الإتيان بمثله .

وأما المعجزة في اصطلاح العلماء : فهو أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة .

المطلب الرابع : القرآن معجز ليس الحديث ، ولكن ...

ومن المعلوم بداهة أن الإعجاز له قسمان : أما الأول : فهو الإعجاز العلمي ، وأما الثاني : فهو الإعجاز البياني والأسلوبي ؛ فأما الإعجاز العلمي فهو إخبار القرآن أوالسنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي ، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول محمد ﷺ مـما يظهر صدقه

---

(١) وحي القلم ٣/ ٣٦ – ٣٨ .

فيما أخبر به عن ربه ﷻ ، وفق اصطلاح الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

قال تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء ، الآية ٨٨] .

وقال أيضا : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . [سورة هود ، الآية ١٣] .

ثم تحدى بسورةٍ قصيرةٍ مثله فقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة يونس : ٣٨] .

فالإعجاز العلمي موجود في القرآن والحديث كليهما ، لكونهما من الله تعالى ، فقد قال ﷻ عن نبيه ﷺ ﴿وما ينطق عن الهوى﴾. [سورة النجم ، الآية ٣]

أما الإعجاز البياني للقرآن فهو معجز فيه على الاتفاق ، لعدم قدرة الناس على الإتيان بمثله ، قال الشيخ نور الدين عتر حفظه الله : «وأما الحديث فقد ذهب بعض العلماء من المتقدمين وغيرهم إلى القول بأن الحديث النبوي معجز ، وإن لم يقع به التحدي كما وقع التحدي بالقرآن الكريم ، ولحظوا في ذلك ما ذكرناه من المعنى .

لكن التحقيق الذي عليه جمهور العلماء أن الحديث ليس معجزا ، واستشهدوا بدلالة الواقع الملموس ؛ فإن الناظر في كلام الصحابة الكرام ﷺ الذين أطالوا ملازمته والتلقي عنه ﷺ يجد في كلامهم كثيرا مما يشابه الحديث النبوي ، حتى أن من لم يعلم أنه من كلام الصحابي يظنه حديثًا نبويًّا ، نحو ما

نجده من روائع بلاغة أبي بكر الصديق ﷺ وخطبه ، وكذلك علي بن أبي طالب ﷺ وغيرهما كما ذكرناه ، إلا أن الحديث النبوي وإن لم يكن معجزا ؛ غير أن فيه خصوصية ما اشتمل عليها من سمو الفصاحة وعلو البيان ، ومزايا البلاغة العالية ، فقد توفر من ذلك فيه ما لا يتوفر في غيره ، مما يجعله خصوصية نبوية ، وإن لم تكن معجزة ، يدل على ذلك الحديثُ المشهور [(١)] : «أعطيت جوامع الكلم» . [(٢)]

وقال أيضا : نحن إذ نؤيد ما ذهب إليه العقاد ، نرى أن الأولى في الاستدلال لهذه السمة وهذا السمو وهذا التأصيل لسمات البلاغة النبوية هو الاستدلال بالقرآن الكريم ، وقد جاء صريحًا جليًّا مؤكدًا بقوة في قوله تعالى : ﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾ . [سورة المائدة : ٩٩]

وقال مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ . [سورة الرعد: ٤٠] وما إلى ذلك من نصوص القرآن الكثيرة . [(٣)]

نعم هذا هو السر في كون بلاغة النبي ﷺ أفضل وأعلى من بلاغة البلغاء وفصاحة الفصحاء الآخرين ؛ فإن كل كلمة نطق بها لسان الرسول ﷺ ، ليست هي إلا من وحي إلهي قد خفي على الناس مرئيه ، فلم يجر كلامه إلا بأمر الله ، حتى أصبح أن يكون أسلوبه أبلغ وأفصح وإن لم يكن معجزًا

---

(١) أخرجه مسلم : ٥٢٣، وابن الجارود في «المنتقى» ٥٢/١ رقم : ١٣٧، وابن حبان في صحيحه ٨٧/٦ رقم : ٢٣١٣ ، والترمذي : ١٥٥٣، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) مجلة مركز بحوث السنة ... ، العدد السابع ١٤١٤هـ تحت عنوان «أهم الملامح الفنية» صـ: ٨١

(٣) أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي : صـ:٨٢ .

بعد كتاب الله المعجز ، قد شهد عليه أدباء العرب وبلغائه ، فقال يونس بن حبيب (١٨٢هـ) : ما جائنا عن أحد من روائع الكلام ما جائنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .[١]

وقال ابن دحية (٦٣٣هـ) في خصائص فمه : أعظمها الفصاحة التي فاق بها جميع العرب وأتى بنظام غير نظام الشعراء والمترسلين وذوي الخطب .[٢]

فيمكن لأحدٍ أن يكون بعض ألفاظه أوجمله مشابهًا أونظيرًا للحديث النبوي ، بيد أنه لايستطيع أن يماثله كلا ، كما أنه لا يماثل القرآن ، ولو كان في جملة واحدة ، وهذا هو الفرق بين إعجاز القرآن الكريم وإعجاز الحديث النبوي الشريف .

المطلب الخامس : حجية الحديث في اللغة و بناء القاعدة النحوية

هذا موضوع مهم تعتمد عليه كل العلوم الدينية من النحو والصرف والبلاغة والتفسير والفقه وغيرها ، فإن الحديث أصل ثانٍ بعد كتاب الله المنزل ، وهو مفسر له من حيث البيان والتفصيل ، كما قال اللهُ تعالى عن نبيه ﷺ : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [سورة النحل :٤٤] .

فجميع العلوم الدينية تنبت من القرآن ومن الحديث من حيث كونه مبينا له ، بل إن كليهما كمنبع العلوم الأخروية والآلية .

ثم إنها تطلع بلسان اللغة ، وهي العربية ، وقد نزل القرآن باللغة

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٨ .

(٢) الآيات البينات صـ : ٢٥٨ .

العربية الخالصة البليغة، فقد قال الله ﷻ : ﴿بلسان عربي مبين﴾ [سورة الشعراء: الآية : ١٩٥] ، وقد أنزل على النبي العربي الخالص المخلص ، فبينه و فسره بلغتـه ، حتى أصبحت أحاديثه ؛ بل كل أقواله وحيًا ثانيًا بعـد القـرآن الكـريم ، فقـال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى﴾ [سورة النجم : ٣ و٤] .

ويجدر أن يفكر في ألفاظ الآية فلم يقل الله : «وما يقول عن الهوى» أو «وما يتكلم» أوغير ذلك من الألفاظ العربية اللطيفة ، وتعني الآيـة : أن لـيس نطقه -ولو كان بحرفٍ واحدٍ ؛ فضلا عن الجملة الكبـيرة- صـادرًا عـن هـوى نفسه ، وما القرآن وما السنة إلا وحي من الله إلى نبيه محمد ﷺ .

الفرق بين النطق والقول والكلام

وقد فسرنا الآية هكذا ؛ فإن هناك فرقًا بين النطـق والقـول والـكلام ، وهو أن معنى النطق : التكلم بصوت وحروف تؤدي المعاني للفظ واحد ، ويخرج من قيد حروف أصوات الحيوانات الأخرى غير ذوات العقول ، فإنهـا أصـوات فقط ، ولا تعتبر حروفا ، ومن ذلك يسمى الإنسان حيوانا ناطقا في علم المنطق؛ فإن أصواتهم حروف أيضا حـين يتكلمـون ، فـإذا لـم يتكلمـوا ، بـل يصـوتون أويصيحون فقط ؛ فذلك صوت وليس بنطق ولا تكلم ولا بقول .

ثم معنى القول : الكلام ، والكلام هو المعنى القـائم بـالنفس الذي يعـبر عنه بألفاظ ، فلا يكون الكلام بلفظٍ واحدٍ فقط ، ومنه الكلام المفيد والجملة المفيدة ، ومنه علم الكلام : علم يستخدم المنطق والجدل للدفاع عن الدين .

فثبت من الآية الكريمة أن كل ألفاظ النبي ﷺ وجمله يصدر عن وحي

صادق مصدوق عند الله تعالى ، سواء كان وحيًا قرآنيًّا مصطلحيًّا أو وحيًا مخفيًّا ملهمًا من الله ﷻ .

ولذلك نرى أن علوم اللغة وكتبها من القواميس والمعاجم أصلها القرآن والأشعار الجاهلية ، ولا تقل علاقتها مع الحديث أيضًا ، وقد استدل في المعاجم على كثير من ألفاظ اللغة بالحديث النبوي ، كما لا يخفى ذلك على من طالع « تاج العروس » للزبيدي (١٧٩٠م) ، حتى أن الأصمعي (٢١٦هـ) وهو من رؤوس أهل اللغة صنف في غريب الحديث كتابًا ، و سماه « غريب الحديث » ، ويعتبر من أوائل مؤلفيه .[١]

ومع كل هذه فقد اختلف بعض النحاة في كون الحديث مستدلا للغة ولبناء القاعدة النحوية ؛ لعدم التيقن بمتون الحديث وألفاظه بأنها ألفاظ النبي ﷺ أم غيره ؛ لأجل ثبوت رواج الرواية بالمعنى ، حتى أن بعض الأدباء المعاصرين أيضا، قد اعترضوا على الحديث النبوي لهذا السبب ، ولذا احتجنا إلى بعض التفصيل .

اختلاف بعض النحاة في كون الحديث مستدلا للغة ولبناء القاعدة النحوية

وقد اختلف النحاة فيه على فريقين :

الفريق الأول : وهم المانعون ، ويرى هذا المذهب عدم الاستشهاد بالحديث ، لأن الأوائل من العلماء لم يستشهدوا به . ويعد ابن الضائع (٦٨٠هـ) وأبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) من أوائل من بحثوا هذه المسألة ، فلم

---

(١) مقدمة « النهاية في غريب الحديث » صـ : ١٠ .

تطرح مسئلة الاحتجاج بالحديث قبلهما ، وكان أبو حيان من أشد المنكرين على من استشهد بالحديث ، بل نستطيع القول بأنه رأس المانعين .

ويرى هذا المذهب أن الحديث روي بالمعنى وأن الحديث ليس من لفظ النبي ﷺ ، فتجد مثلا القصة الواحدة التي حدثت زمن النبي ﷺ ، رويت بأكثر من رواية ، وفي كل رواية ألفاظ تختلف عن الرواية الأخرى والنبي ﷺ تكلم بلفظٍ واحدٍ ، فمن أين جاء كل هذه الألفاظ ؟ فجزموا أن الرواية كانت بالمعنى ، فاختلفت الألفاظ وكثرت باختلاف من رووها .

قال الشيخ إبراهيم صباح : وهذا الحكم بأن القدماء لم يستشهدوا بالحديث وهذا التعليل لعدم الاستشهاد به ، لا نعرف من قاله قبل أبي حيان وابن الضائع ، فلم نجد إشارة لا من قريب ولا من بعيد لهذه المسألة عند النحاة السابقين ، ولعل الذي أغرى أبا حيان لهذا الحكم وهذا التعليل هو قلة الحديث عند النحاة السابقين ، كسيبويه ، إذ لا يوجد في كتابه « الكتاب » إلا أحاديث قليلة لا تكاد تصل إلى أكثر من أحد عشر حديثًا ، وعدم تصريحه بأنها أحاديث . [١]

وأما **الفريق الثاني :** فهو جواز الاستشهاد بالحديث مطلقا ، ومنهم ابن مالك الأندلسي (٦٧٢هـ) ، ورضي الدين الاسترابادي (٦٨٦هـ) ، وابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ) .

وكان لبعض العلماء الذين درسوا سيرته وشمائله وخصائصه عناية

---

(١) أثر الحديث النبوي في بناء القاعدة النحوية صـ: ٣٠ .

بوصف بلاغته، تجد ذلك مثلا عند القاضي عياض (٥٤٤هـ) في «الشفاء في حقوق المصطفى ﷺ»، كما كان لبعض شراح حديثه عناية بتتبع بلاغته وبيان الأساليب البلاغية التي حواها بيانه، ومن هؤلاء: الطيبي في «الكاشف عن حقائق السنن» و ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» وغيرهما، كما أن جملة من البلاغيين استشهدوا بأحاديثه ﷺ على أساليب البلاغة التي تناولوها، وممن أكثر من ذلك ابن أبي الإصبع في «تحرير التحبير» والطيبي في «التبيان» وابن الأثير (٦٣٧هـ) في «المثل السائر» والعلوي (٧٤٥هـ) في «الطراز» والسيوطي (٩١١هـ) في «شرح عقود الجمان» وغيرهم.[١]

ثم إن القول -بأن الأحاديث بأسرها ليست موثوقة بأنها لم يتيقن بمتونها وألفاظها من كونها كلام النبي ﷺ- قول باطل؛ لأن المتواتر -وإن كان قليلا- مجزوم بأنه من ألفاظ النبي ﷺ، وكذلك ما اشتمل عليه صحيحًا البخاري ومسلم -إلا قليلا- مجزوم بأنه من كلامه ﷺ، وما صح أنه من كلامه لا شك في كونه شاهدًا بإثبات القواعد كالقرآن العظيم.[٢]

أما القول -بأن الرواة جوزوا الرواية بالمعنى- فليس كما ظنه المانعون، وأين أولائك النحويون من علم الحديث وتاريخ رجاله؟ كان شغلهم الواحد بعلمهم الشاغل، فلا عجب إذا اعترضوا من علم غير فقه وتفقه.

---

(١) البلاغة النبوية في ضوء تعدد الروايات الحديثية للدكتور يوسف العليوي صـ: ٩٦.

(٢) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ: ٢٩-٣٠.

رواية الحديث بالمعني

أولا نقول : ليست هذه المسألة -رواية الحديث بالمعنى- متفقة عليها عند جميع المحدثين ، ومن هم جوزوا الرواية بالمعنى ، لم يجوزوا إلا لمن له بصيرة وعمق وفقاهة ومهارة كل المهارة في العلوم الإسلامية خاصة ؛ علم الحديث واللغة ، حتى يوثق بقوله في الحديث واللغة كليهما ، واتفقوا أجمعون على -أن لا تجوز الرواية لمثلنا- الجاهل أولغير الماهر في اللغة ، وهذا ليس محل تفصيل ، و من يريد التفصيل فليراجع كتب «علوم الحديث» . (١)

وقد تكون في رواية الحديث ألفاظ تشابه معنى ما تلفظه النبي الكريم ﷺ بلسانه الفصيح وليست هي في الحقيقة ألفاظ تلفظها النبي ﷺ ، وقد تكون ألفاظ مختلفة في روايات الحديث الواحد ، وهي قد تلفظها النبي في أوقات مختلفة ، فأصبحت الروايات أقسامًا كثيرةً .

قال الشيخ إبراهيم صباح : وهذه الأقسام ينظرفي أقوال قائليها إن كانوا من أهل اللغة يستشهد بها ، وإلا فلا ، ولا يستطيع تمييز هذه الأحاديث إلا من له باع في علم الرواية وعلم الدراية ، ولعل علماء النحو لم يكن لهم حظ كثير في هذا العلم ، والدخول فيه ليس بالأمر الهين ، فقد أدركوا مقصودهم بما وجدوا في القرآن الكريم وقراءاته المختلفة ، وما توافرت لهم من نصوص شعرية و نثرية .(٢)

---

(١) شرح علل الترمذي لابن رجب ١/ ١٤٥، وتدريب الراوي ٢/ ٩٨ .

(٢) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ :٢٨ .

لعلهم قد جهلوا أو تجاهلوا تاريخ رجال الحديث وقصص قوة حفظهم واهتمامهم بنقل الحديث لفظا فلفظا ، حتى أنهم قد احتاطوا ولو كان في رواية لفظ واحد ، واعجبا أين وقعت أعينهم الخادعة المخدعة وأقلامهم ذوات الجرثومة والغلصمة ! أفلم يسمعوا وقائعهم المتواترة وهي كثيرة جدا في كتب السير والتاريخ وأسماء الرجال !! ألم يسمعوا أن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه حفظ قصيدة طويلة تضمنت مئة شعرٍ بعد ما سمعها مرة واحدة !

وقد سمع الإمام البخاري (٢٥٦هـ) مائة حديث منقلب إسنادًا ومتنًا من العلماء الذين عرضوها عليه امتحانا له ، فخطأ الإمام البخاري جميعها ، ثم سرد تلك الأحاديث تماما بعد تصحيحها .

وطأطأ الإمام الترمذي (٢٧٩هـ) رأسه في السفر بعد ما ذهبت عيناه ، وأخبر أن هناك شجرة في الطريق ، ولم تكن موجودة حينئذٍ ، ثم ثبت بعد التحقيق أن خبره كان صحيحا . [(١)]

قال الإمام الترمذي : كنت في طريق مكة ، فكتبت جزأين من حديث شيخٍ ، فوجدته فسألته ، وأنا أظن أن الجزأين معي ، فسألته ، فأجابني ، فإذا معي جزآن بياض ، فبقي يقرأ علي من لفظه ، فنظر ، فرأى في يدي ورقا بياضا ، فقال : أما تستحي مني ؟ فأعلمتُه بأمري ، وقلت : أحفظه كله ، قال : اقرأ ، فقرأته عليه ، فلم يصدقني ، وقال : استظهرت قبل أن تجيء ؟ فقلت : حدثني بغيره ، قال : فحدثني بأربعين حديثًا ، ثم قال : هات ، فأعدتها عليه ، ما

---

(١) الانتباهات المفيدة ١٣٢، وتاريخ بغداد ٢/ ٧ .

أخطأت في حرفٍ .[١]

واختبر كثير من المحدثين شيوخهم ، فالتمسوا منهم أن يعيدوا عليهم الأحاديث (التي أسمعوها إياهم قبل زمان) ، فأعادوها عليهم دون أن يقع منهم فيها زيادة أونقصان ! وهذه كلها واقعات مشهورة مذكورة في كتب التاريخ ، وهي تكفي للعاقل الفهم .

وإن ما فعله المحدثون من طرح ما رواه الضعفاء والمتروكون ، وإخراجه عن الأحاديث الصحيحة تكفي حجة على المانعين ، ولم يأل جهدًا في هذا السبيل ، فجزاهم الله عن الأمة في الدارين .[٢]

نقول : ولو فرضا أن في ذخيرة الأحاديث كثيرة من الروايات بالمعنى فالعجب كل العجب أن هؤلاء المانعين جوزوا الاستشهاد بأشعار مثل إمرأ القيس وأقواله ، في حين لم يجوزوه في روايات الحديث بأقوال مثل أبي بكر وعمر وابن عباس وأبي هريرة وحسان بن ثابت وهو من الشعراء المخضرمين والإسلامين الأقدمين ﷺ وغيرهم من فصحاء القريش و بلغائه ؟ فما أظلم من هذا المذهب الشانع !

ولعل اعتراضهم حدث لقلة علاقتهم بالحديث النبوي الشريف وعلومه لعدم وصول الحديث إليهم -كما قلنا- لشغلهم الشاغل .[٣]

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/ ١٥٤ .

(٢) وللتفصيل فليراجع الانتباهات المفيدة صـ: ١٣١-١٣٨ .

(٣) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ: ١٠ و٢٨ .

كيف ، وقد احترز المحدثون في رواية لفظ واحد من كل ألفاظ الحديث الشريف ، حتى يقولوا « أو كما قال الرسول ﷺ » عند الشك في لفظ واحد في الحديث النبوي الشريف ؟!

ضوابط البلغاء في الاحتجاج برواية الحديث

لقد حرص علماء العربية على تتبع لغة العربية الفصحاء وأخذها عن مصادرها الصحيحة الموثوقة بفصاحتها ، فكانت القبائل التي لم تختلط بالأمم الأخرى أوالتي يبعد سكانها عن مجاورة الأعاجم ومخالطتهم محط أنظار علماء اللغة ، لأنهم حافظوا على لغتهم ولم تتغير ألسنتهم .

فقد أخذوا عن قريش وهي من مضر ، وقد ولد فيها خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد -عليه صلوات الله وسلامه- ، وقيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين .

ثم إنهم ابتعدوا عن كل حضري أو ممن تجاور بلادهم سائر الأمم الأخرى ، فابتعدوا عن لخم وجذام لمجاورتهم مصر والقبط ، وقضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم بلاد الشام ، وأكثرهم نصارى يصلون بغير لغة العرب ، ولم يأخذوا من تغلب ولا من النمر لقربهم من اليونانيين .[١]

أفلم يكونوا هؤلاء الأصحاب ﭫ - الذين رووا الحديث بالمعنى- من قريش ؟ ومن أفصح فصحاء العرب ؟ فإن يُرْوَى من أحدهم بالمعنى ولو كان حديثًا واحدًا ، فما هو الجواب فيهم ؟

---

(١) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ: ١٣ .

ولا يستشهد بكل حديث إلا ما جاء عن الثقة أووجوه كثيرة ، ثم الرواية بالمعنى إن كان المقصود فيها رواية الصحابة أوالتابعين الفصحاء لها ، فلا بأس فيها ، ولكن إن كان المقصود أن كل الأحاديث التي جائت هي رواية معنى ورواية أعاجم وممن لا يعرفون لسان العرب ، فلعلنا بالغنا في الأمر وذهبنا إلى أن الرواية بالمعنى تخرج الأحاديث عن الاحتجاج بالمطلق ، فليس كل حديث روي بالمعنى وليس كل ما يروى بالمعنى يجب أن يكون من رواية الأعاجم أوممن لا يحسن العربية ، وخير مثالٍ على ذلك ابن سيرين .

وكان ابن سيرين يقول : لقد أتى على الناس زمان وما يسأل عن إسناد الحديث ، فلما وقعت الفتنة سئل عن إسناد الحديث ، فينظر من كان من أهل البدع ترك حديثه ، فكان اهتمامهم بسند الحديث مبكرًا ، وكما صنع عمر بن الخطاب مع أبي موسى الأشعري في حديث الاستئذان فطلب منه شاهد .[١]

فإذا جاء الحديث عن الثقة أوجائت رواياته عن عدة رواة ، فهو مستشهد يقينا لا ينبغي لمسلم أن يشك في الاحتجاج به وإن كان في اللغة ، ولكون الرواة موثوقة بهم ولطرح المجروحين والضعفاء والجاهلين من عددهم فإذا نظف الدرن من النقي فما بقي إلا الصحيح !

أسباب اختلاف الروايات

أسباب اختلاف الروايات كثيرة جدًّا ، لانذكر منها إلا ثلاثة .[٢]

---

(١) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ: ٢٣ .

(٢) وللتفصيل فليراجع البلاغة النبوية في تعدد الروايات للدكتور يوسف بن عبد الله .

السبب الأول : هو الرواية بالمعنى .

السبب الثاني : كون ألفاظ الحديث مختلفة ومكررة .

نقول : ثم في كون ألفاظ الحديث مختلفة في الروايات المختلفة سبب أخر أهم غير رواية الرواية بالمعنى -وهو أن النبي ﷺ - كان من عادته أن يعيد الكلام مرتين أوثلاثة مرار أوأكثر لزيادة البيان وتكراره وإزالة الإبهام والشبهة وإفهام السامعين من كل طبقة بأساليب مختلفة وإقرار الكلام في قلوبهم وإتقانه في أفئدتهم ، كما هو أسلوب القرآن الكريم ! فالنبي ﷺ نائب عن شريعة الله تعالى ، فلا يبعد أن يكون أسلوب كلامه كالقرآن ! وقد وضع البخاري بابا فيه سماه « باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه » .

وما كرره من ألفاظه في خطبة حجة الوداع دليل لقولنا ، فكرر « ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ » وكذا « اللّٰهُمَّ اشهد ، اللّٰهُمَّ اشهد ، اللّٰهُمَّ اشهد » .[(١)]

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ كان إذا تكلم أعدها ثلاثا ليفهم عنه ، وإذا أتى على قوم سلم عليهم ثلاثا .[(٢)]

ثم إن مثل صحيح البخاري مشتمل على سبعة آلاف ومأتين وخمسة وسبعين حديثا بالمكرر ، وإن التراكيب المخالفة لظاهر الإعراب في تلك الأحاديث لا تكاد تبلغ أربعين ! فأورد بعضهم وجوه الإشكال النحوي في

---

(١) أخرجه البخاري ٤٤٠٣ ، ومسلم ١٢١٨ .

(٢) أخرجه البخاري ٩٤ و٩٥ ، والترمذي ٢٧٢٣ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

بعض تلك الأحاديث ، وهي لا تعد أكثر من أربعين من بين ألـوف الأحاديـث الشريفة ! وقد أجاب عـنهم المحققـون المحـدثون اللغويـون بـدلائل قاطعـة مقطّعة مكسّـرة .[١]

السبب الثالث : التكرار لسبب تكرر الفعـل وتعـدد المجـالس ، وقـد يكون التعدد متحققًا وقد يكون متحملاً ، إذا لـم يتحـد مخـرج الحـديث ، فيتعدد الرواة من الصحابة مع عدم اتفاقهم على ذكر سبب الحديث .

ومن أمثلة هذا النوع ما رواه أبو مسعود الانصاري ﷺ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيـل بنا ، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئـذٍ ، فقـال : « يا أيها الناس ! إن منكم منفرين ، فأيكم أم الناس فليوجز ، فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة » .[٢]

وهذا لفظ أبي مسعود الأنصاري ﷺ ، وورد الحديث عن أبي هريـرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قـال: « إذا صـلى أحـدكم للنـاس فليخفـف ، فـإن فـيهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإن صلى لنفسه فليطول ما شاء » .[٣]

فهذا اختلاف صدره من النبي ﷺ غالبا لسبب تكرر الفعـل وتعـدد المجالس واختلاف المناسبات .

---

(١) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ: ٣١ .

(٢) أخرجه البخاري رقم ٩٠، ٧٠٢، ٧٠٤، ومسلم رقم ٤٦٦ .

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٣، ومسلم ٤٦٧ .

سيبويه واحتجاجه بالحديث :

بينَّا من قبل أن سيبويه في كتابه في علم النحو « الكتاب » استشهَد بأحد عشر حديثًا ، فهذا التعداد -وإن كان قليلاً- لا يفهم منه إلا كون الحديث محتجا به عند النحويين أيضًا .[١]

ومن الأحاديث التي استشهد بها سيبويه :[٢]

١- كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه .

٢- ما من أيام أحب إلى الله فيها الصوم منه في عشر ذي الحجة .

٣- إني عبد الله آكلا كما يأكل العبد وشاربا كما يشرب العبد .

٤- إن الله ينهاكم عن قيل وقال .

٥- سبوح قدوس رب الملآئكة والروح .

استشهاد ابن هشام الأنصاري ونماذجه

ومن المحتجين بالحديث في النحو ابن هشام الأنصاري ، ويعد من المكثرين في ذلك ،[٣]وسنورد منه نموذجين :

١- قال رسول الله ﷺ : « كل ذلك لم يكن » .[٤]

استشهد به ابن هشام في باب « الكاف » وقوع النفي في حيز « كل » ،

---

(١) رسائل في اختلاف ألفاظ الحديث النبوي صـ : ٢٦-٢٨ .

(٢) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ: ٣٤ -٣٥ .

(٣) وللتفصيل فليراجع كتاب الشيخ إبراهيم صباح : « أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية »

(٤) أخرجه البخاري ٦٧٤ ، ومسلم ٤٠٤ .

وقال : وإن وقع النفي في حيزها ، اقتضى السلب عن كل فردٍ كقوله ﷺ لما قال له ذو اليدين ﷺ : « أنسيت أم قصرت الصلاة ، كل ذلك لم يكن » . أي : لم يقع أي شيء كما قلت .

٢- قال رسول الله ﷺ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ، استشهد به ابن هشام في حروف « اللام »، معاني اللام الجارة وقال : والمعنى الثاني عشر ، نحو قوله ﷻ : ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ [سورة الإسراء : ٧٨] ، وفي الحديث : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » .[١]

استشهد ابن هشام بالآية ثم بالحديث على مجيئ اللام بمعنى « بعد » ، وهذا المعنى ذكره النحاة السابقون ، فقد ذكره الثعالبي في « فقه اللغة » وأحمد ابن فارس في « الصاحبي » .

أسباب نفي الاستشهاد بالحديث عند ابن هشام

نفي الاستشهاد بالحديث لكونه غريبا عنده : وقد لا يحتج بعض النحاة بالحديث لكونه غريبًا عنده ، ومثاله: قال رسول الله ﷺ « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، ذخرًا من بله ما أطلعتم عليه ».[٢]

ورد الحديث في حرف الباء في « بله »، وتأتي « بله » على ثلاثة أوجه ،

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٠٩ ، ومسلم ١٠٨١، والترمذي ٦٨٤، والنسائي ٢١١٨، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) النبوات لابن تيمية صـ: ١٢٠.

اسم لـ« دع » ، وما بعدها منصوب ، وتأتي مصدرًا بمعنى الترك ، وما بعدها مخفوض ، واسم مرادف لـ« كيف »، وما بعدها مرفوع ، وفتحها بناء على الأول والثالث ، وإعراب على الثاني ، وروي بالأوجه الثلاثة .

ثم يقول ابن هشام : ومن الغريب أن في البخاري في تفسير « ألم السجدة » يقول الله تعالى : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ذخرا من بله ما أطلعتم عليه » .[١]

واستعملت معربة مجرورة بـ« مِن » خارجة عن المعاني الثلاثة ، وفسرها بعضهم بغير ، وهو ظاهر ، وبهذا يتقوى من يعدها في ألفاظ الاستثناء، فاستشهد بالحديث على مجيء « بله » بمعنى غير المعاني الثلاثة آنفة الذكر ، وهو كما فسرها بعضهم بغير ، على حد قوله واستعملت معربة مجرورة .

فلم يستشهد ابن هشام بالحديث ، وهو ذكر المعاني الثلاثة بقوله على ثلاثة أوجه ، فلم يقل على أربعة أوجه ، بل وعندما جاء لذكر الحديث قدم له بقول « ومن الغريب » ، فهذه الرواية عنده غريبة على هذا النحو ، فلم يستشهد بها .[٢]

نقول : هذا كما لايستدل الفقهاء للحجة على غير مذهبهم بالحديث الغريب عند وجود دلائل أخرى أقوى منه ، وكما لا يستدلون بالحديث المعلل

---

(١) أخرجه البخاري ٤٧٨٠ ، ومسلم ٢٨٢٤ ، والترمذي ٣١٩٧ ، وقال بعد إخراجه : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية صـ: ١٠٢ .

مع وجود الدليل القوي الصحيح الشرعي ، كذلك لا يحتج في اللغة والبلاغة برواية من فيه شيء من العلل ، مثل الجهالة أوضعف الحفظ وغيرهما ، أوكانت شاذة أومنكرة ، فلا يعترض به أنه لم يستشهد ابن هشام هنا بالحديث !

ويدخل في هذه الفائدة تمييز المدرج في متن الحديث فربما تناول البلاغي المدرج على أنه من ألفاظ النبي ﷺ ، فأثبت له بلاغته وهو ليس منه ! وأكثر ما يقع المدرج في آخر الحديث ، كما قال الحافظ ابن حجر في « النكت على كتاب ابن الصلاح ٨١٢/١ ».

وأسباب الإدراج متنوعة ، وذكر السخاوي أن أكثر ما يقع الإدراج بسببه ، تفسير لفظ غريب في الحديث .[١]

حديث النية وما فيه من إعجاز اللغة

وحديث النية شاهد قوي على ما قلنا ، فإنه وإن كان مشهورًا ، لكنه غريبٌ فردٌ مصطحي ، روي بمختلف الألفاظ ، مثل « إنما الأعمال بالنيات » و« إن الأعمال بالنية » ، و« العمل بالنية » وغيرها من الروايات [٢]، ولا تصح عن النبي ﷺ إلا ما رويت عن جهة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و لا تصح عن عمر إلا من جهة علقمة بن وقاص الليثي ، ولا عن علقمة إلا من جهة محمد بن إبراهيم التيمي ، ولا عن التيمي إلا من جهة يحي بن سعيد الأنصاري . وهي

---

(١) فتح المغيث للسخاوي ٨١/٢ .

(٢) أخرجه البخاري : ١ بلفظ « إنما الأعمال بالنيات » ، ورقم ٥٤ بلفظ « الأعمال بالنية » ، ورقم ٢٥٢٩ بمثله ، ورقم ٣٨٩٨ بمثله ، ورقم ٥٠٧٠ بلفظ « العمل بالنية » ، ورقم ٦٦٨٩ بلفظ « إنما الأعمال بالنية » ، ورقم ٦٩٥٣ بمثله ، ومسلم : ١٩٠٧ .

رواية « إنما الأعمال بالنيات » .[١]

والعلة فيه أن القاعدة إذا كان مخرج الحديث واحدًا فالأصل عدم التعدد . نعم ، ولذا لم يعتبر كثير من المحدثين والفقهاء غير هذه الرواية دليلا لقولهم في كثير من المسائل الفقهية .[٢]

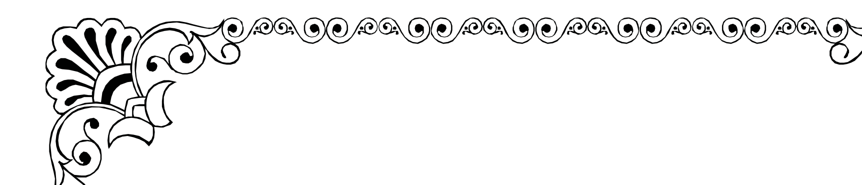
ثم الفرق اللغوي بين هذه الروايات : أنها لا تتحد المعانى الظاهرة فيها، فيثبت من رواية « إنما الأعمال بالنية » و« العمل بالنية » أنها تكفي نية واحدة للأعمال المتعددة الأجناس من قسم واحد ، بيد أن الرواية الأولى « إنما الأعمال بالنيات » يراه الناظر في الظاهر أنها تنفي هذا المعنى ، وتُثبِت النيات لكل الأعمال المتعددة على حدة ، ولكنه لم يَقُلْ به الفقهاء ، بل جوزوا النية الواحدة في الأعمال المتعددة لدلائل أخرى ، فلا تؤثر هذه الروايات في المعنى الأصلي . إلا أنا نقول : أن رواية « إنما الأعمال بالنيات » -على كونها أصح- تظهر فضيلتها على أخواتها ، لأن كثرة المباني تدل على كثرة المعاني ، فكأن النبي ﷺ يقول : مهما تعددت الأعمال بحسب النية يزداد الثواب لأجلها ! ولأجل ذلك اعتبره بعض البلغاء في جوامع الكلم ، فسبحان من أجرى الوحي على لسان عبده الكريم المصطفى ﷺ !

۞۞۞

---

(١) كشف الخفاء ١/ ٢٥، والبدر المنير لابن الملقن ١/ ٦٥٨-٦٦٠ ، وفتح الباري ١/ ١١.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١/ ٦٠٥ .



القسم الأول

والمعلوم من كلمات « المقدمة » أن هذه المقالة تحمل في طيها ثلاثة أقسام ، وسنذكر منها في هذا الموضع « القسم الأول » ، وهو يشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الفرق بين الأدب النبوي وبين أدب غيره

الفصل الثاني : ومضة من معاني الفصاحة والبلاغة مع الإلمام بمزايا البلاغة النبوية وخصائصها .

الفصل الثالث : أساليب البلاغة النبوية ودعائمها



الفصل الأول

الفرق بين الأدب النبوي وبين أدب غيره من المستشرقين المتجددين وأدب الأدباء والبلغاء الآخرين

طبعا أن يكون الفرق بين أدب صاحب الوحي ﷺ وغيره ، ومن يطالع أحاديثه ويفكر في أسلوبه يشمَس أمامه شَمُوسَ النهار أن هناك فروقا ، ونبينها في إثنين :

الفرق الأول : يتصل أدبه ﷺ بمصدره الأصلي بخلاف غيره

الفرق الثاني : خلو كلامه من قبائح الأدب مثل التعقيد وغيره

الفرق الأول

يتصل أدبه ﷺ بمصدره الأصلي بخلاف غيره

وحرصًا على زيادة الاتضاح نورد كلام الشيخ مصطفى صادق الرافعي (١٩٣٧م) رحمه الله تعالى ، فقال : ثم هو ﷺ ليس كغيره من بلغاء الناس : يتصل بالطبيعة ليستملي منها ، بل هو نبي مرسل يتصل بمصدرها الأصلي ؛ ليملي فيها ، وقد كانت أخر ابتسامة له ابتسامته للصلاة ، يتهلل لطهارة النفس المؤمنة قائمة بين يدي ربها .

كما أن البلغاء عادةً يزينون ورقاتهم بإلقاء طبيعتهم وأنفسهم ، ونفسانية دنياهم ليذوقوا زيَن أمورها ولكن أدب النبي ﷺ يتعلق مع ما هو الأعمق منها ، والذي هو مصدرها الأصلي ، وهو الخالق رب الطبيعة ! ولذا كان كل ألفاظه وأساليبه وسيره وشمائله وأفعاله وانفعالاته وشعوره وحركاته وأفراحه وسروره في كل لمحات حياته تتصل مع ربه ، حتى لم يفارقه دِبسه وحلوه من شفتيه حين الاحتضار أيضًا ، فلم يبتسم عندئذٍ إلا لإقامة شريعة الله .

وقال : وهذا ونحوه من الفن البديع النادر ، وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه ﷺ إلا في مثل ما رأيته ، فلا يراد منه (أي لا يطلب منه) استجلاب العبارة المليحة ولا صناعة الخيال البديعة، فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلو البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب دليل على ما ينكره

ويستجفيه ، ويقول : بداوة وسجاذة ونحو ذلك مما تشبه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن في حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا .

وإنما انتفى ذلك عن أدب النبي ﷺ لانتفاء الشعر عنه وكونه لا ينبغي له أن يقول الشعر أويصنعه ؛ فإنما شغله وعمله وواجبه وفرضه أن يهدي الإنسانية إلى هدى الله وتوجيهاته ، لا أن يوزن لها الدنيا بكلماتها ، وأن يهدي إلى ما يجب ويفيد من العمل ، لا إلى ما يحسن في صناعة الكلام ، وأن يهدي إلي ما تفعله لتسمو وتعلو به ، لا إلى ما تتخيله لتلهو وتلعب به .

والخيال المحض هو الشيء الحقيقي عند النفس في ساعة الانفعال والتأثر فقط ، ومعنى هذا أنه لايكون أبدا حقيقة ثابتة ، إلا أن يكون كذبًا على الحقيقة، والخيال لا يكون أبدا أدبا حقيقيا إلا أن يكون ممتزجا ومُـوَرَّدا بصفات الخالق تعالى .

ثم إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب والوصال على طريقة الأساليب البيانية إنما هو من باب الأحلام ، إذ لابد فيه من عيني شاعر ونظرة عاشق ، وهنا نبي يوحى إليه ، فلا موضع للخيال في أمره ، إلا ما كان تمثيلا يراد به تقوية الشعور الإنساني بحقيقة ما في بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة . (١)

وسنورد التمثيل في القسم الثاني في التصوير الفني للحديث النبوي إن شاء الله تعالى .

---

(١) وحي القلم ٣/ ٢٤-٢٥ بتصرف يسير .



الفرق الثاني

خلو كلامه من قبائح الأدب مثل التعقيد وغيره

كان كلامه ﷺ خاليًا عن كل القبائح الأدبية والبيانية ، مثل التعقيد والكراهة في السمع واللغو واللهو وإطالة الكلام بغير فائدة وغيرها ، وما أحسن ما قد جرى في لسانه : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعني»! (١)

الله أكبر ! جملة صغيرة ، كأنها تبين قوانين المجتمع كلها ، نصيحة واحدة ، لو ألقيت على الجبل لرأيته يلين كما يلين النحاس ! فلو عمل أحد عليها لأفلح في دنياه وأخراه .

فلم يقل : «من حسن الناس» مكان «من حسن إسلام المرأ» ، كأنه أراد أنها قد تكون عادة الكفار هي الشغل بما لايعنيه ، ثم لم يقل : «ما لا يفيد» مقام «ما لا يعنيه» ؛ فإن في هذا اللفظ إشارة إلى أنه ينبغي لكل مسلم أن يريد ما يفيده للآخرة ودنياه .

ولا ينبغي له العبث واللغو في أي لحظة كانت ولأي مقصد كان ! بل كل أفعال المسلم يكون للإفادة أوالاستفادة تحت غرضٍ صحيحٍ معينٍ وطريقةٍ صحيحةٍ معينةٍ ، حتى لا يبقى شيء لعبًا ولهوًا عنده إلا ويصير مفيدًا ومفرحًا تحت أصول مقررة .

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وابن ماجه ٣٩٧٦ وقال الترمذي : هذا حديث غريب .

ولأجل هذا المعنى الدقيق يعد من جوامع الكلم ، ويعتبره العلماء من ثلث الإسلام ، فكان لا يقول إلا ما يصلح للحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي الحقيقي ، ولم يقل إلا إلهاما من الله ، حتى لم يبق لأحد أن ينقد كلامه ﷺ ، ولذا أصبح رأس الأدباء ومصدر البلغاء وأفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ، يقول الرافعي : ولقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة ، لا لفظ اللغة فحسب ، فالعناية فيها بالحقائق .[١]

ومع ذلك كان مستوفي الكلام ، مستطيعًا على أداء ما يقصد من الكلام والكلمات بأحسن الأدب وأسهل البدائع ، قال الرافعي : ولاجتماع تلك الثلاثة -(١) استيفائه الكلام ، (٢) وأدائه ما يقصد ، (٣) وخلوه من الرذائل- في كلامه ﷺ بناء بعضها على بعض ، سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعي والخطل والانتشار ، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة كالمجاز البعيد الذي يغوص إلى الأعماق الخيالية وضروب الإحالة وفساد الوضع المعنوي وفنون الصنعة وما إليها مما هو فاش في كلام البلغاء ، يعين جفاء البداوة على بعضه ورقة الحضارة على بعضه وهو في الجهتين باب واحد، ولذلك السبب عينه كثر في البلاغة النبوية هذا النوع من الكلم الجامعة التي هي حكمة البلاغة ، وهو غير ذلك النوع الذي قلنا فيه مما تكون غرابته من تركيب وضعه في البيان .

---

(١) وحي القلم ٣/ ١٦ .

وهكذا يكون أكثر كلامه ﷺ من الكلم الجامعة :كقوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات» ، وقوله ﷺ : «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات»، وقوله ﷺ في معنى الإحسان : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وقوله ﷺ : «آفة العلم النسيان وإضاعته أن تحدث به غير أهله» ، وقوله ﷺ : «المرء مع من أحب» ، وقوله ﷺ : «الصبر عند الصدمة الأولى»، وقوله ﷺ : «لا تجن يمينك عن شمالك» ، هذا من مجاز قول النبي ﷺ ، أي : كما أنك لا تريد نفسك أن توذي يمينك بشمالك بأي مشقة ، كذلك لا ينبغي لك أن تجني على غيرك .

وقوله : «المُضَعِّفُ أميرُ الركبة» والمضعف هو الذي به ثقل على رجال القافلة لضعفه ، ومعناه في حديث آخر : «سيروا بسير أضعفكم» ، ومتى كان الركب على رأي وقول أضعفهم في سيرهم ونزولهم ووقوفهم ، فكأنه أميرهم في سمع قوله ، وفي قولٍ يروى لعمر ﷺ المضعف أمير على أصحابه ، وبين هذه وتلك فرق في المعنى ، وجمال في الصياغة ، فإن الركب أصحاب ، وليس كل أصحاب ركبا . انتهى من «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» للرافعي ٣٤٠-٣٤١ .



الفصل الثاني

ومضة من معاني الفصاحة والبلاغة

مع الإلمام بمزايا البلاغة النبوية وخصائصها

في تضاعيف السطور التالية نقدم إليكم -أيها القراء الكرام- في هذا الفصل مبحثين مهمين ، وها هي إليكم ...

المبحث الأول : معنى الفصاحة والبلاغة

المبحث الثاني : مزايا البلاغة النبوية ومميزاتها وخصائصها

المبحث الأول
معنى الفصاحة والبلاغة

الفصاحة لغة : البيان ، واصطلاحًا : وهي سلامة الألفاظ من اللحن والإبهام وسوء التاليف والفصاحة تكون في المفرد والكلام .

وأما الفصاحة في المفرد فهي تكون بسلامته من تنافر الحروف والكراهة في السمع واللفظ ومن غرابة الاستعمال ومخالفة القياس اللغوي ؛ وأما الفصاحة في المركب فتكون بسلامته من ضعف التاليف وتنافر الكلمات والتعقيد ومن التكرار وتتابع الإضافات .

والبلاغة لغة : حسن البيان وقوة التاثير ، رجل بليغ : حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ، واصطلاحًا عند علماء البلاغة : هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .[١]

ويتضح منه الفرق بينهما ، فبينهما عموم خصوص مطلق ، فكل الكلام البليغ فصيح بالضرورة، بيد أنه ليس كل الفصيح بليغًا ؛ فإن الفصاحة تكون في الألفاظ أيضًا ، وأما البلاغة فتختص بالكلام ؛ لا بالألفاظ والكلمات ، فإذا قيل : «البلاغة النبوية» لابد من كون كلامه وكل ألفاظه بليغا مع الفصاحة ، كان كل ألفاظه فصيحا : بل نقول : كان كلامه ﷺ كعروس البيت الحسينة ،

---

(١) لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ٤٨٧/١ .

وكانت خزائن ألفاظ اللغة والأدب تتضام عنده حين يتكلم ،كأنها كانت تصيح قائلة :

يا صاحب الشريعة والفصاحة !

تشرفني بعطاء تلفظك الشريف !

ولا تحرمني من بركة لسانك المبارك !!

ولا توتمني بتنحيتك !!!

حتى أُكْتَب أنا وجسمي وروعي بحبك في مسودات الكتب !

عبر مجرى التاريخ ؛ إلى ما يدوم عرش ربك بقيا !!

ولكن صاحب الشريعة والفصاحة ﷺ يختار منها ما يشاء وحيًا من ربه العليم ، بغير تكلف فيه ولاتصنع ولا مشقة ولا تأخير ؛ ولهذا السر العظيم كان كل ألفاظه من أفصح اللغة العربية ، فحقًّا أن يقال فيه : إنه لأفصح العرب العرباء .

المبحث الثاني

مزايا البلاغة النبوية ومميزاتها وخصائصها

وامتازت البلاغة النبوية من بين سائر بلغاء اللغة العربية والعجمية بخصائص كثيرة ، لكون أدبه أدبًا يصور للحقيقة أمام العباد ، وهي مزاياها ومميزاتها، التي تطول بها الصفحات وتحجم حجما كبيرًا، إلا أنا نختار منها ما هي الأهم، ونقدم إليكم في هذا الموضع قائمة منها ، وسيأتي ذكرها مع الأمثلة إن شاء الله !

الميزة الأولى	:	نزول القرآن الكريم عليه بلسان عربي مبين
الميزة الثانية	:	حفظه لسان إسماعيل
الميزة الثالثة	:	كلامه وحي ثان بعد كتاب الله ﷻ
الميزة الرابعة	:	أوتي جوامع الكلم
الميزة الخامسة	:	بذل النفس بكلمات الدعاء عند الخالق ذي الجلال
الميزة السادسة	:	أن ألفاظ الأحاديث والتعابير النبوية مألوفة مأنوسة
الميزة السابعة	:	الوضوح وسهولة دلالة الألفاظ في الأحاديث النبوية
الميزة الثامنة	:	مخاطبة كل إنسان على مقدار عقله
الميزة التاسعة	:	الإحاطة بلغات القبائل العربية
الميزة العاشرة	:	الإبداع الفني في صياغة الكلام



الميزة الأولى

نزول القرآن الكريم عليه بلسان عربي مبين

وأكبر شيء قام بتمييز بلاغة النبي ﷺ عن سائر الخلق بشكلٍ عامٍّ وعن مجتمعي البشر والجن بشكلٍ خاصٍّ ، وهو نزول القرآن الكريم عليه بلسانٍ عربيٍّ مبين ، فمن جراء الوحي الإلهي استقرت قدماه ﷺ على عرش البلاغة لأبد الآبدين ، وخير شاهد له ما ذكره الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه المشهور في فلسفة اللغة «المزهر» ١/ ٣١-٣٢ على النحو التالي :

قال رسول الله ﷺ في يوم دجن : كيف ترون بواسقها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها ! قال : كيف ترون قواعدها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها ! قال : كيف ترون جونها ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده ! قال : كيف ترون رحاها استدارت ؟ قالوا : نعم ما أحسنها وأشد استدارتها ! قال : كيف ترون برقها ؟ أخفيا أم وميضا أم يشق شقا ؟ قالوا : بل يشق شقا ، فقال : الحياء، فقال رجل يا رسول الله ! ما أفصح ما رأينا الذي هو أعرب منك ! قال : حق لي، فإنما أنزل القرآن علي بلسان عربي مبين .[1]

❁❁❁❁

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ١٣٦٣ ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٥٩٤٩، والرامهرمزي في أمثال الحديث ١٥٦/١ .

الميزة الثانية

حفظه لسان إسماعيل

وهذه الميزة تؤيد الأولى وهي مضمون الحديث السابق ، وهي حفظه لسان إسماعيل ، كذا في الحديث التالي : عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : يا رسول الله ! ما لك أفصحنا ، ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال : كانت لغة اسماعيل قد درست ، فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها فحفظتها .(١)

وفي روايةٍ أخرى : فقال النبي ﷺ : « جاءني جبريل ، فلقنني لغة أبي : إسماعيل » كما ذكره الحافظ ابن حجر(٢).

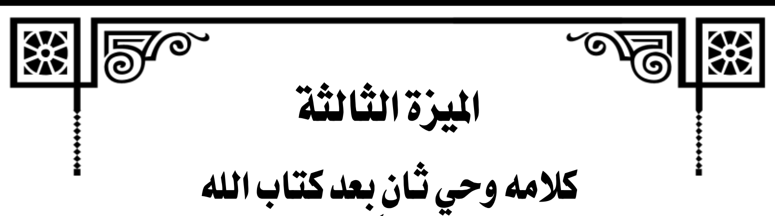
وقال الحافظ الذهبي : قال عبّاد بن العوّام : حدّثني موسى بن محمد بن إبراهيم التّيمي عن أبيه قال رجل : يا رسول الله ! ما أفصحك ؟ ما رأيت الذي هو أعرب منك ، قال : « حقّ لي ، وإنّما أنزل القرآن بلسان عربيّ مبين » .(٣)

---

(١) المزهر ١/ ٣١ ، كما نقله ابن عساكر في تاريخه ١/ ٤٣٢ .

(٢) لسان الميزان : ١/ ٦٩١ .

(٣) تاريخ الإسلام ١/ ٧٦٢ .



الميزة الثالثة

كلامه وحي ثانٍ بعد كتاب الله

ومن أفضل المزايا للبلاغة النبوية أن الله ﷻ آتاه بجانب الوحي القرآني وحيًا ثانيًا دون مرتبة الوحي الأول، وهو الوحي الحديثي، أوتقول: الوحي السني فيما يتعلق بتفسير الآيات القرآنية، بحيث يتجلى للأنام المفهوم الصحيح لكتاب الله، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ [سورة النحل: ٤٤].

ويؤيده حديث نبوي حيث أكد عليه رسول الله ﷺ على شاكلة قوله: «أوتيت القرآن ومثله معه»[١].

بيد أن الفرق بين بلاغة الوحي الأول يعني القرآن الكريم، وبين بلاغة الوحي الثاني يعني الحديث النبوي الشريف: أن الأول معجز يتحدى به الجن والإنس، وأما الثاني فهو بيان له.[٢]

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٦٠٤، وقال المنذري: وأخرجه الترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢)، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وحديث أبي داود أتم من حديثهما.

(٢) تصوير البلاغة النبوية صـ: ٤.



الميزة الرابعة

أوتي جوامع الكلم

ومن مزايا البلاغة النبوية التي جعلت النبي ﷺ أحد الآحدين في مجال البلاغة الإنسانية أنه ﷺ أعطي شيئًا فيما يتعلق باللغة ما لم يعط أحد من الأنبياء والمرسلين من قبل ، وقد أطلق الرسول ﷺ نفسه على هذه الميزة «جوامع الكلم» على شاكلة قوله : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون» .[(١)]

وقد وصف العلامة الجاحظ هذه المكانة اللغوية الواردة في الحديث النبوي الشريف بشكلٍ لم يسبق إليه أحد ، بل صار وصفه مثلا أعلى لكل من حاول توضيح هذه المقدرة النبوية في حقل اللغة من الأجيال المتعاقبة ، فإنه يصف هذه الصفة : وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد ! «وما أنا من المتكلفين» ، فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقير واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطلق إلا عن ميراث حكمة ولم

(١) أخرجه البخاري ٧٢٧٣، ومسلم ١١٦٧، وصحيح ابن حبان ٢٣١٣ ، والترمذي ١٥٥٣، وقال الإمام الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتاكيد ويسر بالتوفيق .[١]

وقد وافق رأيه المحدث الكبير الإمام العلامة بدر الدين العيني شارحا ومعلقا على التعبير النبوي «جوامع الكلم» بالتالي :«بعثت بجوامع الكلم»[٢] أي بجوامع الكلمات القليلة الجامعة للمعاني الكثيرة وحاصله : أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني .

وعلى هذا النحو تضافرت الأسباب والعوامل في نشوء المثل الأعلى للبلاغة في طبيعة النبي ﷺ مما لا دخل لغيره عليها على المعمورة ؛ فبناء على ما سبق يمكن القول بأن البلاغة النبوية هي بلاغة تحتل منزلة بين منزلتين ، وفي كلمة أخرى هي تختص بمكانٍ يتخفض مرتبة عن مكانة البلاغة القرآنية ، وفي الوقت نفسه هو تفوق مرتبة وشرقا على البلاغة البشرية برمتها .[٣]

كما وقع في قوله ﷺ : «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» ، وقد قاله لأبي عزة (٦٢٥م) الشاعر ، وكان من أسارى بدر ، فمن عليه النبي ﷺ ، لكنه لم يف بعهده ، فقبض عليه مرة ثانية يوم أحد ، فطلب أن يمن عليه مرة ثانية ، وحينذاك قال الرسول ﷺ ذلك .[٤]

فهذا تمثيل بديع يعرج به الأدب ويتذهَّب ، والمثل يضرب لمن ابتلي بشيء مرة ثم تحذر منه في المستقبل ، وهذا الحديث وإن كان له شأن الورود ؛

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢٨ .

(٢) عمدة القاري ٢٥/ ٢٦ ، أخرجه البخاري : الجهاد / قول النبي ﷺ نصرت بالرعب ، ٢٩٧٧ .

(٣) تصوير البلاغة النبوية صـ:٥ .

(٤) أخرجه البخاري ٦١٣٣، ومسلم ٢٩٩٨ .

لكنه عام لكل أحد ، فهذه جملة واحدة تلفظها النبي ﷺ وتحمل معاني جمة في بطنها ، ونصائح حافلة لأصول حياة المسلم في طريقه ،كأنها بحر في إناء صغير!

وينبغي لكل مسلمٍ أن يتكمَّل به من كياسةٍ وسياسةٍ ، ويقظة وحزمٍ ؛ فإنّ نقصا في دين المرء وعقله أن يكون أبْلَه مُغفَّلا ، خَدْعةً للخادعين ، وطُعْمَةً للطامعين ؛ فلو يفكر في ألفاظ النبي ﷺ ، ثم يتقدم إليه شيء فيتذكر ألفاظه ، ويسلك مسلكه ، لايفعل إن شاء الله شيئا في حياته يخدع به من شياطين الناس والجن ، ما يصيبه من خسارة الدنيا والآخرة .

فكما أن اللدغ شبه به الخداع ، كذلك فيه إشارة إلى أن ضيق الدنيا ملدغ كثقب الحية الضيق ، والدنيا هي محل الخداع ، فلا يخدع المؤمن بأي خادع كان ؛ وهكذا تجد البلاغة والتشبيه الحسن والتمثيل الجميل الذي هو مدار الأدب وأصوله موفورة في كلامه ﷺ ، بل نقول : كل كلامه من جوامع الكلم ، فيصدر من كل ألفاظه وجمله يواقيت وجواهر ودرر ولآلئ !

نفحات من تلك اليواقيت

قال رسول الله ﷺ في أصول المجتمع الإسلامي : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»[١] ، يا سبحان من أجرى في لسانه هذا التعبير المعجب العميق جذره ! تفكروا في قوله ! وكيف أبين تشريح الحديث ؟ فلو جمعت ذخائر ألفاظ لغات الدنيا كلها لبيان إعجاز

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٥١، وابن ماجه ٢٦٨٥ ، وأخرجه الترمذي ١٤١٣ أيضًا الطرف الأخير فقط ، وقال : حديث عبد الله بن عمرو في هذا الباب حديث حسن .

هذا الحديث لما ضاق على صاحب القلم أن يشرحه !

والتكافأ من الكفؤ ، والكفؤ : المثل ، وهو يكون في ذي رحم محرم ، فكأنه يقول : المسلمون كلهم كالإخوة من دم واحد ، لأجل ذلك تتساوى دمائهم في المعاشرة ، ولا فرق بين الكبير والصغير والجسيم والنحيف ، كما لا يفرق الأب الحنون بين أولاده ، فكلهم كلُحوم اليد الواحدة ، أيها تقطع تتألم ! فلا يقتل أحد ولا تجرى الدماء إلا مع القصاص ولا يظلم أحد ويساوى فيما بين المسلمين بحقٍّ ، وغير ذلك من المعاني الكثيرة .

وقال في أخذ الجماعة : ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «يد الله مع الجماعة». [(١)]

كأن نصرة الله تكون محسوسة مملوحة كاليد على رؤوس الجماعة !

وقال ﷺ في الحياء : «الحياء شعبة من الإيمان» [(٢)]، فمن لا يستحي لفعلٍ قبيحٍ ، فات منه جزء من الإيمان !

وقال نبينا المصطفى ﷺ : «يا أيها الناس! هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» [(٣)] .

أي : الكثير الذي يلهيه في الدنيا والراحة بالأمل أن لا تصيبه مصيبة

(١) أخرجه الترمذي : الفتن/ لزوم الجماعة ٢١٦٦، والنسائي : تحريم الدم/قتل من فارق الجماعة إلخ ٤٠٢٠ وقال : «على الجماعة» بدل كلمة «مع» .

(٢) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥، وأبو داود ٤٦٧٦، والنسائي ٥٠٠٤، وابن ماجه ٥٧، وقال الترمذي (٢٠٠٩) : «والحياء من الإيمان» وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه أحمد ٢١٧٢١ في مسند الأنصار من حديث أبي الدرداء .

بعد هذا !

وكذا ما روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ! فيما يعمل العاملون ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل ميسر لما خلق له»[١] .

وكذا ما روي عن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة عن ظهر غنىً» .[٢]

وكذا ما روي عن ابن معقل قال : دخلت مع أبي على عبد الله ، فسمعته يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الندم توبة» .[٣]

---

(١) أخرجه البخاري ٧٥٥١، ومسلم ٢٦٤٩، وأبو داود ٤٧٠٩، والترمذي ٣١١١، وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه البخاري ١٤٢٧، ١٤٢٩، ومسلم ١٠٣٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٢، وأحمد ٣٥٦٨ ، وقال البوصري في الزوائد (٢٤٨/٤) : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .



الميزة الخامسة

بذل النفس بكلمات الدعاء عند الخالق ذي الجلال

ومما تتميز كلماته عن غيره أيضا هو أنه مع كونه أفصح البلغاء ، كان يستحضر القلب عند ربه وخالقه ، فكان لا يقول البذاذة ، وليس في كلامه شيء من السوء أوالعبث ، كأن مالكه حاضر في ذهنه وقريب من قلبه كنصب العين ! وهذا أكثر ما يظهر عند عبادته ودعواته .

فإذا كان يدعو الله يكون صافي الذهن ومقبلا عليه بكلياته ، والأدعية المأثورة عنه شاهدة على ما قلنا ، ولا يخفى ذلك على من غاص في غَوْر كتاب الأدعية من كتب الحديث ، وقد جمعها بعض العلماء في كتب مستقلة ، ومن يُرِدْ فليطالع «الأدعية والأذكار» للشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني ، وكذا رسالة صغيرة «أدعية النبي» للعلامة عبد المحسن العباد البدر ، رئيس الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة سابقا والمدرس بالمسجد النبوي الشريف .

نماذج من روائع الأدعية

١- سيد الاستغفار : وَهُوَ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي ؛ فَاغْفِرْ لِي ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ .[١]

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٣٩٣، والنسائي ٥٥٣٧، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

فإذا تأملنا في قوله : «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي» و«لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» و«لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» ، فإنه لا يخفى ما في التعبير بضمير المخاطب من حضور ذهن الداعي وقرب قلبه من الله ، ثم الإقرار بالعبودية أمام المعبود واعتراف الذنوب ببذل النفس أمر ليس بهين لكل الناس ، إلا أن يكون رسولاً أو نبيًّا مثله ، فينبع من لسانه مثل ما نبع .

٢- وقريب من هذا قوله ﷺ إذا قام من الليل يتهجد : «اللَّهمَّ لك الحمد أنت رب السَّموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنتَ قيُّوم السَّموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السَّموات والأرض ومن فيهن ، أنتَ الحق ، وقولُك الحق ، ووعدك حق ، والجنَّة حق ، والنَّار حق ، والنَّبيُّونَ حق ، ومحمَّد حق ، اللَّهمَّ لك أسلمت ، وبِك آمنت ، وعليْك توَكَّلت ، وإليْك أنبت ، وبِك خاصمت ، وإليْك حاكمت ، فاغفر لي ما قدَّمت وما أَخَّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلٰهي لا إلٰه إلا أنت».[1]

٣- وكذا دعائه ﷺ : «اللّهمَّ طَهِّرْني من الذُّنوب والخطايا ، اللّهمَّ نَقِّنِي منْها كما يُنقَّى الثَّوبُ الْأَبيَضُ من الدَّنَسِ ، اللَّهمَّ طَهِّرْني بالثَّلْج والبَرَد والماء البارد» .[2]

قوله ﷺ : «اللّهم طهّرني من الذنوب والخطايا ، اللّهم نقني منها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس» : جمع بين طهارة الذنوب ونقائها ، مبالغة في

---

(١) أخرجه البخاري ٧٤٩٩ و١١٢٠، ومسلم ٧٦٩ .

(٢) أخرجه مسلم ٤٧٦ ، والنسائي ٤٠٠، واللفظ له .

سؤال اللَّه السلامة من الذنوب ، ومحو أثرها ، كنقاء وصفاء الثوب الأبيض من الوسخ ، لأن التطهير فيه أظهر من أي لون آخر .

ثم سأل الله تعالى التطهير بأنواع المغفرة التي تمحق الذنوب ، وذكر التطهير بأنواعه الثلاثة : الثلج ، والبرد ، والماء البارد ، تعبير عن غاية المحو ، فإن الثواب الذي يتكرر عليه ثلاثة أشياء منقيّة ، يكون في غاية النقاء ، فذكر أنواع التطهير مبالغة في توكيد التطهير، وخصَّ هذه الثلاثة بالذكر كذلك لأنها منزلة من السماء .

ولا يمكن حصول الطهارة الكاملة إلا بواحدة منها ، فكان تبيانًا لأنواع المغفرة التي لا يخلص من الذنوب إلا بها ، أي : طهّرني من الخطايا بأنواع مغفرتك التي هي في تمحيص الذنوب بمنزلة هذه الأنواع الثلاثة في إزالة الأرجاس، ورفع الأحداث والأنجاس، وفي سؤال اللَّه تعالى المغفرة يتضمّن سؤال اللَّه تعالى العصمة من اقتراف الذنوب بكل أنواعها وأشكالها . [١]

٤- وكذا دعاؤه ﷺ : اللّهم إنِّي أعُوْذ بك من قلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ومن نفس لا تشبع ومن علم لا ينفع ، أَعُوْذ بك من هؤلاء الأربع . [٢]

فهذا دعاء في أبلغ البيان بأسلوب متناسق يجذب القلوب والأفئدة ، فيا من أحسن كلامه لم تر الأعين قط مثل هذا البيان من قبل ! فبين الأربع في

(١) تحفة الذاكرين ١٥٣-١٦٠، والفتوحات الربانية ١/ ٤٣٨ .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٨٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٤٢ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

دعائه التي هي به يصل الإنسان إلى أكمل الإنسانية ، ثم أتى بصفاتها التي يحول ما بينه وبين الإنسانية بجملة الحال «مضارع» في تناسق لطيف أمام الناظر ! كأنه يُرِيْها الناس مباشرة بنور ربه !!

٥- ودعاؤه في تعويظ الحسن والحسين -رضوان الله عليها- : «أَعُوْذُ بكلمات الله التَّامة من كلِّ شيطانٍ وهامة ، ومن كل عين لامَّة». [(١)]

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧١، والترمذي ٢٠٦١، وأبو داود ٤٧٣٧، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

الميزة السادسة

أن ألفاظ الأحاديث والتعابير النبوية مألوفة مأنوسة

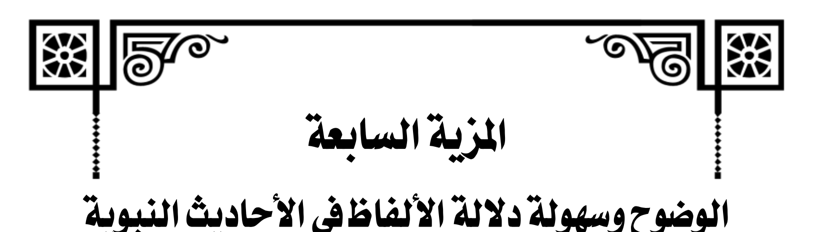
إن ألفاظ الأحاديث وتعابيرها كلها مألوفة مأنوسة ، إلا عندما ما يقتضي المعنى لفظا يناسبه ، فيختار الرسول اللفظ الأقل إلفا ، لكنه يتجنب الغريب الوحشي والسوقي المبتذل ، ومن هذا القسم غريب ألفاظ الحديث ، فليست غرائب مجهولة عند الناس مثل غرائب الآخرين ، بل هي غريبة حلوة المعاني ، كأنها إلافُ الوُرُوْدِ بَعْدَ الأشواك !

ثم ألفاظه جزلة حين يقتضي المعنى الجزالة ، رقيقة حين يقتضي المعنى الرقة ، وفي الحالتين هي واضحة الدلالة على معانيها ، كل كلمة تعبر بدقة عن تمام معناها مستقرة في مكانها غير قلقة ولا مستجلبة ولعل التوفيق بين هذين الجانبين من أشق ما يجتهد البليغ في تحقيقه ، وهو من أقوى الدلائل على قدرته البيانية ، وهذا وصف عام لكل الأحاديث .

كما يقول الرافعي : أن أسلوب النبي ﷺ أسلوب منفرد في هذه اللغة ، قد بان من غيره بأسباب طبيعية فيه ، وإنك لا ترى فيه حرفا مضطربا ، ولا لفظة مستكرهة على معناها ، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى ، وهكذا أي حديث نظرت فيه وجد فيه ذلك الوصف ظاهرا ، ظهور أجلى عن الحاجة لإيراد الشواهد والدلائل من النصوص الحديثية .[١]

---

(١) مجلة مركز بحوث السنة ، العدد السابع ، ١٤١٤هـ، تحت عنوان «أهم الملامح الفنية ...» صـ: ٦٨ .



المزية السابعة

الوضوح وسهولة دلالة الألفاظ في الأحاديث النبوية

وكان النبي ﷺ يكره الإغراب ، ويكره التكلف وفضول القول ، ولذلك لما خفي معنى من معانيه ، أواحتاج الدارس بأحاديثه لكثرة الرجوع إلى المعاجم إذا كان ذا معرفة جيدة باللغة العربية ، وهذا الحديث يدل على ما ذكرنا أبلغ دلالة ، وهو الحديث المتفق عليه : «بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان» .(١)

فالحديث مع خطورة موضوعه وأنه يبين أركان الإسلام إلى جانب ما فيه من لطائف البلاغة وبدائع الأسلوب ، واضح البيان سهل الفهم ، ولذلك قال إمام البيان الجاحظ (٢٥٥هـ) : لم تسقط له كلمة ، ولا بارت له حجة ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .(٢)

---

(١) أخرجه البخاري ٨، ومسلم ١٦ .

(٢) أهم الملامح الفنية صـ: ٦٩ .

ومن يعترض بغرائب مفردات الحديث... !

ولعل بعضا يعترض هنا على غرائب مفردات الحديث ، فإنها لا تحل إلا بالقواميس ؟ فنجيب عنهم بما يقول الشيخ نور الدين عتر : «غير أنا قد يستشكل علينا من لم يتمعن من مقاصد الكلام ، وغاية المرام بالألفاظ التي شرحها العلماء في كتب خاصة ؛ هي المعروفة بكتب غريب الحديث ، والتي يبلغ بعضها ٥ مجلدات» .

والجواب : أن مقياس الغرابة ليس هو فهم المبتعدين ، الذين يبتعدون عن اللغة ، بل المقياس إنما هو السامعون ، وكان سامعو كلامه هم الصحابة الكرام ، وكانوا يفهمون القسم الأعظم ، والجانب الأكبر من الحديث ، وقد يخفى على بعضهم بعض ألفاظه فيسأل عنه ، فيتلقى الجواب والشرح . ويكون القصد بمثل هذه الألفاظ إفادة السامع الكلمة البديعة الحسينة ، أوإيثارها لفضليتها على موقعها ، وإفادتها في مكانها ما لم يفيده غيرها .[1]

وكذا قاله العقاد : وندرته في كلام النبي ﷺ أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج بأساليب البلاغة العربية .[2]

❖❖❖❖

(١) أهم الملا مح الفنية صـ: ٧٠ .

(٢) عبقرية محمد ﷺ صـ: ٨٢ .



الميزة الثامنة

مخاطبة كل إنسان على مقدار عقله

كانت القريش أفصح قبائل العرب، وكانت لغتهم في الجاهلية هي العماد في فصاحة اللغة وكان النبي ﷺ ولد في بني هشام وأُرْضِعَ من بني سعد وعلم اللغة منهم ، ونشأ في قريش ، أرسلته أمه إليهم ليتعلم اللسان العربي الخالص الفصيح ، كي لا يختلط لسانه مع غيره من الألسنة العجمية لاختلاط العجم في المدينة للتجارة فوجد النبي ﷺ بيئة صالحة صحيحة لتعلم اللغة العربية ، وهذا أيضا أثَّر في كونه أبلغ .

ثم كان يتكلم مع كل من أهل العرب من البدو والحضر بلسانهم ، حتى الصحابة الفصحاء مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونوا يفهمون كلامه حين يتكلم مع هؤلاء البدو وأهل القبائل الأخرى ، وهذا لم يكن إلا وحيا من الله تعالى ، وخير شاهد عليه ما تكلم به مع الوفود وما أرسله من ألفاظ الرسالات إلى غير أهل المدينة ، وستأتي أمثلته .

ثم كان قد يأمر لأحد أن يخرج للجهاد في سبيل الله وقد بني عليه في تلك الليلة للعروس المتزينة ! كما وقع في غزوة موتة .[١]

وفي حينٍ آخر لا يأذن لأحد، ويعينه لخدمة والديه ! وقال : ألزم رجلها فثم الجنة ، كما رويت هذه القصة عن طلحة بن معاوية رضي الله عنه عند النسائي ،

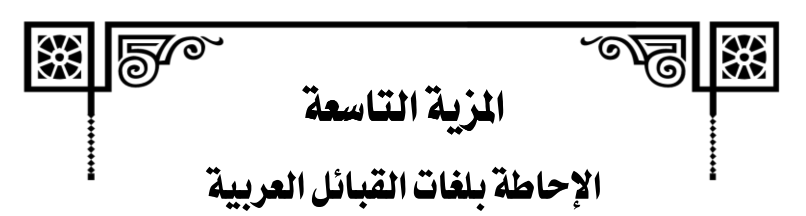
(١) انظر الحديث في صحيح البخاري ٦١١/٢ ، وفتح الباري ٧/ ٥١٢ -٥١٤ .

وابن ماجه ٢٧٨١، وقال ابن الكثير في جامع المسانيد ٥٣٥/٦: إسناده حسن .

فكان قادرًا على أن يتكلم مع الناس على قدر عقولهم وعلومهم وأفهامهم وأحوالهم ، وما أحسن وأصح في المعنى يقينا ما قاله ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» ! (١)

---

(١) انظر لتحقيق هذا الحديث «كشف الخفاء» للعجلوني ١/ ٢٢٧، فقال : أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ، رواه الديلمي بسند ضعيف ، عن ابن عباس ﷺ مرفوعا ، وفي اللآلي بعد عزوه لمسند الفردوس عن ابن عباس ﷺ مرفوعا ، قال : وفي إسناده ضعيف ومجهول ، وقال في «المقاصد الحسنة» ١/ ١٦٤- ١٦٥ : وعزاه الحافظ ابن حجر لمسند الحسن بن سفيان عن ابن عباس ﷺ بلفظ: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» قال : وسنده ضعيف جدا . ورواه أبو الحسن التميمي من الحنابلة في العقل له عن ابن عباس ﷺ من طريق أبي عبد الرحمن السُلَمي أيضا بلفظ : «بُعْثِنا معاشر الأنبياء نخاطب الناس على قدر عقولهم» ، وله شاهد عن سعيد بن المسيب مرسلا بلفظ «إنا معشر الأنبياء أمرنا» وذكره ، ورواه في الغنية للشيخ عبد القادر قدس سره بلفظ «أمرنا معاشر الأنبياء أن نحدث الناس على قدر عقولهم» ، وفي صحيح البخاري عن علي ﷺ موقوفًا «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذّب الله ورسوله»، ونحوه ما في مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ قال : «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». وروى العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرياضة وغيرهم عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا : «ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم» ، ورواه الديلمي أيضا من طريق حماد بن خالد عن ابن عباس ﷺ رفعه «لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا ما تحمله عقولهم ، فيكون فتنة عليهم»، فكان ابن عباس ﷺ يخفي أشياء من حديثه ، ويفشيها إلى أهل العلم ، وللديلمي أيضا عن ابن عباس ﷺ رفعه يا ابن عباس ! «لا تحدث قوما حديثا لا تحتمله عقولهم»، وروى البيهقي في «الشعب» عن المقدام بن
=



المزية التاسعة

الإحاطة بلغات القبائل العربية

وقد قلنا : إنه كان يعلم لغات القبائل المختلفة ، وكان يتكلم معهم بلغاتهم الأمية ، فكأنه كان يحيط بلغات العرب كلهم ، وهذا من دلائل الوحي الإلٰهي، حيث لم يسع لأحد مثله وقد كان نبيا أميا أن يحفظ كل ما كانت تتكلم به العرب البدو والحضر إلا بتعليم الله وتأديبه .

ومثالها : ما روي عن كعب بن عاصم ﷺ وكان من أصحاب السقيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليسَ مِنِ امْبِرِ امْصِيامُ فِي امْسَفَرِ». فقد قاله بلسان بعض أهل اليمن .

بعض الكلمات في سند الحديث وثبوت الإعجاز به

وقد تكلم المحدثون في هذا الحديث وسنده كثيرًا ، ولكنا نذكر كلمتين فيه من حيث ثبوته وما فيه من الإعجاز .

وقال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة ٣/ ٢٦٤ : «ليس من امبر

= معدي كرب ﷺ مرفوعًا «إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يعزب عنهم ويشق عليهم»، وروى الديلمي عن ابن عباس ﷺ مرفوعا «عاقبوا أرقاءكم على قدر عقولهم»، وأخرجه الدارقطني عن عائشة مثله ، وروى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين عن أبي ذر ﷺ مرفوعًا «خالقوا الناس بأخلاقهم» ، ونحوه عن علي ﷺ رفعه «خالق الفاجر مخالقة ، وخالص المؤمن مخالصة، ودينك لا تسلمه لأحد»، وفي حديث أوله «خالطوا الناس علي قدر إيمانهم» . انتهى .

امصيام في امسفر» : شاذ بهذا اللفظ . أخرجه أحمد ٥/٤٣٤ ، عن معمر عن الزهري عن صفوان بن عبد الله عن أم الدرداء عن كعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه وكان من أصحاب السقيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ فذكره . قلت : وهذا إسناد ظاهره الصحة ، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم ، وعلته الشذوذ ومخالفة الجماعة . فقد قال أحمد أيضا : حدثنا سفيان عن الزهري به بلفظ : «ليس من البر الصيام في السفر» . وقد تابعه عليه ابن جريج ويونس ومحمد بن أبي حفصة والزبيدي كلهم رووه عن الزهري بلفظ سفيان ، وتابعهم معمر نفسه عند البيهقي وقال : وهو المحفوظ عنه ﷺ .

نقول : أما الشذوذ فهو من حيث اللغة ثابت ، وأما الشذوذ من حيث الرواية ، فالتاريخ المشهور ينكره ثم إنه تجوز رواية الحديث بالمعنى لعالم باللسان كما هو مقرر في محله ، فكيف إذا يكون التغيير في ألفاظ الحديث ؟ فوصْفُه بالشذوذ بمعناه الاصطلاحي لا ينطبق عليه إذا انفرد . فكيف وقد توبع ؟» . إهـ

وقال الحافظ ابن حجر : وهذه لغة لبعض أهل اليمن ، يجعلون لام التعريف ميمًا ، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ خاطب بها هذا الأشعري كذلك، لأنها لغته ، ويحتمل أن يكون الأشعري هذا نطق بها على ما ألف من لغته ، فحملها عنه الراوي عنه ، وأداها باللفظ الذي سمعها به ، وهذا الثاني أوجه عندي ، والله أعلم .[1]

---

(١) تلخيص الحبير ٢/٢٠٥ .

نقول : لا تصحيفَ ولا تغييرَ في الحديث ، ولا يبعد أيضا أن يكون النبي ﷺ نطق بذلك لما اشتهر في كتب المغازي والسير أنه كان يخاطب كل قوم بلغتهم ، ولا يلزم النقصان من ذلك ، بل هو دليل للقوة الإرادية والاستيفائية في إعجاز بيانه ، فالأولى أن لا يرجح هنا بما رجحه الحافظ . والله أعلم .

وقال الزيلعي : وروي : «ليسَ مِنِ امْبِرِ امْصِيامُ فِي امْسَفَرِ»، وهي لغة بعض العرب ، رواها عبد الرزاق في مصنفه بإسناده .[1]

وقد جاء الحديث في «السنن الكبرى» للبيهقي ٢٤٢/٤. وكذا أخرجه أحمد في مسنده ٢٢٥٦٧. وذكره الخطيب البغدادي في الكفاية ، وقال : أراد « ليس من البر الصيام في السفر » ، وهذا لغة الأشعريين ، يقلبون اللام ميما .

٢- وكذا كتابه لوائل بن حجر الكندي ، أحد أقيال حضرموت ، ومنه : إلى الأقيال العباهلة والأرواح المثابيب ....

وفيه : وفي التيعة شاة ، لا مقورة الألياط ، ولا ضناك ، وأنطوا الثبجة ، وفي السيوب الخمس ومن زنى مم بكر فاصقعوه بمائة ، واستوفضوه عاما ، ومن زنى مم ثيب فاضرجوه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، و لا غمة في فرائض الله ، وكل مسكر حرام . ووائل بن حجر يترفل على الأقيال .

تفسير هذا الكتاب على نسق ألفاظه

الأقيال : جمع قَيْل ، وهو الملك من ملوك حمير وحضرموت . والعباهلة : المقرون على ملكهم ، فلم يزالوا عنه ، والأرواع : الذين يروعون بالهيبة

---

(١) نصب الراية ٤٦١/٢ .

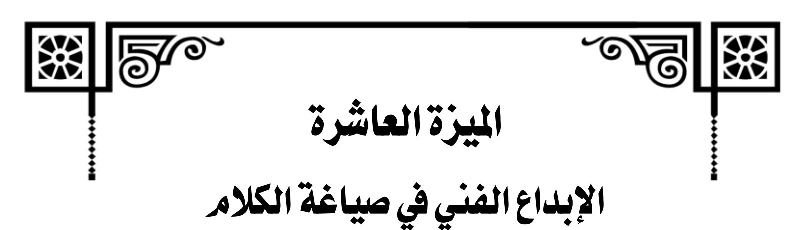
والجمال . والمشابيب : جمع مشبوب ، وهو الجميل الزاهر اللون .

والتيعة : أربعون شاة ، تطلق على أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان، والمقورة الألياط أي : المسترخية الجلوس . والضناك : الموثقة الخلق السمينة ، يريد أن شاة الصدقة لا تكون من المهازيل ولا من الكرائم ، بل تكون وسطا وهو المراد بقوله . وأعطوا الثبجة أي : أعطوا بلغتهم ، إذ يبدلون العين نونا . والثبجة : الوسط ، ومنه : ثبج البحر . والسيوب : جمع سيب ، وهو العطية ، والمراد به الركاز ، وهو دفين الجاهلية . ومم بكر و مم ثيب : أي من بكر ومن ثيب ، وهي لغتهم في إبدال النون ميما . الصقع : الضرب . والاستيفاض : النفي والتغريب . والأضاميم : الحجارة الصغار . والتوصيم : الفترة والتواني . ويترفل أي : يترأس . وتروى في هذا الكتاب صورة أخرى بزيادات غريبة .

ومن هذا الباب كلامه ﷺ مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدي وقطن بن حارثة العليمي والأسعث بن قيس رضي الله عنهم وغيرهم من أقيال حضرموت ورجال اليمن .[1]

❖❖❖❖

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ: ٣١٩- ٣٢٠ .



الميزة العاشرة

الإبداع الفني في صياغة الكلام

ومن خصائص كلامه من غير الأدباء أنه كما كان شارعا مؤيدا بروح الله ، كذلك كان صانع الأساليب وصاحب اللغة أيضًا ولذلك ترى في كلامه أساليب جديدة وتعابير حسنة ما لم يبدعه أحد قبله ، أولم يسمعه إلا من كانت له مهارة عظيمة في اللغة .

مثل حديث : «ما رأيت أحدا يفرفر» ومنه قوله ﷺ : «ما رأيت أحدا يفرفر الدنيا فرفرة هذا الأعرج» . يعني أبا حازم ، أي : يذمها ويمزقها بالذم والوقيعة فيها ، ومنه : الذئب يفرفر الشاة ، أي يمزقها .[1]

فهذا اللفظ «فرفرة» من بدائع الأسلوب ولطائفها لِفَهْمِ السامعين ، فلا يؤدى كمال معناه بالتمزيق في مثل هذا الموضع ، فإن من الأدب أن يستعمل الأديب في مثل هذا المحل ألفاظا تحضر به عند السامع صورة الفعل وشكلِه ، كأنه يرى بين عينيه تمزيق الرجل ! وهذا الأسلوب موجود في كل اللغات المترقية أيضا من العربية والعجمية الفارسية والأردية والهندية والبنغالية والإنكليزية ، كما هو معلوم لدى الناس .

وحديث «تنكح المرأة لأربع» : ومنه قوله ﷺ : «تنكح المرأة لأربع

---

(١) مجمع بحار الأنوار ٤/ ١٢٧ .

لجمالها ولحسبها ولمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك» .[١]

فقوله ﷺ : «تربت يداك» معناه الأصلي : افتقرت ، أوالتصقت يداه بالتراب ، فإن الفقير لا تكون له أموال ، فشُبِّهَ لمن التصق بالتراب ، وقد يستلقي الفقير على التراب بغير الفراش لعدم متاعه وللاعتياد به .

ثم هو من الأساليب التي استقل بها النبي ﷺ وإن قال بعض : إنه ليس أول من أجراه ؛ ولكن نقول : إنه لم يقله أحد قبله مثل هكذا في أسلوب ممتع في مختلف المعاني والمواضع . وقد شرح المحدثون معناه بشروح كثيرة ، والمصير فيها أن في معناه ثلاثة أوجه :

١- هذه جملة يستعملها العرب عادة ، كما أنهم يقسمون بالله في كلامهم ، وهم لا يريدون به اليمين المؤكد أوالكذب المحض ، بل هو أعلى من اليمين اللغو لكونه عادةً لهم ، ولا يراد بها حقيقة الدعاء، بل القصد منها الحث على امتثال الأمر الذي قبلها .

٢- هذه جملة خبرية لفظًا ، وطلبية دعائية للناس معنى ، ويؤيده أن هذه الكلمة قالها النبي ﷺ لعائشة أيضا ، فإن افتقارها كان خيرا لها .

٣- وقيل : هذه الجملة جواب شرط مقدر ، أي إن خالفت ما أمرتك به افتقرت ، يقال : ترب الرجل إذا افتقر ، وأصله : التصقت يداه بالتراب ، ويلزمه الفقر .[٢]

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٩٠، ومسلم ١٤٦٦ .

(٢) مجمع بحار الأنوار ١/ ٢٥٥ .

نقول : هنا ليس المحذوف بأحسن ، لكونه بعيدا عن عقل السامع ، وقد ثبت أنها يستعملها العرب عادة ، وقد يُسْتَعْمَل للدعاء الحسن أيضا حسب كل موضع وناس ، وهذا موافق أيضا لأول الحديث ، أي إن تظفروا بذات الدين فقد أحسنتْ يداك .

وهكذا يقول الإمام النبوي (٦٧٦هـ) : والأَصَح الأَقْوَى الذي عليه المحققونَ فِي معناه : أنها كلمة أصلها افتقرت ، ولكن العرب اعتادت استعْمالَها غير قاصدةِ حقيقةِ معناها الأَصْلي فيذكرون تربت يداك ، وقاتله الله وما أَشْجَعَه ولا أُمَّ لك ولا أَبَ له وثَكِلَتْ له أُمُّه و وَيْلُ أُمِّه وما أشبها من ألفاظهم ، يقولونها عند إنكار الشيء أوالزجر عنه أوالذم عليه أواستعظامه أوالحث عليه أوالإعجاب به . والله أعلم .

فالعرب توسعوا في معانيها ، حتى أخرجوها عن حقيقتها ، وجعلوها عادة لهم . فإن قيل : استعملها النبي ﷺ أيضا مثل عادة العرب العامة ؟

فالجواب فيه : أن ذلك موافقةً لأدباء العرب ، ولا يُوَفَّقُ تلك الموافقةُ إلا ثلةٌ من الناس ، فإنه لا يعلم مثل هذه الأمثال والتعابير إلا من كان له عمق في اللغة ، ومع ذلك يرى الناظر أن أكثر ما استعملها النبي ﷺ من مثل هذه الجمل هي من صنعه وإنشائه السليم .



الفصل الثالث

أساليب البلاغة النبوية ودعائمها

وقد قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين مهمين ، يتضح بهما روعة أساليب البلاغة النبوية وبداعتها ، ويتجلى بهما جودة دعائمها ومتانتها ، وإليكم بيانهما :

المبحث الأول : الصناعة اللغوية في البلاغة النبوية

المبحث الثاني : الصناعة البيانية في البلاغة النبوية



المبحث الأول
الصناعة اللغوية في البلاغة النبوية

ويراد بالصناعة اللغوية أنها تتعلق بفصاحة ألفاظ الحديث النبوي ﷺ وقد قلنا : أن من اقتضاء البلاغة النبوية من بين غيرها أن يكون كل ألفاظه فصيحًا مع البلاغة الكاملة ، وكان قليل الكلام وجليل المعاني ، لم يطل إلا للحاجة ، وكأن ذخائر الأدب اجتمعت في كلامه ، واستكملت بحديثه وأنتجت ذروة الجبل بكلماته ! ولم نستطع أن نقيد حرصَنا من أن نقدم في هذا ما قاله الرافعي وإن طال ، فإنه من أجمل وأروع ما قيل فيه :

ومن كمال تلك النفس العظيمة وغلبة فكره ﷺ على لسانه قلَّ كلامه، وخرج قصدًا في ألفاظه، محيطا بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها، فلا ترى من الكلام ألفاظا ؛ ولكن حركات نفسية في ألفاظ ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب ، وكثرت جوامع كلمه ، وخلص أسلوبه ، فلم يقصر ولم يبالغ في شيء ، واتسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه .

من أجل هذا المعنى وتمكنه فيه ﷺ كان يكره الإطاله في الكلام بما يجاوز مقدار القصد به ، وقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له النبي ﷺ : «كم دون لسانك من حجاب» ؟ فقال : شفتاي وأسناني ، فقال له ﷺ : «إن

الله يكره الانبعاق [١] في الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته».

هذا إلى أن اجتماع الكلام وقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف مع إبانة المعنى واستغراق أجزائه وأن يكون ذلك عادة وخلقا ، يجري عليه الكلام في معنى معنى وفي بابٍ بابٍ شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ ، لأنه في ظاهر العادات يستهلك الكلام ويستولي عليه بالكلف ، ولا يكون أكثر ما يكون إلا باستكراه وتعمل ، كما يشهد به العيان والأثر ، فكان تيسير ذلك للنبي ﷺ واستجابته على ما يريد وعلى النحو الذي خرج به نوعا من الخصائص التي انفرد بها دون الفصحاء والبلغاء ، وذهب بمحاسنها في العرب جميعا ، وهذا هو الذي كان يعجب له أصحابه ، ويَرَوْنَه طبقة في هذا اللسان وطرازا لا يحسنه إنسان ، حتى إن أبا بكر رضي الله عنه قال له ﷺ مرة : لقد طفت في العرب وسمعت فصحائهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك أي علَّمك؟ قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي . [٢]

وهذا خبر متظاهر ، وهيهات أن يكون في العرب فصيح تُعَرِّفُه فصاحتُه ولا يكون قد سمعه أبو بكر ؛ متكلما أوخطيبا أوفي سوق موسم أوحفل ، فإنه رضي الله عنه في علم العرب وأنسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها الغاية التي

---

(١) والانبعاق : الاندفاع في الكلام ، وهو مظنة الخطأ ، وقلما سلم صاحبه من زلل ، لأنه أبدا إلى الزيادة عن معانيه وعن حاجته .

(٢) أخرجه حمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان صـ: ١٨٧ ، جامع الأحاديث ٢/ ٨٩ .

ينتهي إليها ويوقف عندها ، حتى لا يعدل به عدل ، وحسبك أن أنسب العرب في صدر الاسلام وهو جبير بن مطعم إنما عنه أخذ ومنه تعلم ، وإذا قالوا فيه مبالغة : أنسب من أبي بكر ؛ فقد قالوا فيه : أنسب الناس ، و هو تلميذه ! فكيف في أبي بكر ؟

فهذا أبلغ ما ندلي به من حجة وما ندل به من خير في هذا الباب ، لأنه خبر من أنسب العرب عن معرفةٍ ومعرفةٌ عن عيان وعيانٌ بعد استقصاء واستقصاءٌ عن رغبة في هذا العلم وتحصيله ، والمعرفة به مع قوة الفطرة وسلامتها ليس وراء ذلك في صحة الدليل مذهب من مذاهب التاريخ . [١]

---

(١) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ:٣٠٠-٣٠٢ .



المبحث الثاني

الصناعة البيانية في كلام الرسول ﷺ

ويراد بها بيان أسلوبه في كلامه وجمله ، وهي الإعجاز الأدبي الفني الأصلي ، وعليها مدار أدبه الفائق ، وقد تفرعت منها علوم الأدب من علم المعاني والبيان والنحو والصرف وغيرها ، وما من أديب إلا وله أسلوب خاص ، ولكن أسلوب النبي ﷺ هو أقوى وأفصح وأبلغ من بين سائر الأساليب ، لكونه موحىً من خالق القلم ، وقبل الغوص فيه نذكر الفرق بين الإعجاز البياني للنبوي وغيره من الأدباء .

الفرق بين الإعجاز البياني للنبوي وغيره من الأدباء المتجددين

الفرق الأول : نفع بيانه لعامة الإنسانية ؛ كان النبي ﷺ سيد الأنبياء والرسل وأفضل الخلائق من خلق الله في العالمين ، وقد قال عليه السلام : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » [(١)] .

وأشار إليه القرآن أيضًا لتفضيل بعض النبي ﷺ على بعض : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [سورة الإسراء ٥٥] .

وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء والرسل بعد ذلك

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٧٨ ، وأبو داود ٤٦٧٣ ، والترمذي ٣٦١٥ ، وقال : هذا حديث حسن .

متفاضلون فيما بينهم ، وعلى أن محمدا ﷺ هو أفضلهم ، قال تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... الآية﴾ [سورة البقرة ٢٥٣] .

فأكرمهم عند الله مرتبة أولو العزم من الرسل ، وأكرم أولي العزم هو نبينا محمد ﷺ بالاتفاق ، ووفقا أن يكون أفضل الناس من خلق الله ؛ قد تكلم في كل لحظاته للإنسانية ، فلا عبث ولا سوء في كلامه ، فلم يجد أحد قولاً مًّا في كلامه وتعابيره والعياذ بالله ! ما يكون مُضِرًّا للمجتمع والحضارة والثقافة ، نقول كما قال الرافعي : بأن النبي ﷺ كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح فهو أعظم أديب ؛ لأن فنه الأدبي أعظم فن يحقق للإنسانية حياة أخلاقها وأخلاق حياتها ، فهو بكل ذلك أعظم إنسان وأديب .[١]

وأما غيره من الأدباء فلا يخلو أدبهم من العيوب ، ولم يستطع أحد على ظاهر الأرض أن يدعي الخلو منها ، بيد أن الله ﷻ أعلن عن نبيه ﷺ وما ينطق عن الهوى !

ولذلك نرى أدب بعض المستشرقين والمتجددين من الأدباء والفضلاء يملئون صفحاتهم بتعابير وكلمات وقصص غير ذوات الخُلُق الإنساني ، التي يفسد بها المجتمع ويزول من الصفات الإلهية ، ويسمونها حرية وحقيقية ، ولا تكون فيها إلا الشهوات النفسانية والتلذذ بما لا يُحِلُّه الله ، وضيعة الوقت

---

(١) وحي القلم ١٦/٣ .

بما لا طائل فيه ؛ حتى تفوت بها من الناس قيمة الزمن والأوقات ، ولا يبالون فيها محارم الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة ٧٤] .

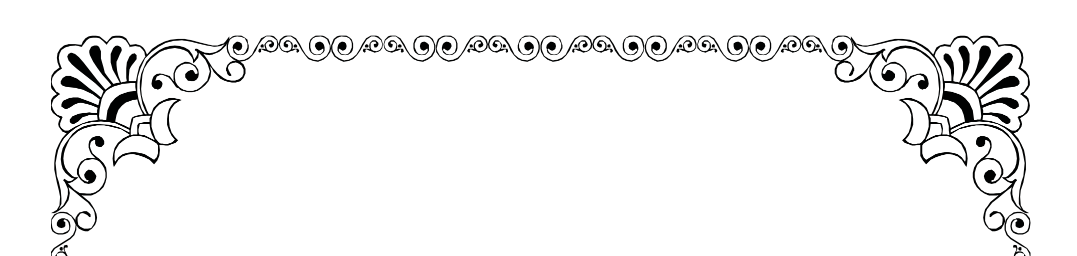
الفرق الثاني : عصرية أسلوبه لكافة الأجيال والأزمان ؛ يقول الشيخ نور الدين عتر حفظه الله : كم من الأدباء الكبار من احتل في عصر القمة ، وصارت إليه عمادة الأدب والقدوة ، لكنه عفي على أدبه الزمن لتغير الذوق أوالاعتبارات أوغير ذلك من عوامل ، لكن بلاغة الرسول المبلغ مدى الزمن والعصور ، قد تجاوزت حدود الزمان والعصر ، لأنه جاء بهداية عامة لكل الناس في كل زمان ومكان .[(١)]

وفي هذا يقول الرافعي : ولذا ترى كلامه ﷺ يخرج من حدود الزمان ، فكل عصرٍ يجد فيه ما يقال له، وهو بذلك نبوة لا تنقضي، وهو حي بالحياه ذاتها، وكأنما هو لون على وجه منها ، كما ترى البياض مثلا هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري .[(٢)]

❖❖❖❖

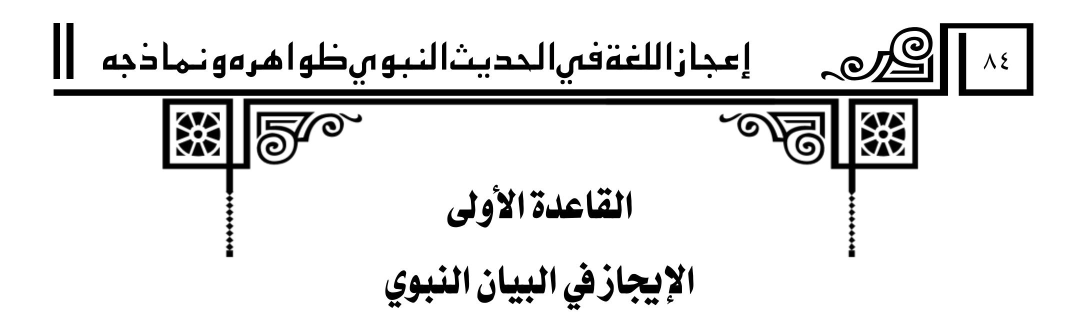
(١) أهم الملامح الفنية صـ: ٩٣ .

(٢) وحي القلم ٣/ ١٧ .



ففي السطور التالية نحن نبين هذه الصناعة البيانية في اثنتي عشرة قاعدة بلاغية ودعامة أسلوبية ، وفي التالي بيان تلك القواعد مختصرة :

القاعدة الأول	:	الإيجاز في البيان النبوي
القاعدة الثانية	:	اختلاف ألفاظ الكلام النبوي في تعدد الروايات
القاعدة الثالثة	:	تكرار الاسم في الحديث الواحد مرتين
القاعدة الرابعة	:	التقديم والتأخير
القاعدة الخامسة	:	الابتداء بالذكر لتقرير المعنى بالتعريف باللام
القاعدة السادسة	:	ترتيب الكلام في البيان وتنسيقه
القاعدة السابعة	:	بدأ الكلام بالقسم
القاعدة الثامنة	:	إنباء الأخبار المستقبلة ونماذجه
القاعدة التاسعة	:	إبداع الكلام في الأحكام الشرعية
القاعدة العاشرة	:	مخاطبة الخاص ويراد بها العام
القاعدة الحادية عشر	:	كمال العناية في التمييز بالإشارة
القاعدة الثانية عشر	:	إحكام منطقه وأثر خلقته وصفته في الأدب



القاعدة الأولى

الإيجاز في البيان النبوي

معنى الإيجاز لغة : أوجز أي : اختصر ، أوجز الكلام : قَلَّ وكان بليغًا ، واصطلاحًا في علم المعاني : هو أن يكون اللفظ الذي يعبر به عن المعنى المراد قليلاً عن معناه الأصلي ووافيًا به كل الوفاء ، فكان كلامه ﷺ موجزًا عسلاً ، ليس بالطويل الممل وبالقصير الناقص ، ومن يتفكر في كلامه وألفاظه يجده كنزًا مخفيًا في بطن صندوق وجبلاً غير مرئي في ثقب الإبرة ! ولا يؤتى الإيجاز إلا من رزق حدة في الذهن ، وإرهافًا في الإحساس البياني ، ومعرفة تامة بدلالة المفردات ، وإدراكا وافيًا لأحوال المخاطبين ، وقد اجتمع ذلك كله في الرسول ﷺ على أكمل وجه .[1]

وكم نمثل له ! فكل أحاديثه وافر بذلك الإعجاز البياني ، وانظر في ما قاله ﷺ : «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب».[2]

فهذا من أقوى التمثيل في بيان شغل الناس بأمتعة الدنيا ، فلم يقل : الناس بدل إبن آدم ، فالتعبير بـ«إبن» يستعمله العرب للتوبيخ أوالزجر أولتوجيه النظر إلى النصيحة أولبيان الأمر الهام ، فكذا هٰهنا .

---

(١) بلاغة التراكيب في كتاب الإيمان من صحيح مسلم صـ: ١٠٣ ، نقلا من الحديث النبوي ؛ مصطلحه وبلاغته وكتبه صـ: ٩١ .

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٣٦، ومسلم ١٠٤٩ .

ثم لم يقل : إلا القبر ، أوغيره من الكلمات ، إشارة إلى أن خلقهم كان من التراب ، ولا يَمْلأ بطنَهم إلا ما خُلِقوا منه ، وإليه يرجعون ، وبه يختلطون ، فسيصبحوا كـ« لا شيء » !

ومنه قوله ﷺ : الدين النصيحة .[١]

ففي هذا الحديث بيان عِظَم شأن النصيحة بين المسلمين ؛ حيث جعل النبي ﷺ الدين هو النصيحة ، وقصَر الدين على النصيحة ، وهذا من المبالغة لبيان أهمية النصيحة في الدين ، والمراد أن عمود الدين وقوامه النصيحة .

قال الإمام النووي : هذا حديث عظيم الشأن ، وعليه مدار الإسلام ، وأما ما قاله جماعات من العلماء : إنه أحد أرباع الإسلام -أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع الإسلام- فليس كما قالوه ، بل المدار على هذا وحده .[٢]

وبه تثبت أيضا أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لقصد الدين والمشورة الحسنة لغرض صحيح ، وقد نرى أنه قد تبدلت حياة أحد بقولٍ واحدٍ من أحدِ كبارِه أوأصحابِه !

وكذا قوله ﷺ في الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .[٣]

وهو قول مُوجَز ؛ لكنه جامع المعاني الكثيرة ، فقد بين به النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم : ٥٥، وأبو داود ٤٩٤٤ ، والترمذي ١٩٢٦، وقال : هذا حديث حسن .

(٢) شرح النووي للإمام مسلم : الإيمان / بيان أن الدين النصحة رقم الحديث : ٥٥ .

(٣) أخرجه البخاري ٤٧٧٧ ، ومسلم ٩.

طريقتي الإحسان وشِكْلَيْه ، كأن العبد إذا يعبد ربه يجده أمامه واضعًا قدمه المبارك عليه ! فإذا سجد كأنه يسجد بين قدمي المسجود له تعالى ، فلا يتصور في صلاته وعبادته خيالات باطلة ، ولا يسجد إلا له ، لا لرؤية الناس ولا لِظنِّهم به الحسن !

قال الشيخ نوير عيد مرزوق : فبذلك التعريف الموجز للإحسان الذي قاله النبي ﷺ شمل عدة معان ؛ مراقبة الله في السر والعلن ، والإخلاص في العبادة لله تعالى ، والبعد عن الرياء ، يستشعر بمراقبة الله له ؛ وأنه تعالى يرقبه في سكناته وحركاته .[1]

قال ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ) : «تعبد الله كأنك تراه» من جوامع الكلم ؛ لأنه ينوب مناب كلام كثير ، كأنه قال : تعبد الله مخلصا في نيتك ، واقفًا عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع ؛ آخذًا أهبة الحذر ، وأشباه ذلك ؛ لأن العبد إذا خدم مولاه ناظرًا إليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل وما ينتهي إليه الطوق .[2]

ومنه قوله ﷺ : «الصبر نصف الإيمان» .[3]

---

(١) بلاغة التراكيب في كتاب الإيمان من صحيح مسلم صـ: ١٠٥ .

(٢) المثل السائر ٢/ ١١٠ .

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/٤٤٦ ، رقم٣٦٨٧ ، والطبراني في «الكبير» ٩/١٠٤ ، رقم ٨٥٤٤ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح .

قال مجد الدين بن الأثير (٦٠٦هـ) : أراد بالصبر الورع ، لأن العبادة قسمان : نسك وورع ، فالنسك : ما أَمَرَتْ به الشريعة ، والورع ما نهت عنه ، وإنما ينتهى بالصبر ، فكان الصبر نصف الإيمان . (١)

ومنه قوله ﷺ : «مَن سلَك طريقًا يطلُبُ فيه عِلمًا سلَك اللهُ به طريقًا مِن طُرقِ الجنَّةِ ، وإن الملائكة لتضَعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلمِ ، وإنَّ العالِمَ يستغفِرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ والحِيتانُ في الماءِ ، وفَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ ، إنَّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياءِ إنَّ الأنبياءَ لَمْ يُورِّثوا دينارًا ولا دِرهمًا ، وإنما أورَثوا العِلْمَ فمَن أخَذه أخَذ بحظٍّ وافرٍ» . (٢)

وهو حديث كامل في فضائل العلم ، ولو وزنت كلمات حكماء الدنيا في حديث النبي ﷺ هذا لغلب على جميعها ! ومن نظر في كل ألفاظه ، وتدبر فيه لعلم يقينًا ، فقد أكد في دعاء الملائكة بتأكيدين «إن» و«اللام» ثم مَثَّلَ له فضيلته بالقمر ليلة البدر ، والأديب يعرف ما فيه من إعجاز أدبي وجمال فَنِّيٍّ ! والقمر إذا اكتمل وبلغ تمامه فهو البدر ، وليلة البدر : هي ليلة أربع عشرة من ليالي الشهر ، وفيها يتم القمر بتمام نوره ، وتَظْهَر أنواره المُنِيرة وصورته الكاملة من ظهر الأرض متميزًا من كل الكواكب !

---

(١) النهاية : صـ : ٩٢٠، ط: دار إبن الجوزي .

(٢) أخرجه أبو داود ٣٦٤١ ، والترمذي ٢٦٨٢ ، وابن ماجه ٢٢٣ ، وقال الترمذي : ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة ، وليس إسناده عندي بمتصل .

وكذا قوله ﷺ : «احثوا في وجوه المداحين التراب» .[(١)]

قال الشيخ طاهر الفتني (٩٨٦هـ) : أراد به الرد أوالخيبة ، أوالتراب خاصة ، وحمله المقداد على ظاهره ، حيث حثا على وجه المادح عند عثمان التراب ، والمراد به : من اتخذ مدح الناس عادة وبضاعة يستأكل به الممدوح أوليُحَصِّلَ منهم قصده ، وأما من مدح على الفعل الحسن والأمر الممدوح فليس بمداح .[(٢)]

ونقول : وكانت ثلة من العلماء تحمل معنى الحديث في مثل هذا على الظاهر ؛ ولكنْ من يفكر بنظرية الأدب يتضح أمامه أن مثل هذا ليس إلا مجازًا أسلوبيًّا وإعجازًا بيانيًّا ، الذي تدفقت عيونه من لسانه ﷺ ، ولبيان ذلك رَتَّبْنا هذه الرسالة ، ومثل هذا في أقواله كثير ؛ فإن كثرة المدح وإن كانت مذمومة بيد أنها من حيث التعذيب والتعزير لم يُعيَّنْ لها حد شرعي ؛ لا من الشارع القرآني ولا من الحديث النبوي ولم يَحْثُ النبي ﷺ حقيقةً الترابَ على وجه المنافقين والكاذبين ، ولذا أكثر العلماء على أن مثل هذا أسلوب كلامه الحسين السهل المعجز .

ثم كان أكثر كلامه هو الموجَز المعجِز ، ولم يطِل إلا ما اقتضته الحاجة ، مثل ما خطب في موسم الحج ، ومن خطبه الطوال : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه ﷺ مرة صلى بنا صلاة العصر بالنهار، ثم قام فخطبنا إلى أن غابت الشمس

---

(١) أخرجه مسلم ٣٠٠٢ ، وأبواداود ٤٨٠٤، والترمذي ٢٣٩٣، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) مجمع بحار الأنوار ١/ ٢٥٥ .

فلم يدع شيئا مما يكون إلى يوم القيامة إلا حدَّثَناه ، حفظ ذلك من حفظ ، ونسي ذلك من نسيه ، وكان مما قال : «يا أيها الناس ! الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا وإن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ينصب عند استه بحذائه ، ولا غادر أعظم لواء من أمير عامةٍ» .

ذكر أبو سعيد ﵁ حديثًا طويلاً ، ثم قال : وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي من النهار شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» . [(١)]

قال الشيخ نور الدين عتر [(٢)]: فهذه خطبة طويلة استمرت من بعد صلاة العصر إلى قبيل غروب الشمس ، لكنها ليست من باب الإطناب والتكلف ، بل نجد بالتأمل في الفقرات التي ذكروها منها أنها تسير على النفس المعهود في الإيجاز للحديث النبوي . [(٣)]

---

(١) أخرجه مسلم في الرقاق ٢٧٤٢، والترمذي في الفتن ٢١٩٢ ، وقال : هذا حديث حسن .

(٢) هو الإمام العلامة المفسر ، المحدث الحافظ الفقيه ، الأستاذ الدكتور نور الدين عتر الحسني نسبة ، الحنفي مذهبًا ، الحلبي مولدًا ، نزيل دمشق ، حاز ذروة السبق في علوم الحديث النبوي الشريف روايةً ودرايةً في مجالات التدريس والتحقيق والتأليف ، سليل أسرة علمية عريقة في التقى والصلاح ، راسخة في علوم الشريعة والحقيقة ، ويُعَدُّ من كبار علماء الحديث في العصر الراهن . وقد ولد في حلب الشهباء عام ١٣٥٦هـ الموافق ١٩٣٧.

(٣) أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي صـ: ٨٨ .

القاعدة الثانية

اختلاف ألفاظ الكلام النبوي في تعدد الروايات

وقد تقدم الكلام فيه مفصلا ، وههنا نذكر الإعجاز البياني فيه، وتتنوع أساليب البيان مع تعدد الروايات ، وقد يتحد معناه ، وقد يختلف ويأثر ذلك في المعنى ، ويظهر أثره في الفقه الإسلامي ، ولكنَّ مَا يتغير به معنى رواية عن أخرى قليل جدًّا في ذخيرة الأحاديث ، بل الأكثر والغالب أن هذه الأساليب ليست إلا تنوعها وتلونها بمختلف الألوان ومحتمل المنافع .

ثم هو لا يأثر ذلك في البيان ، بل هو يعلن للأديب الإنشاء والتعبير بمتنوع الطرق ، مع ما فيه من فوائد بلاغية أخرى ، كما ذكرنا أسبابه ومثاله من قبل ، ونذكر الآن فوائده .

وقد ذكر الشيخ الدكتور يوسف بن عبد الله العليوي أربعة ، ونختار منها إثنتين :

١- تعدد الروايات له أثر إيجابي في البلاغة النبوية ، ويَعْني هذا التعددُ الدرسَ البلاغي ، ويمده بشواهد على أساليب بلاغية ، من الطباع العالية من الكلام البليغ ، سواء كانت الرواية من تعبير النبي ﷺ ، أومن تعبير الرواة ، وهذا أثر مفيد ووجه حسن لاختلاف الروايات .

٢- تعدد الروايات له أثر في بيان بعضها لدلالة بعض ، فقد تأتي رواية على أسلوب ، ويتبين المعنى البلاغي لهذا الأسلوب من رواية أخرى .

ومن أمثلة ذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه : ففي رواية جاء الكلام بأسلوب الخبر «أبايعكم على ألا تشركوا بالله شيئا» .

وفي روايةٍ ثانيةٍ جاء بأسلوب الأمر«بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا». وفي روايةٍ ثالثةٍ جاء بأسلوب الاستفهام «أتبايعوني أن لا تشركوا بالله شيئا» [١]، وتدل رواية الأمر على أن الخبر في الرواية الأولى والاستفهام في الرواية الثالثة يراد بها الطلب . [٢]

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٨ بلفظ الأمر ، ورقم ٤٨٩٤ بلفظ الاستفهام «أتبايعوني» ، ورقم ٦٨٧٣ بلفظ الماضي «بايعناه»ورقم ٧٢١٣ بلفظ المضارع «تبايعوني» ، ومسلم رقم ١٧٠٩، وابن الجارود في «المنتقى» رقم ٨٦٧ ، وابن حبان في «صحيحه» ٢٥٣/١٠ رقم ٤٤٠٥ ، والترمذي رقم ١٤٣٩ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) البلاغة النبوية في تعدد الروايات صـ: ١٢٠ .

القاعدة الثالثة

تكرار الإسم في الحديث الواحد مرتين

وقد يتكرر الإسم الواحد المنَكَّر في الحديث مرتين أوأكثر، فيراد بالثاني غير الأول ، فإن تكرار النكرة يدل على تعددها .[١]

وهذا من أساليب كلام النبي ﷺ ، ومن أمثلته : قوله ﵇ : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالنهار وملائكة بالليل » .[٢]

وكذا قوله عليه السلام : « لن يغلب عسر يسرين » .[٣]

وكذا قال ﷺ : « إن لعينك عليك حقا وإن لجسدك عليك حقا » .[٤]

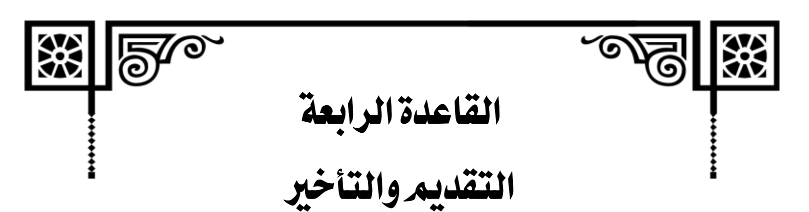
---

(١) أسرار التعريف والتنكير صـ:١٩٠ .

(٢) أخرجه البخاري : مواقيت الصلاة ٧٤٨٦ ، ومسلم ٦٣٢ .

(٣) أخرجه الحاكم ٥٢٨/٢ ، وابن جرير في تفسيره ٣٠/ ١٥١، ومالك في الموطأ ١٢٨٨ ، وقال الزرقاني في شرحه على الموطأ ٣/ ١٤ : إسناده صحيح مرسلا .

(٤) أخرجه البخاري ١١٣١ وفي مواضع كثيرة ، ومسلم ١١٥٩ وفي مواضع كثيرة .



القاعدة الرابعة
التقديم والتأخير

قال الشيخ نوير عيد مرزوق : التقدم هو تبادل في المواقع حيث تَتْرُكُ الكلمةُ مكانَها في المقدمة لِتَحُل محلَّها كلمة أخرى ، لتؤدي غرضًا بلاغيًّا ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به القاعدة النحوية .

والتقديم يستلزم تأخيرًا، فالمبتدأ الذي يَتْرُك مكانَه للخبر يحدث بينهما التقديم والتاخير بالضرورة ، وهذا التغيير في المواقع يصحبه تغير في الأثر النفسي وفي الدلالة، ويقول عنه الجرجاني : ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عنك أن قدم فيه شيء ، وحُوِّلَ اللفظ عن مكان إلى مكان . (١)

لأن المقدم يَحْتَلُّ مكانًا ممتازًا ، فهو أول ما تقع عليه العين ، وأول ما تتأثر به ، وأول ما تُعْجَبُ به ، وأول ما تقع النفس تحت أضوائه فتنشغل به ، لأنه يستحق هذا، ولأنه في غير مكانه الذي تعودنا أن نراه فيه ، ثم تأتي الألفاظ الأخرى ، ثم تكون الشحنة التي قد يستحوذ عليها اللفظ المقدم قد قلّت ، ولأهمية هذا الأسلوب عني البلاغيين به عناية فائقة . (٢)

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٦ .

(٢) بلاغة التراكيب صـ: ٧١ .

أسباب التقديم

التقديم من أهم الأصول البلاغية ، وله أسباب كثيرة ، وذكر الجرجاني أن الغرض الأساسي فيه هو الاهتمام بالمقدم ، لأن التقديم يلعب دورا مهما في تحديد المعنى المراد من العبارة ، ثم نص على أن صاحب الكتاب سيبويه بين في باب الفاعل والمفعول أن العلماء يقدمون ما هو أهم بالنسبة لهم ، وإن كان كلاهما مهما ، ثم بين أن النحويين يؤكدون ذلك لأنهم يقدمون ما هو مهم بالنسبة للناس ، ومثل على ذلك في مثال حال الخارجي أي الخارج عن القانون حيث ؛ يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى ، إنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القاتل ، ولا يعنيهم منه شيء ، قُتِل وأراد مريد الإخبار بذلك ، فإنه يقدم ذاك الخارجي فيقول : قَتَلَ الخارجيَّ زيد ولا يقول : قتَل زيدٌ الخارجيَّ ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل زيد جدوى وفائدة ، فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن الذين هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد ، وأنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه .[1]

وقد ذكر الشيخ نوير عيد مرزوق فيه أسبابًا كثيرةً ، وأورد كثيرًا من أمثلتها ، ونورد منها بعضها : فقال : والحديث النبوي في بنية تراكيبه اللغوية أكثر من التقديم والتأخير ، وكان لأغراض ومرام تنشر الدلالة المطروحة من وراء الحديث النبوي ، ومن هذه الأغراض التي تمخضت عنها ظاهرة التقديم

---

(١) بلاغة التراكيب في كتاب الإيمان من صحيح مسلم ٧١ .

والاختصاص والترتيب والتشويق إلى ذكر المؤخر وتعجيل المسرة والتحقير والفخر والتعظيم والتاكيد وتقوية الحكم ودفع توهم الخطأ ومراعاة الفواصل ومراعاة النسق الصوتي والحصر وتقديم السبب على المسبب ، إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية .

١- التقديم للاختصاص مثاله ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا» .[(١)]

وكذا قوله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده»[(٢)] .

٢- التقديم للتشويق ، مثاله ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «من الكبائر شتم الرجل والديه» ، قالوا : يا رسول الله ! وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : «نعم يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه» .[(٣)]

في هذا الحديث يخبرنا رسول الله ﷺ عن خطر السب بين أفراد المجتمع المسلم ، ولا سيما إذا كانت السباب موجهة إلى الأبوين ، فهي كبيرة من الكبائر وجرم خطير ، فابتدأ الخبر بقوله : من الكبائر ، وقدم هذا اللفظ ؛ زيادة في التشويق وجذب الانتباه ، فهي أقوى وقعا في النفس من لفظ «المحظورات» وغيره .

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٦، والدارمي ٥٢، وأحمد ١٢٤١٩، وفي اسناده المختار بن فلفل ، قال الحافظ فيه: صدوق له أوهام ، وله شواهد عديدة ، فالإسناد صحيح .

(٢) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤١، والترمذي ٢٦٢٧، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه مسلم رقم ٩٠، والترمذي رقم ١٩٠٢، وقال : هذا حديث صحيح .

وكرر الصيغة في قوله : ويسب أمه ، فيسب أمه ، مع إمكانية الإيجاز واختصار ذلك هكذا : يسب الرجل والدي الرجل فيسب والديه ، ولكن الإطناب هنا لشدة التحذير من أمر السباب وتنفيرهم منه .

نقول : ويثبت منه الحديث أنه بسباب والد الغير يرتكب كبيرتين ، الأولى : سباب والدي الناس مع كونه والدا مكرما إثم كبير ، الثانية : ثم جعل والديه مصيدَ السب برد الغير كبيرة ثانية ، فارتكب كبيرتين معا .

٣- والتقديم للترتيب ، ويكون التقديم فيه للأفضل وللأهم بالنسبة لما يخص الفرد المسلم في أمور حياته .

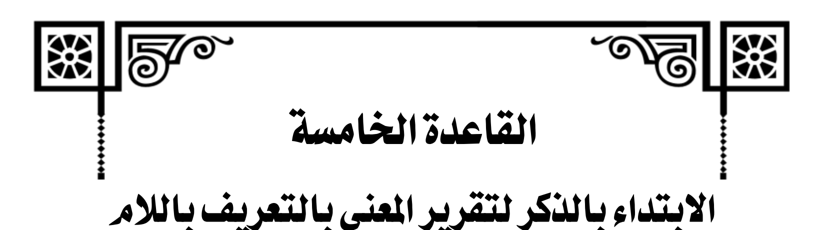
ومثاله [١] حديث جبريل عليه السلام قال : يا محمد ! أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، إن استطعت إليه سبيلا» ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . [٢]

نجد في هذه الأحاديث ذكر ترتيب العبادات الأفضل فالأفضل ، فقدم أولا في الذكر ما هو الأفضل والأعلى من غيره .

---

(١) وللتفصيل أنظر بلاغة التراكيب للشيخ نوير عيد مرزوق صـ: ٧١- ٧٩ .

(٢) أخرجه البخاري ٥٠ ، ومسلم ١٠ .



القاعدة الخامسة

الابتداء بالذكر لتقرير المعنى بالتعريف باللام

والمراد منه : أن يؤتى ببيان شيء ، فيذكر أولا ، ويؤكد بالتعريف . وهذه شاملة في الرابعة أي : التقديم والتأخير أيضا ، إلا أنَّا اعتبرناها على حدة لأهميتها وكثرتها في كلامه ﷺ . ومن يتأمل في كلامه يجدها جمة .

فمن هذه القاعدة الأسلوبية في أدبه عليه السلام قوله : «البادئ بالسلام بريء من الكبر» .[١]

فانظر حسن هذا القول وجماله ! فقد بدأ البادئ معرفا باللام وقدمه للتشويق ولأهمية فضيلته ، والإشارة إلى أن الأفضل من يبدأ بالسلام ممن لا يبدأ كبرًا أوحقدًا ، ومن بدأ به تواضع عند الله ، ومنْ لَا فتكبر متكبرًا ، وهذا من أعظم أصول المعاشرة والمجتمع .

وكذا قوله عليه السلام : الحياء شعبة من الإيمان .[٢]

❖❖❖❖

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» ١٣٤/٧ رقم ٨٠٤٧ ، والخطيب في «الجامع» ٣٩٧/١ رقم ٩٣٠، وأبو نعيم في «الحلية» ١٣٤/٧ و٢٥/٩ بلفظ «الصرم» بدل «الكبر» وقال : غريب تفرد به عن الثوري عبد الرحمن بن مهدي .

(٢) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥ ، والترمذي ٢٠٠٩ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

القاعدة السادسة

ترتيب الكلام في البيان وتنسيقه

ومن العجائب النبوية : أن كل كلامه كان على ترتيبٍ منظَّمٍ ونسقٍ أسلوبيٍّ ، كأنه يقول كالطلح المنضود ، وإذا يتكلم يخرج منه العقد المنظوم ، المصنوع من اللؤلؤ المرتب والمرجان المتسق ، وكأنه منبت الأزهار والوُرود ، ينبت من لسانه الزهراء البيضاء والورود الحمراء! فيا من تقرئون كلامه ، انظروا في أحاديثه كيف يبين الأحكام الشرعية ! كيف يشرح الحياة الإنسانية في كلام موجز معجز متسق !

فهذا مثاله : «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ ، وإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، والحَجِّ ، وصَوْمِ رَمَضَانَ» .[1]

شبَّه النَّبيُّ ﷺ الإسلامَ ببناءٍ محكَمٍ ، وشبَّه أركانَه الخَمْسَةَ بقواعدَ ثابتةٍ محكَمةٍ حاملةٍ لذلك البُنيانِ ، فلا يثبُتُ البنيانُ بدونها ، وبقيَّةُ خِصالِ الإسلامِ كتتمَّةِ البنيانِ ، وأوَّلُ هذه الأركانِ : الشَّهادتانِ ، وهُما ركنٌ واحد ؛ لكونِهما متلازمتَينِ لا تنفَكُّ إحداهما عن الأخرى ، ثم الصَّلاة ، ثم الزَّكوة ، ثم الحجُّ .

وكذا يوجد في كلامه كثيرًا من التشبيه البليغ ، وهو التشبيه رأس الأدب ، ونقيم له قسمًا وبابًا على حدة إن شاءالله .

---

(١) أخرجه البخاري ٨ ، ومسلم ١٨ ، والترمذي ٢٦٠٩، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث خمسة أمور عمادية في الإسلام ، فذكر العدد أولا للتشويق وإحضار أسماع السامعين إليه ، ثم بينها مفصلا ، فهذا إيضاح بعد الإبهام ، وتفصيل بعد الإشارة .

وكذا قوله ﷺ : اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قالوا : يا رَسولَ اللَّهِ! وما هُنَّ ؟ قالَ : الشِّرْكُ باللَّهِ ، والسِّحْرُ ، وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بالحَقِّ ، وأَكْلُ الرِّبا وأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ ، والتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ الغافِلاتِ . (١)

ثم في هذا الحديث بدأ الرسول ﷺ بالأمر المباشر في قوله : «اجتنبوا السبع الموبقات»، بمعنى النهي عن هذه الأمور والتحذير من التردي فيها ، يقول الطيبي : اجتنبوا : ابتعدوا ، افتعال من الجنب ، وهو أبلغ من لا تشركوا ، نحو قوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ [سورة الإسراء ٣٢] ، ﴿ولا تقربوا هذه الشجرة﴾ [سورة البقرة ٣٥] ، لأن نهي القربان أبلغ من المباشرة . (٢)

وتعبير الرسول ﷺ بالاجتناب يفيد البعد ، والمبالغة في الحذر عن هذه الكبائر ، وهو يوحي بأن هذه الكبائر جنس من الأعمال التي لا تدخل في عمل المؤمن . (٣)

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩ .

(٢) شرح الطيبي ١/ ١٨٧ .

(٣) بلاغة التراكيب في كتاب الإيمان من صحيح مسلم صـ: ٣٢، نقلا عن بلاغة الرسول ﷺ صـ: ٢٤٦ .

ومنه قوله ﷺ : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان .[١]

شرح الحديث مختصرا: وهذه الأشياء المذكورة ترجع إلى أصلٍ واحدٍ ، وهو النفاق الذي يُباينُه الصدق ، ويُزايِلُه الوفاءُ ، وتُنافِيه الأمانةُ .

والمقصود من الحديث : أن هذه الخصال خصال نفاق ، وصاحبها شبيهٌ بالمنافقين في هذه الخصال ، ومُتخلِّقٌ بأخلاقهم ، لا أنه منافقٌ يُظهِرُ الإسلام وهو يُبطِنُ الكفر ، ولم يُرِدِ النبيُّ ﷺ بهذا أنه منافقٌ نفاق الكُفار المُخلَّدين في الدَّرك الأسفل من النار ؛ فالنفاق نوعان : نفاق اعتقادي يُخرِجُ صاحبَه عن الإيمان ، وهو إظهار الإسلام وإخفاء الكفر ، ونفاق عملي ، وهو التشبه بالمنافقين في أخلاقِهم ، وهذا لا يُخرِجُ صاحبَه عن الإيمان ، إلَّا أنه كبيرةٌ من الكبائر ،كذا في الدرر .

وقال الحافظ ابن حجر : « قال النووي : هذا الحديث عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث إن هذه الخصال قد توجد في المسلم المجمع على عدم الحكم بكفره . قال : وليس فيه إشكال ، بل معناه صحيح ، والذي قاله المحققون إن معناه : أنَّ هذه خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم .

قلت (القائل هو الحافظ ابن حجر) : ومحصل هذا الجواب الحمل في

(١) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩، والترمذي ٢٦٣١ ، وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث العلاء .

التسمية على المجاز ، أي : صاحب هذه الخصال كالمنافق ، وهو بناء على أن المراد بالنفاق نفاق الكفر .

وقد قيل في الجواب عنه : إن المراد بالنفاق نفاق العمل كما قدمناه . وهذا ارتضاه القرطبي واستدل له بقول عمر ﷺ لحذيفة : هل تعلم فيَّ شيئا من النفاق ؟ فإنه لم يرد بذلك نفاق الكفر ، وإنما أراد نفاق العمل .

ويؤيده وصفه ﷺ بالخالص في الحديث الثاني بقوله: كان منافقا خالصا، وقيل : المراد بإطلاق النفاق الإنذار والتحذير عن ارتكاب هذه الخصال ، وإن الظاهر غير مراد ، وهذا ارتضاه الخطابي .

وذكر النووي أيضًا أنه يحتمل أن المتصف بذلك هو من اعتاد ذلك وصار له دينا . قال : ويدل عليه التعبير بإذا ، فإنها تدل على تكرر الفعل .

والأولى ما قال الكرماني : إن حذف المفعول من «حدث» يدل على العموم ، أي : إذا حدث في كل شيء كذب فيه ، أو يصير قاصرا ، أي إذا وجد ماهية التحديث كذب .

وقيل : هو محمول على من غلبت عليه هذه الخصال ، وتهاون بها ، واستخف بأمرها ، فإن من كان كذلك كان فاسد الاعتقاد غالبًا ، ورد هذه الأجوبة كلها مبنية على أن اللام في المنافق للجنس .

ومنهم من ادعى أنها للعهد ، فقال : إنه ورد في حق شخص معين ، أوفي حق المنافقين في عهد النبي ﷺ ، وتمسك هؤلاء بأحاديث ضعيفة جاءت في

ذلك لو ثبت شيء منها لتعين المصير إليه وأحسن الأجوبة ما ارتضاه القرطبي، والله أعلم» .[١]

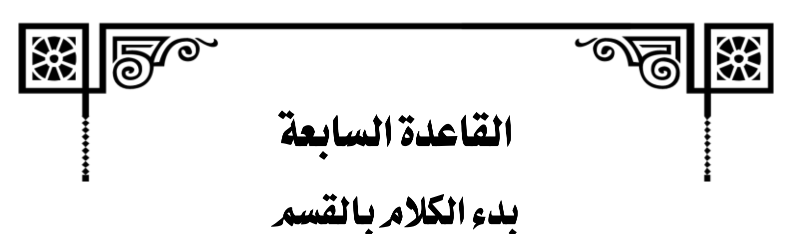
ومنه قوله ﷺ : ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ : أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مِمَّا سِواهُما ، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلَّا للهِ ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقى في النارِ .[٢]

نقول : هذا الأسلوب يُرَتِّبُ الكلامَ وينقشه في ذهن السامع كالحجر ، حتى يحفظه سريعا ، ويقر في عقله طوالا ، ولذلك نجد في كلام الكُتَّاب والمؤلفين والبلغاء والصوفيين مثل هذا الترتيب كثيرًا جدًّا ، والنبي ﷺ هو أول من دَوَّن ترتيبه هذا تحت التدوين المكمل ، فلا شك تأثيره العام في أدب اللغات اليوم كلها .

---

(١) فتح الباري ١/٩٠-٩١، وجامع العلوم والحكم ١/ ٤٢٩-٤٣٢ .

(٢) أخرجه البخاري١٦، ومسلم ٤٣، والترمذي ٢٦٢٤، والنسائي٤٩٨٧، وابن ماجه٤٠٣٣، وأحمد ١٢٠٢١، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .



القاعدة السابعة

بدء الكلام بالقسم

ومن أسلوب كلامه ﷺ أنه قد يبدأ كلامه بالقسم بالله ، إما عادة كأهل العرب أوللتاكيد في الموضوع .

ومنه قول النبي ﷺ : «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي في أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار» . [(١)]

أي : دماء الكفار وأموالهم ليست معصومة ، إلا أن يكونوا معاهدين أوليسوا من أهل القتال ، أوكانت لهم ذمة ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك ، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى . [(٢)]

ومن ألفاظه في القسم

والله ، وأيم الله ، والذي نفسي بيده ، لا ومقلب القلوب، ورب الكعبة، ورب إبراهيم ، والذي لا إله غيره ، والله الذي لا إله إلا هو ، والذي نفس أبي القاسم بيده .

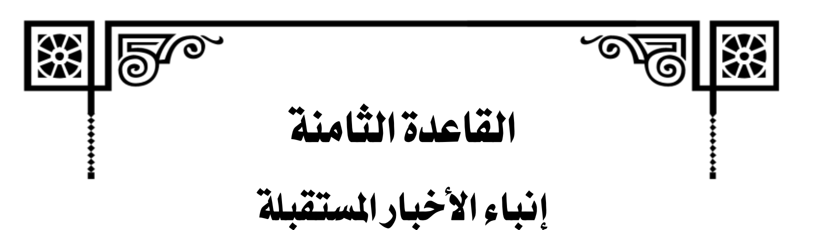
---

(١) أخرجه مسلم ١٥٣، وأحمد ٨٢٠٣، وقال الهيثمي في المجمع (٢٦٢/٨) : رجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه البخاري ٢٥، ومسلم ٢١، والترمذي ٢٦٠٦، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وكما أنها تظهر عبوديته وتواضعه أمام ربه في كل ألفاظه ، كذلك ههنا أيضا ، وبالله إن هذه الألفاظ نَتَجتْهَا روحه النبوية المطهَّرة المنوَّرة .

ثم يتضح من أحاديثه أنه قالها في كل موقع حسب المناسبة لإيراد القصة الواقعة ، وقلَّما يُوفَّق الناسُ أن يضعها في موضعها ، فهذا أيضا من إعجاز لغته ﷺ . ومن يريد التفصيل ، فاليراجع «أساليب التوكيد في الحديث النبوي» للشيخ مراد رفيق البياري ، و«بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف» للدكتوراة أميمة بدر الدين .



القاعدة الثامنة

إنباء الأخبار المستقبلة

ومن إعجازه الفني إنبائه الأخبار المستقبلة بألفاظ يوافقها الواقع كما أنبأ ؛ بغير تغير ولا تحول ولو كان مثقال ذرةٍ ، ويدخل هذا من قسم إعجازه العلمي أيضا ، وهذا الذي لا يشترك فيه غير الأنبياء ، ومن يدعيه يكن كذبا باطلا مشوبا مشوشا موسوسا كوسوسة الشياطين .

ومن هذا الباب الأحاديث التي رويت في كتاب الفتن ، ومن يُرِد التعمق فيه فاليراجع كتاب الفتن من كتب الحديث الصحيحة . وهنا نتكلم عنها ببعض الكلمات المختصرة .

وما يراد بأحاديث الفتن ؟

والمقصود من أحاديث الفتن هو الأحاديث التي تبين أنواع الفتن والمحن التي يبتلي الله بها عباده بعد النبي ﷺ ، وفي آخر الزمن ، مثل حدوث الحروب وخروج الدجال والنار، وعبادة الأوثان، وتقارب الزمن ، وكثرة المعصية وغيرها ، وقد وقع رويدا رويدا ما قاله النبي ﷺ ، وسيقع ما لم يقع حتى الآن ، وهذا من دلالة النبوة العظيمة التي ينعم بها الله على من يشاء .

موضوعات الفتن

وموضوعاته التي تُبَيِّن الأحاديثُ فيها كثيرة ، مثل : فتنة الارتداد بعد موت النبي ﷺ ، وفتنة الخروج على جماعة المسلمين ، وفتنة تغير الزمان وفساد

الأقوال ، وفتنة قتل المسلمين بعضهم بعضا ، والفتنة التي تموج كموج البحر ، وفتنة زوال الأمانة من قلوب المسلمين ، وغيرها. ومن أمثلتها :

وأحاديث هذا الباب كلها معجزة معجبة ، نذكر بعضًا منها مثالا :

١- ولقد حذَّر نبي هذه الأمة محمد ﷺ ، فقال : سَتَكُونُ فِتَنٌ ، القاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القائِمِ ، والقائِمُ فيها خَيْرٌ مِنَ الماشِي ، والماشِي فيها خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي ، ومَن يُشْرِفْ لها تَسْتَشْرِفْهُ ، ومَن وجَدَ مَلْجَأً أوْمَعاذًا فَلْيَعُذْ بهِ .[(١)]

فالواجب على المسلم أن يجتنبَ مواضعَ الفتن ؛ لأنه لا أحدَ يأمنُ على نفسه منها ، والمعصوم من عَصمَه الله تعالى ، وقد أرْشدَ النبيُّ ﷺ أمتَه إلى ما يجب فعله في وقت الفتن ، وحذَّرها من سوء عاقبة الانخراط فيها .

وفي هذا الحديث يُخبِرُ النبيُّ ﷺ بأنها ستكون ، أي : ستأتي فتن على هذه الأمة ، والمراد بهذه الفتن التي يختلط فيها الحقُّ بالباطل ؛ فلا يُعْلَم المُحِقُّ فيها من المُبطِل ، ويُقاتَل فيها على الدنيا ، يكون القاعد فيها خيرا من القائم . والقائم خيرا من الماشي ، والماشي خيرا من الساعي .

وهذا تشبيه بليغ لبيان عظم خطرها ، والحث على تجنُّبِها ، والهرَبِ منها، وعدَمِ التَّسبُّبِ في شيء منها ؛ لأن سَببَها وشرَّها وفتنتَها تكون على حسَب القائم بها ، فالقاعد يكون أقلَّ من الماشي، والماشي أقلَّ من الساعي وهكذا .

ولا يوجد أبلغ منه لبيان عظمة الفتن في هذا الحديث ، فمهما تسعى أن تُعَبِّرَ عنها بألفاظ أخرى ؛ لا تؤدي حقها مثل ما أداها تشبيه النبي ﷺ ، ولا

(١) أخرجه البخاري ٣٦٠١، ومسلم ٢٨٨٦ .

يعلم ذلك إلا من كان له ذوق سليم وبصر نافذ وفكر ثاقب وإدراك قوي بالأدب العربي كالصيرفي الذي ينقد النقود والذهوب بتجاربه الطويلة !

وقوله : ومَن يُشرِفْ لها تَسْتشْرِفْه ، أي : مَن يَتطلَّعْ إليها ويتعرَّضْ لها تَغلبْه وتُهلِكْه ، ومَن وجَدَ مَلْجأً أومَعاذًا فَلْيَعُذْ به ، أي : من وجد طريقا يَتَّقي به المشاركَةَ في هذه الفتن فليفعلْ وليَعْصِمْ دمَه ودينَه من الخوض فيها .

وقد حدث كل ذلك مما قاله النبي ﷺ بعد وفاته خلال وقعات مختلفة في أوقاتها المحددة ، والأوضاع الحالية أيضا شاهدة عليه .

ففي هذا الحديثِ : إخبار عن فتن ستقعُ بعده ، وإنباء عن الأخبار المستقبلة ، ثم حدوثها كما تلفَّظَها ، هذا لا يمكن إلا مِمَّنْ كان لا ينطق عن الهوى ، بل يصدر كل ألفاظه وحيا من الله عزوجل ، وهو علامة من علامات النبوة ، وإعجاز من إعجاز الحديث النبوي الشريف .

٢-ومن هذا القسم ما رواه أسامة بن زيد ﷺ عن الرسول ﷺ : أنه أشرف على أطم من آطام المدينة ، فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا : لا ، قال : فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر . (١)

قوله : «الأُطُم» بضم الهمزة والطاء بناء مرتفع ، جمعه : آطام ، وهو الحصن الذي يبنى بالحجارة ، وقيل : هو كل بيت مربع مسطح . (٢)

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٦٠، ومسلم ٢٨٨٤ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٦٦/١ .

وقوله : «الخلال» جمع الخلل ، وهي الفرجة بين الشيئين ، أي المنفرج بينهما .[1]

وقوله : «القطر» المطر والماء . «المواقع» جمع موقع : مكان الوقوع . مواقع القطر أي : المواقع التي ينزل المطر منها .

قال الإمام النووي : والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم ، أي : أنها كثيرة ، وتعُمُّ الناس ، لا تختص بها طائفة ، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم ، كوقعة الجمل وصِفِّين والحرة ، ومقتلِ عثمان ، ومقتلِ الحسين ﷺ وغير ذلك ، وفيه معجزة ظاهرة له ﷺ .[2]

٣- ومنه قوله ﷺ : تقع الفتن كأنها الظِّلَل .[3]

أي كما أن ظلة الشيء تدوم معه ، كذلك الفتن تدوم وتقع وتشتد ، وهذا تشبيه حسن لاشتداد الفتن .

٤- ومنه قوله ﷺ : أن عمار بن ياسر حينما رآه النبي ﷺ عند بناء مسجده ﷺ يحمل لَبِنَتين لبنتين ، فيما كان الصحابة يحملون لبِنة لبنة ، فجعل ﷺ ينفض التراب عنه ، ويقول : ويح عمار ، تقتلُه الفئة الباغية ، يدعوهم إلى

---

(١) شرح الكرماني ٨/ ٦٨ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/٧ .

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» ٢٨٧/١٣، رقم ٥٩٥٦، والحاكم في «مستدركه» ٣٤/١، رقم٩٧ ، وأحمد في «مسنده»رقم ١٦١٦٢، وابن أبي شيبة في «مصنفه» ٢١/ ٣٥ ، رقم ٣٨٢٨١، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح وليس له علة ولم يخرجاه لتفرد عروة بالرواية عن كرز بن علقمة وكرز بن علقمة صحابي مخرج حديثه في مسانيد الأئمة .

الجنة ، ويدعونه إلى النار ، قال أبو سعيد : يقول عمار رضي الله عنه : أعوذ بالله من الفتن .[١]

قال الإمام النووي في شرحه للحديث : وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه : منها أن عمارًا رضي الله عنه يموت قتيلاً ، وأنه يقتله المسلمون ظاهرا ، وأنهم بُغاةٌ ، وأن الصحابة رضي الله عنهم يقاتِلون ، وأنهم يكونون فِرقتين : باغية وغيرها ، وكل هذا قد وقع مثل فلق الصبح فصلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلاَّ وحي يوحى .[٢]

ثم إنه لم يكن قاتلوه مسلمين ، بل كانوا منافقين على الحقيقة ، ولم يكونوا من فرقة علي رضي الله عنه ، ولا من فرقة معاوية رضي الله عنه ، وفي هذا الحديث تفسير كبير من حيث العقيدة والإيمان ، ومن يريد التفصيل فاليراجع «الناهية عن طعن أمير المؤمنين» لعبد العزيز بن أحمد الملتاني صـ: ١٥٣-١٥٧ .

٥- ومنه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : «اللّٰهُمَّ بارك لنا في شأمنا ، اللّٰهُمَّ بارك لنا في يمننا» قالوا : يا رسول الله ، وفي نجدنا ؟ قال : «اللّٰهُمَّ بارك لنا في شأمنا ، اللّٰهُمَّ بارك لنا في يمننا» قالوا : يا رسول الله ، وفي نجدنا ؟ فأظنه قال في الثالثة : «هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان» .[٣]

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٨، ومسلم ٥١٩٢، واللفظ للبخاري .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٤٠/٨ .

(٣) أخرجه البخاري ٧٠٩٤، وأحمد ٥٩٨٧، والترمذي ٣٩٥٣، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث ابن عون .

وقد أخرج البخاري في «المناقب» ٣٥١١ بهذا اللفظ : «ألا إن الفتنة من ها هنا ، يشير إلى المشرق من حيث يطلع قرن الشياطين» .

وفي هذا الصدد ما رواه الطبراني عن واثلة بن الأسقع ﷺ : أن النبي ﷺ قال : «يُجَنَّدُ النَّاسُ أَجْنادًا ، جُندٌ باليمن ، وجندٌ بالشام ، وجندٌ المْشرِق ، وجُندٌ بالمغْرب»، فقال رجلٌ : يا رسولَ الله ! خِرْ لِي ، إنِّي فَتًى شابٌ ، فلَعلِّي أُدرِكُ ذلك ، فأيَّ ذلكَ تأمرُني ؟ قال : «عليكم بالشَّامِ ، فإنها صفوة الله من بلاده يسوق إليها صفوته من عباده» .[1]

وكذا ما روي عنه ﷺ في العراق ، مثل خروج الخوارج منه ، وقتل أهل الكوفة حسينا ﷺ ، وفزع أهلها من دجال ، وانحسار الفرات عن جبل من ذهبٍ أو كنزٍ ، وابتداء الفتن من العراق آخر الزمن قبل خروج المهدي عند الملاحم ، وغيرها من الأحاديث . وليطالع من شاء المزيد «العراق في أحاديث وآثار الفتن» للشيخ أبي عبيدة بن حسن آل سلمان ، فإنه كنز لمجموعة هذه الأحاديث النبوية الشريفة .

وبعض ذلك قد ظهر، وسيظهر ما بقي عن قريب إن شاء الله ، والأحوال الحاضرة في العراق لمشهدة كافية للعاقل الفهِم ، فإنها أول ما سقطت من البلاد الإسلامية، وأول ما اختلت أمورها واضطرب أهلها في عصرنا الماضي القريب.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٢/٥٥ رقم ١٣٠، و٢٢/٥٨ ، رقم ١٣٧، ورقم ١٣٨ ، وقال الهيثمي في المجمع : وفيه المغيرة بن زياد وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح ، قال الحافظ في المغيرة: صدوق له أوهام ، وله شواهد ، فالإسناد صحيح لغيره .

٦- وكذا قوله ﷺ: «نضَّر الله امرءًا سمِع مقالَتي فوعاها وحفِظها وبلَّغها فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ: إخلاصُ العملِ للهِ ومناصحةُ أئمةِ المسلمينَ ولزومُ جماعتِهم فإنَّ الدعوةَ تحيطُ من ورائِهم». [(١)]

«نضَّر» أي حسَّن وبهَّج، فهذا دعاء لمن يحمل العلوم النبوية، وفيه إعجاز النبوة العظيمة، حيث نرى الآن نورًا ثاقبًا ونضارةً جميلةً في وجوه حاملي العلم النبوي، وهذا سببٌ عظيمٌ لكون وجوه العلماء مُنوَّرة مُرعِبَة.

ويتجلى من الحديث فضل العلم، ونشر السنة، وشرح الأحاديث، وتبليغها، وحفظها، والعمل بها، وهذا الحديث يكفي للدلالة على الإعجاز النبوي الكريم، حيث يبقى أثره من بعد موته حتى الآن إلى أربعة عشر قرنا. قال ابن القيم: ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفًا، فإن النبي ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه. [(٢)]

فإذا تفكر أحد في هذه الأحاديث ازداد إيمانه قوة وبهاء ونشاطًا وصلابة من إعجاز النبي العربي ﷺ.

❖❖❖❖

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٦٥٧، و٢٦٥٨، وابن ماجه ٢٣٢، وأحمد ٤١٥٧، وقال الترمذي بعد إخراج حديث ابن مسعود: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/ ٧١.



القاعدة التاسعة

إبداع الكلام في الأحكام الشرعية من العبادة والمعاشرة والمعاملة

ومن بدائع إعجازه ما بينه من الأحكام الشرعية من العبادة والمعاملة والمعاشرة بأسلوب محكَم سهْل بيِّن واضح ، التي توافق كل عهدٍ وزمنٍ حتى في هذا العصر، عصر الاستعمار والارتقاء أيضا ، وما من سَعْيٍ غربيا كان أوشرقيا أراد الكيد في ضد الإسلام وأهله، إلا وصار هباء منثورًا، وغبارُه المتطاوِر ذهب ضياعًا بلا فائدة .

وسنذكر في القسم الثالث الإعجازَ العلميَّ في العبادة ، فإنها تتعلق معه. والآن نذكر بعض الأمثلة من باب المعاشرة إن شاء الله ، لأن أحاديث هذا الباب المعاشرة متعلِّقٌ أسلوبُه بالإعجاز البياني .

ثم إن كل أحاديثه في المعاشرة كأنها قنطرات فوق البحر أوالنهر أوالهُوَّة فهذه تُبْنَى لعبور الإنسان ومتاعهم ، وتلك بُنِيَتْ للإنسانية المفيدة . وها هي أمثلتها فيما يلي :

١- ومن هذا القسم قوله ﷺ : عن ابن جريج أنه سمع أبا الزبير يقول : سمعت جابرا ﷺ يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» .[١]

---

(١) أخرجه البخاري١٠، ومسلم ٤٠ ، والترمذي ٢٦٢٧، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قال الشيخ نوير عيد مرزوق : وفي هذا الحديث يخبرنا رسول الله ﷺ ويوضح لنا منهجا لتعامل الفرد المسلم مع أخيه المسلم ، وقد أتى بأسلوب خبري وجيز مشتمل على الجناس اللفظي بقوله : «مسلم»، «سلم»، «مسلمون»، فهذا التناغم الصوتي ، من شأنه ترسيخ تلك القاعدة الهامة ، وهي طريقة تعامل الفرد مع بقية أفراد المجتمع المسلم ، ونلحظ أنه قدم «اللسان» على «اليد» ؛ لأن أذى اللسان (من غيبة ونفاق ونميمة) من شأنها إحداث ضرر وشتات وفرقة بين أفراد المجتمع المسلم ، أكثر من الضرر الذي سيلحقه الأذى الجسدي بالضرب ونحوه .

وقدم المسند إليه «المسلم» لينبه المخاطب ويهيئه ، فيتطلع إلى معرفة ما يخبر به عنه ، فاذا ما جاء الخبر ، قرَّ في الأذهان وتمكنت تلك المعاني ، فيشتد الحرص على امتثالها . (١)

وقال أيضا صـ: ١٠٧ : «أي : الكامل الإسلام والجامع لخصاله من لم يؤذِ مسلما بقول ولا بفعل ؛ إذ أكثر الأفعال بالأيدي فأضيفت عامتها إليها ، وهذا من جامع كلامه . (٢)

فبعبارة وجيزة وَضَعَ ﷺ قاعدة لتعامل الأفراد فيما بينهم ، فالحديث السابق يعد من جوامع الكلم حيث يبين ﷺ معنى المسلم الحقيقي موجزًا معناه بقوله ﷺ : «من سلم المسلمون من لسانه و يده»، فهو الذي يكف لسانه عن

---

(١) بلاغة التراكيب في كتاب الإيمان من صحيح مسلم صـ: ٧٣ .

(٢) إكمال العلم بفوائد مسلم ١/٢٧٦-٢٧٧ .

الإساءة لغيره من سباب ونميمة ونفاق وغيبة وكلام بذيء ، ففي زماننا نجد أن المسلم يحافظ على صلاته في وقتها ، ويؤدي حق الله في ماله ، فيدفع الزكاة المفروضة ، وهو من حجاج بيت الله الحرام .

ولكن مع هذا الخير كله قد تجده لا يحكم لسانه ، ولا يملك زمامه ، فينفلت منه لسانه فيقع في أعراض الناس ، فلا يستطيع أن يملك لسانه عن السبب والشتم واللعن ، وقد لا يملكه عن شهادة الزور وقول الزور ، ولا يكف لسانه عن همز الناس ولمزهم ، فمثل هذا النوع من الناس قد فقد صفة المسلم الحقيقي . والله أعلم» . اهـ .

٢- ومنه قوله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين . [(١)]

قال الشيخ نوير أيضًا : وفي هذا الحديث يضع رسول الله ﷺ قاعدة إسلامية راسخة في كيفية تعامل أمته ﷺ معه ، فلا يكتفون بطاعته والعمل على ما جاء به ، بل حبه ﷺ وتفضيله بذلك على غيره .

ويبدأ أسلوبه بالنفي «لا يؤمن» ، وهو نفي شيء عظيم ، ألا وهو الإيمان ، فصيغة النفي تثير التساؤل وتحدث اليقظة وإثارة الذهن . وفي قوله «حتى» تفيد الغاية ، فينتفي الإيمان عن الشخص مهما فعل من عبادات وطاعات ؛ ما لم يقدم حب رسول الله ﷺ عن سواه من البشر .

---

(١) أخرجه البخاري ١٥، و٦٢٥٧ ، ومسلم ٤٤ .

قال ابن بطال : قال أبو الزناد : هذا من جوامع الكلم الذي أوتي ﷺ إذ أقسام المحبة ثلاثة : محبة إجلال وإعظام ، كمحبة الوالد . ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الولد . ومحبة مشاكلة واستحسانٍ كمحبة الناس بعضهم بعضا ، فجمع النبي ﷺ ذلك كله .[١]

فينبغي أن تكون محبة الرسول ﷺ في حياة الناس أكثر من كل شيء في الدنيا ، وإلا فلا يَزِنُ الأشياءَ في ميزان صحيح ، ويخلط الحابلَ بالنابلِ .

٣- ومنه قوله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .[٢]

جواب ما ورد على هذا الحديث

التبس على بعض الناس هذا الحديث ، فاعترضوا عليه ، ويقولون : فهل يعطِي الرجلُ أخاه أمتعته كلها ؟ من امرأته وداره ولباسه وغيرها ؟

وليس كما يظنون ، بل المراد من الحديث : أن يحب الناس لآخر مثل ما يحب لنفسه ، لا عينه ، فيُدفَع به ما ورد عليه .[٣]

وإن هذا الحديث الشريف بعباراته الجامعة الموجزة ، وشمول معناه ، وعمق أثره يعد من جوامع الكلم ، ومن الحكمة النبوية الصادقة ، إذ يبين فيه الرسول ﷺ دعامة رئيسة من دعائم الإيمان التي يجب أن يطبقها الانسان في واقع حياته العملية ، وهو الحرص على بقاء الأخوة الإنسانية الحالية .

---

(١) كذا في بلاغة التراكيب صـ: ١٠٨، نقلا من عمدة القاري ١/ ١٩٨ .

(٢) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥، والترمذي ٢٥١٥، وقال : هذا حديث صحيح .

(٣) كذا قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ٢/ ١٥ ، رقم الحديث ٤٥.

إذ يجب على الإنسان المؤمن الذي يتصف بالإيمان الحقيقي أن يحب لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه من خير الدين والدنيا ، وشرف الأولى والآخرة ، ويشاركه في ذلك ويدعو إليه كما يبغض في الوقت ذاته لأخيه ، ما يبغض لنفسه من الشر وينهى عنه .

ويتمثل الضمير الغائب المستتر في الفعل المكرر مرتين : يحب، والغائب المتصل في «أخيه» و«نفسه»، حيث يتميز الضمير الغائب بالغياب عن الدائرة الخطابية ، والقدرة على إسناد أشياء معينة في تحقيق نصية النص ، ببناء شبكة العلاقات التي تربط بين أجزاء النص ربطا محكما يتحد فيه البناء . (١)

والتعبير في الحديث بلفظ «لأخيه» من لطائف الأساليب البيانية ودقائقها ، فقد أشار ﷺ به إلى تراحمٍ وتعاطفٍ بعضهم بعضا ، وتوادهم وتسامحهم فيما بينهم ، مثل حب الشقيق لأخيه ؛ فإن كلهم من آدم واحد ، وتراب واحد .

٤- ومنه قوله ﷺ : المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيان يشُدُّ بَعضُهُ بعضًا . (٢)

في هذا الحديثِ يَحُثُّ النبيُّ ﷺ المؤمنينَ على التعاوُن والتناصُر ، والتظاهر والتكاتف على مصالِحِهم الخاصة والعامَّة . وشبَّه أُخُوَّتَهم بالبنيان ، أي : إن المؤمنينَ في تآزُرِهم ، وتماسُكِ كُلِّ فردٍ منهم بالآخر كالبُنيان المرصوص الذي لا يَقْوَى على البقاء إلا إذا تماسَكَتْ أجزاؤُه لَبِنَةً فلَبِنَةً ، واحدة فواحدة ،

---

(١) بلاغة التراكيب صـ: ١٠٨-١٠٩ .

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٢٦، ومسلم ٢٥٨٥، والترمذي ١٩٢٨، وقال : هذا حديث صحيح .

فإذا تفَكَّكَتْ سَقَطَ وانهارَ .

قوله : «وشَبَّكَ بينَ أصابِعِه»، إشارة إلى أنّ تعاضُدَ المؤمنينَ بينهم كتشْبِيك الأصابع بعضِها في بعض ، فكما أن أصابعَ اليدين مُتعدِّدةٌ ؛ فهي ترجِعُ إلى أصلٍ واحدٍ ، ورَجُلٍ واحدٍ ، فكذلك المؤمنون وإن تعدَّدَت أشخاصُهم فهم يرجعون إلى أصلٍ واحدٍ ، وتجْمَعُهم أُخُوَّةُ الإيمان .

وهذا التَّشبيك من النبي ﷺ كان لمصلحةٍ وفائدة ، لم يكن عَبَثًا ؛ فإنه لما شبه المؤمنين بالبُنيان الذي يشد بعضُه بعضا ؛ تشبيها بالقوْل ، ثم أوضَحَه بالفعْل فشبَّك أصابعَه بعضها في بعضٍ ؛ ليتأكَّدَ به المثالُ الذي ضَرَبه لهم بقوله ، ويَزْدادَ بيانًا وظُهورًا .

٥- ومنه قوله ﷺ: «دعْ ما يُريبُكَ إلى ما لا يُريبُكَ فإنَّ الصدقَ طُمأنينةٌ وإنَّ الكذبَ رِيبَةٌ» .[(١)]

في هذا الحديث يأمر النبي ﷺ بالابتعاد عن كلِّ أمرٍ به شكٌّ واضحٌ ، والمناسبة بين شَطْرَيْ الحديث : أن الشطر الأول : «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك»، معناه : اترُكْ واستَغْنِ عما تشك فيه من أمورٍ لم تسكُنْ إليها نفسُك إلى ما لا تَشُكُّ فيه ، فيطْمئِنَّ لها قلبك ، وابتعِدْ عن الوساوس ؛ فإن الاحتِراز عنها استِبْراءٌ للدين ، ومهما تبتعدْ عنها يكنْ قلبُك مطمئنا ، فإن الشك والوسوسة لا تكون إلا كذبا . فمعنى الطمأنينة في هذا الشطر الأول لازم غير صريح الألفاظ .

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٨، والنسائي ٥٧١١ ، وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

والشطر الثاني : «فإن الصدقَ طُمَأنينةٌ» ففيه ذلك المعنى (الطمأنينة) واضح صريح أي : إنّ الصدق والخير والحق يسكُنُ إليه القلبُ ويرْتاحُ به ، وإنَّ الكَذِبَ رِيبةٌ ، أي : إن غير الحق يَجعَل القلبَ مُضطربا ، غير مطمئن ؛ نَتيجةَ الشكِّ الملتبسِ به .

وألفاظ الحديث تشير إلى رجوعِ المؤمن الصادق إلى قلبه عند الاشتِباه ؛ لأن قلْب المؤمن دليل له إلى الخير ، فإنه ينظر بفراسته ، فإذا تتقدم أمامه المنكرات المشتبهات في أي مجال من حياته يتقيها بذوقه الصحيح إن شاء الله.

٦- ومنه قوله ﷺ : مطل الغني ظلم . [(١)]

مطَلَهُ حَقَّه : أي : تماطل بالوفاء به مرة بعد أخرى ، والمراد من الغني : من كان يستغني بما لديه في حوائجه وحاجاته ، حتى يشمُل الحديث كل الناس ؛ بائعا كان أو مشتريا ، سوقيا كان أوتاجرا، قليل المال أوكثيرَه. وهذا الحديث من أصول المعاشرة الكبيرة المهمة ، فلو عمل الناس بما قال لَمَا ساد سوقُنا الآن .

٧- ومنه قوله ﷺ : من احتَكرَ فهو خاطئٌ . [(٢)]

خاطئٌ أي : عاصٍ آثمٌ ، والمحتكرُ : هو الذي يَشتري السِّلَعَ من الطعام ونحوه مِمَّا يحتاجه الناسُ في وقت الشِّدَّة ، ويُخزِّنُه إذا اشتدَّ الغَلاءُ حتى يَبيعَه بأكثر القيمة .

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٠٠، ومسلم ١٥٦٤، والترمذي ١٣٠٨، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه مسلم ١٦٠٥، وأحمد ١٥٧٥٨، وأبو داود ٣٤٤٧، والترمذي ١٢٦٧، وابن ماجه ١٢٥٤، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

٨- ومنه قوله ﷺ : ليسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ .[١]

أي : ليس الغِنى الحقيقي عن سبب كثرة المال والعرض ، وهو ما يُنتفَع به من متاع الدُّنيا ؛ لأن كثيرا مِمَّن وُسِّع عليه في المال لا يَقنَع بما أُوتي ، فهو يجتهد في الازدياد ولا يُبالِي من أين يأتيه ، فكأنه فقير من شدَّةِ حِرصه ، فالغنى الحقيقي المعتبَر الممدوح هو غنى النفْس بما أُوتيتْ ، وقَنَاعتُها ورِضاها به ، وعدم حرصها على الازدياد والإلحاح في الطلب ؛ لأنَّها إذا استغنتْ كفَّتْ عن المطامِع ، فعزَّتْ وعظُمتْ ، وحصَل لها من الحُظوة والنَّزاهة والشَّرف والمدح أكثر من الغِنى الذي يناله مَن يكون فقيرَ النَّفس بحرصه ، فإنَّه يُورِّطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال ؛ لدناءة هِمَّته وبُخله ، ويكثُر ذمُّه ويَصغُر قدرُه عندَ الناس ، فيكون أحقَرَ من كل حقيرٍ ، وأذَلَّ من كل ذليلٍ .

وهو مع ذلك كأنه فقير من حيث المال ؛ لكونِه لم يَستغنِ بما أُعطي فكأنه ليس بغنيٍّ ، ولو لم يكن في ذلك إلا عدم رِضاه بما قضاه الله ، لكَفَاه قليل من المال .

٩- ومنه قوله ﷺ : «إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ فمَن أخَذَها بحقِّها بارَك اللهُ له فيها ورُبَّ مُتَخَوِّضٍ في مَا اشتهتْ نفسُهُ ليسَ لهُ يومَ القيامةِ إلا النارُ». وفي رواية : «في مال الله ورسوله له النار يلقاه».[٢]

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٤٦ ، ومسلم ١٠٥١، والترمذي ٢٣٧٣، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه ابن حبان رقم ٤٥١٢، والترمذي ٢٣٧٤، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

أي: المالُ من فتن الحياة الدنيا ، وينبغي للْمؤمن أنْ يصُون نفْسَه بمعرفة ما فيه من خيرٍ وشرٍّ ؛ فيَحترِزَ من الوقوع في شره ، ويعرفَ حق الله ﷻ في المال فيُؤدِّيَه . ويقول ﷺ : «إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ»، وفي رواية الترمذي : إن هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوةٌ ، أي : إن المال أوالدنيا تُشبِه الفاكهةَ الخضِرةَ في المنظر ، والحلْوةَ في المَذاق ؛ ولذلك تَرغَبُه النفوسُ وتميل إليه وتَحرِصُ عليه .

وقيل : في تشبيهها بالخضرة إشارة إلى سُرعة زوالها كزوال اخْضرار الأرض ؛ فمن أخَذَها بحقها بارَكَ اللهُ له فيها ، أي : من أخذها بغير إلْحاحٍ في السؤال ، ولا طمعٍ ولا حرْصٍ عليه ، وكان رزقا حلالا يشعُر بلذتِه .

وقوله ﷺ : «وربَّ مُتخوِّضٍ في ما...»، أي : مُتصرِّفٍ فيه بما لا يُرضِي الله، أوأخذه بغير حقه، في مال الله ورسوله، أي : من الصدقات والغنيمة والزكاة «له النَّارُ يومَ يلْقاهُ»، أي:كان جزاؤه وعقوبته أن يُدخِلَه الله النار يوم القيامة .

وفي الحديث : أن المُكتسِبَ للمال من غير حِلِّه غير مبارك له فيه . وفيه : تحذير من الخوض فيما لا يملِكُه الإنسان . وفيه : أن جمْع الإنسان المال أوما يحتاجه من أغراض الدنيا بطرق الحلال ليس مستهْجَنا ، إذا اتصف في ذلك بِحسن الطلب ، وذكر ﷺ في هذا الحديث صفتين إثنتين تتعلق بهما النفوس ، الأول : من جهة الطعم ، والثاني : من جهة النظر ، أما من جهة الطعم فلا شك أن النفس تستهويها الأشياء الحلوة ، وكان النبي ﷺ يحب الحلوى والعسل ، وكان يعجبه الحُلو البارد ، وهو أكمل الناس ذوقا ، وأسلمهم طبعا ، فهذه أمور تميل إليها النفوس ، وجُبلت على محبتها .

والصفة الثانية للدنيا وهي من جهة النظر : أنها خضرة ، وتلك أيضا مما تطمح إليها النفوس، وتستهويها وتحبها وتبهَج وتبهُو بها، لكونها لونا رائعا، فإن النفس تبتهج بلون الخضرة وتحبها، وتَلْتَذُّ بالنظر إليها، فهي لذة من جهة النظر فوصف النبي ﷺ الدنيا بذَيْنِك الوصفين ، وإن كان الخَضِر من النبات قد لا يكون مما يستجاد منه من أنواع البقول ونحوها، بل قد تكون رديئة ، ولكن لونها يُعجِب الناظرين ، فالدنيا كذلك ليست بخير في حقيقتها ، وليست بذاتِ قيمة تَستحق أن يتكالب عليها الناس ، وأن يصرفوا أوقاتهم وأنفاسهم وأطماعهم ، ولهذا قال ﷺ : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا من شربة ماء [١] ، ولو علم الناس قيمة الدنيا عند الله وتدبر فيها، لَمَا أضاعوا حياتهم بها، ولما سعوا في السراب المخدع ، يحسبه الظمآن ماء .

١٠- ومنه قوله ﷺ : إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرَّازِق . [٢]

ومعنى الحديث : أن تسعير الثمن في السوق يكون من نظام الله تعالى فهو قد يقبض عليه ، وقد يبسطه ، ومن ذلك يزداد سعر البضائع حينا ، وتَقِلُّ أخرَ ؛ فلا حاجة للسلطان أن يحكم على التُجار حكما يكون ظلما عليهم ؛ إذا كانت القيمة حسب المعروف ، أما إذا كانت مطلقة العنان فلا بد حينئذ تحكيم الحاكم دفعا للمَضار .

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٢٠، وابن ماجه ٤١١٠، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب .

(٢) أخرجه أحمد ١٢٦١٣، وأبو داود ٣٤٥٢، والترمذي ١٣١٤، بلفظ «الرَزَّاق» ، وابن حبان ٤٩٣٥، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

القاعدة العاشرة

مخاطبة الخاص ويراد بها العام

وليعلم أن أصل الخطاب هو أن يكون لشخصٍ معينٍ واحدًا كان أو أكثر ، لأن وضع المعارف على أن تستعمل للمعين مع أن الخطاب هو توجيه الكلام إلى حاضر .[١]

وهذا الأصل يوجد في كلام النبي ﷺ كثيرًا ، فإنه قد يصدر منه كلام في قضية خاصة في رجلٍ خاصٍّ ، ولكن حكمه عام لكل الناس ، وحينذاك ينزل الخطاب منزلة الحكم العام .

فمنه قوله ﷺ : أنصرْ أخاك ظالما أومظلوما .[٢]

تأمل التعبير بضمير الخطاب المُضمَر في قوله «انصر»، تجده ﷺ لم يرد مخاطبا معينا ، وإنما أراد ﷺ أن كل من يتأتى منه الخطاب ينبغي أن يقوم بهذه المهمة العظيمة التي فيها غاية العدل من نصر المظلوم ، والأخذ بيد الإنسان الظالم حتى لا يقع في انتهاك حرمات الغير ، ثم تعبيره بلفظ«الأخ» يشير إلى كمال العناية بالمحبة الأَخَوِيَّة الإسلامية الآدمية .

وأما نصره مظلوما : فهو إنقاذه من ظلم الظالم ، وأما نصره ظالما : فهو إنقاذه من ظلمه على غيره ، ومن نارِ جهنمَ بظلمه .

---

(١) أسرار التعريف والتنكير صـ: ٣٣، والإيضاح ١/ ١٠ .

(٢) أخرجه البخاري ٦٩٥٢، والترمذي ٢٢٥٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح .

ومنه قوله ﷺ : إذا سمعتم النداء ، فقولوا مثل ما يقول المؤذن . [(١)]

فالخطاب في هذا أيضا لعموم الناس في عهد النبي ﷺ وبعده ، وللصحابة رضي الله عنهم وغيرهم ، فكل من يتأتى منه سماع النداء من المسلمين ينبغي له تلبيته ، وذلك فإن سماع الآذان والإقامة لا يختص به سامع دون سامع بل هو على جميع المسلمين عامة ، ونظائره في الحديث كَوَابِلِ السماء كثيرة ، ليست كَطَلِّ القطْر قليلة ؛ لاعتماد كثير من الأحكام على هذا الأسلوب .

(١) أخرجه البخاري ٦١١، ومسلم ٣٨٣، وأبو داود ٥٢٢، والترمذي ٢٠٨، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

القاعدة الحادية عشرة

كمال العناية في التمييز بالإشارة

وقد يُرمَز بإسم الإشارة إلى تصوير المعاني حتى تكون كأنها مرئية ، وذلك لاختصاصها بحكم بديع .[(١)]

وفي «التجريد في علم المعاني»[(٢)] : والمميز أكمل تمييز إنما هو الذات ، وهذا يقتضي أنه أعرف من سائر المعارف ، حيث أن فيه إشارة حسية مفسرة بإشارة الجوارح .

وعلى هذا ما نجدُه من دلالة الإشارة الكثيرة في قوله ﷺ فمنه قوله ﷺ : «لا تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله .[(٣)]

فلفظ الإشارة في قوله ﷺ «هذه الأمة» أفادت تمييز أمة محمد ﷺ أكملَ تمييزٍ ، كأنها حاضرة في ذهن السامع محسوسة مشاهدة ، وبعد هذه الإشارة جاء التمييز الأخر الذي يفيد تفرد هذه الأمة في ثباتها على الحق إلى قيام الساعة ، ثم إن هذا يفيد بالإشارة تَمَكُّنَ هذه الأمة في نفوس المؤمنين فضلَ تمكنٍ .

ومنه قوله ﷺ : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا

---

(١) أسرار التعريف والتنكير في الحديث النبوي صـ: ١٠٤ .

(٢) ٧٤/٢ .

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٣٩، ٧٣١١ ، ومسلم ١٩٢١، ٣٦٤١، بألفاظ مختلفة .

تضامون في رؤيته» .[١]

فرؤية الله تعالى يوم القيامة لا شك فيها؛ وقد تم استحضار رؤية المولى عزوجل بدون كم وكيف . وأشار إلى ذلك بقوله «هذا القمر» ، فكأنه ﷺ في هذه الإشارة تحدى أن يكون له تبارك وتعالى ضريب ونضير لإحساس الناس رؤيتَه يوم القيامة كالمشاهدة الدنياوية ، وهو سبحانه وتعالى ﴿ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير﴾ .[٢]

ولذلك جاء في «التجريد» أن : استعمال إسم الإشارة فيه تعالى سواء كان للمبصر أوغيره ، مجاز ؛ لتنزهه عن الإشاره بالجوارح .[٣]

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٣، ومسلم ٦٣٣، والترمذي ٢٥٥٤، وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٢) أسرار التنكير والتعريف في الحديث النبوي صـ: ١٠٦ .

(٣) التجريد في علم المعاني٢/ ٧٤ .

القاعدة الثانية عشرة

إحكام منطقه ؛ وأثرُ خِلْقَتِه وصفتِه ﷺ في الأدب

لم يكن النبي ﷺ يتكلف في كلامه ويصنع صنعة الألفاظ ويتفكر ثم يلقيه ، بل كان عفو البداهة وارتجال السرعة وتدفق المعاني ومسايرة الألفاظ معها ، كان سيلَ المعاني تبرد به القلوب ، وبحر الألفاظ تستمع إليه الأسماع ، كانت المعاني والألفاظ تتبعه كاهلا بكاهل ورأسا برأس وجانبا بجانب ووسطا بوسط! فيصبها صبا ويُجَمِّلها جمًّا ! ليس كبلغاء الآخرين يفكرون ألفا ويلقون ذَرًّا ، يصِحُّون قِلّا ويخطئون تَلاّ ، يَرمُلون فُتاتا ويُدخلون قشًّا فيه ، وبالله أي ألفاظ تصِفُ بها تعجِز عن بيان إحكامه! والله إنه لمن آلاء الله ! ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [سورة الرحمن ١٣] .

وإنه أثرت فيه خِلْقَتُه التي خلقه الله عليها ، وصفتُه التي جعلها أسوة ونموذجا للإنسانية وأدبها ، وهي شمائله الحميدة ، ومن درسها بالتدبر يتضح أمامه تمام خلقته وحسنها التي بها أصبح أبلغ العرب ، فصلى الله تعالى عليه وبارك وسلم تسليمًا كثيرًا .

قال الرافعي : ليس في التاريخ العربي كله من جمعت صفاته وأحصيت شمائله وتواتر النقل بذلك جميعه بطرق مختلفة على توثق إسنادها غير النبي ﷺ ، وهذا أصل لا يعدل به شيء في بيان حقائق الأخلاق ، والاستدلال على قوة الملكات ، واستخراج الصفات النفسية التي حصل من مجموعها أسلوب

الكلام على هيئته وجهته ، وانفراد بما عسى أن يكون منفردا به ، أو شارك فيما عسى أن يكون مشاركا فيه ، وعلى هذه الجهة نأتي بطرف من صفته ، فعن الحسن بن علي بن أبي طالب ﵄ : سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ ، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئا أتعلق به ، فقال :

« كان رسول الله ﷺ فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشذب » .[1]

ثم ذكر الحديث الطويل : وفيه صفته : سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، سهل الخدين .

وضيلع الفم : أي : كان خداه وفمه واسعا ، لا يتشقق في كلامه ولا يؤذيه أداء الكلام من مخرجه ، بل كان عسل الكلام وحلوه ، يسير سيرا . أشنب : الشنب : أي : بياض الأسنان أورونقها ومائها ، وقيل : رقتها . والفلج : فرق بين الثنايا . والمسربة : خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة .

ثم قال حسن بن علي ﵁ : قلت : صف لي منطقه ، قال : « كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم » .

أي : يستعمل النبي ﷺ جميع فمه للتكلم ، ولا يقتصر على تحريك الشفتين ، وذلك من قوة المنطق والصوت وأداء المعنى، وحضور الذهن واجتماع

---

(١) المربوع والربعة : الرجل بين الطول والقصر، لا بالطويل ولا بالقصير ، والمشذب : البائن الطول في نحافة .

ألفاظه ومعانيه .[١]

فهذه الصفات قد اجتمعت في النبي ﷺ ما لم يجتمع في أحد من الناس في العالمين ، فما من رجل غيره إلا وتجد فيه نقيصة ولو كانت من جانب واحد، وجعلته هذه الصفات أعرب العرب وأفصح العرب ، فقال ﷺ : «أنا أفصح العرب» .[٢]

فإذا تأملنا صفاته من كونه مربوعا وتكلمه بجوامع الكلم وكونه سهل الخدين ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، وافتتاحه وختمه بأشداقه وعدم تشدقه نجده مكملا وجامعا لصفات الخطيب المصقع الأديب الحلو الصوت الصافي ، الذي لم يكن في وسع أحد أن يضع قلما أحمر على كلامه وقوله وأسلوبه و بيانه .

بل ندعي ونوقن بأن لا مجال للخطأ في كلام الرسول وكلمته ﷺ كما قلنا من قبل . وفي حين نرى البلغاء لا يخلون عن العيوب الكلامية أوالبيانية .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ: ٢٨٨-٢٩٨، والحديث في دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٦/٣٥-٣٦ رقم٥٤٣٧ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ورفعه : «أنا النبي لا كذب ، أنا بن عبد المطلب ، أنا أعرب العرب ، ولدتني قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر ، فأنى يأتيني اللحن» . وفي إسناده مبشر بن عبيد ؛ وهو متروك . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢١ ، فقال : وفيه مبشر بن عبيد وهو متروك . وأما قوله ﷺ : «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» فقد ورد أيضًا بلفظ : «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش»، فقال السخاوي في المقاصد الحسنة صـ:٩٥ : معناه صحيح ولكن لا أصل له . وكذا قاله ابن كثير في تفسيره : ١/ ٣١. وذكره القاري في الأسرار المرفوعة ١/١١٦ ، وقال : حديث «أنا أفصح من نطق بالضاد» معناه صحيح ، ولكن لا أصل له في مبناه كما قاله ابن كثير .

إما أن يكون أحدهم فصيحًا ولا يكون بليغًا في كل كلامه ، وإما أن يكون خطيبًا ويتنافر الناس من تشدقه وتحدر مياه لسانه عند الكلام !

وكل هذه من التشدق وشدة كراهة الصوت لضيق الفم من نقائص أداء المعنى ونحافه، وضئاله وضعافه، وكان النبي ﷺ طاهرًا خلق مبرأ منها برحمة ربه الحكيم ، فصلى الله تعالى عليه وبارك وسلم .

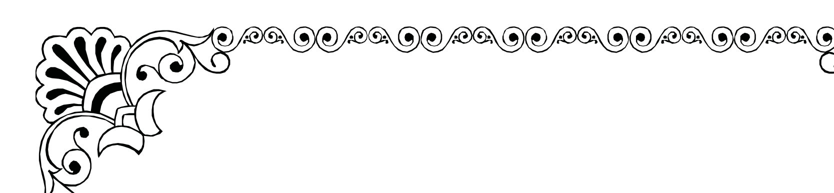
قال حسان بن ثابت رضي الله عنه : (١)

وَأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ

خلقتَ مبرأً منْ كلّ عيبٍ كأنكَ قدْ خلقتَ كما تشاءُ

---

(١) الأدب العربي بين عرض ونقد للشيخ العلامة محمد الرابع الحسني الندوي صـ: ١١٢، ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق د/حنفي حسين ، قصيدة : وأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني ٣٣٨-٣٣٩ ، دار المعارف ، القاهرة .



القسم الثاني

التصوير الفني في الحديث النبوي

وهذا القسم الثاني مشتمل على عدة أصول وضوابط البلاغة والفصاحة في الكلام ، وهو ينبئ عن الإعجاز البياني في الحديث النبوي ، يتجلى به أهميته إلى حد كبير ، فنقدم إليكم في التالي هذا القسم مع متعلقاته ، وهو يحتوي على أربعة مباحث :

المبحث الأول : التشبيه والتمثيل

المبحث الثاني : الكناية

المبحث الثالث : الاستعارة

المبحث الرابع : التعريض

التصوير الفني في الحديث النبوي

معنى التصوير لغة

صَوَّرَه : جعل له صورة ، رسمه وجسمه ، صَوِّرِ المنظرَ : أخذ له صورة بآلة التصوير، أو رسمه على الورق ، ومنه التصوير اليدوي : وهو فنٌّ جميلٌ يقوم على رسم الأشياء .

ومنه التصوير الشمسي والفوتوغرافي : وهو إثبات صور الأشياء بفعل النور على الورق أو على صحيفة سريعة التأثر بالنور بواسطة آلة التصوير المعروفة بـ« المصورة ».

أما التصوير الفني فقد قال الشيخ سيد قطب في تعريفه : التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ..... وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ؛ ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع ، وهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ..... .[١]

فكما أنه في القرآن المعجز ثابت كذلك في الحديث النبوي الشريف ؛ يكاد يوجد كثيرًا ، وهو يُلَذِّذ الكلامَ للقارئين ، ويصوِّرُ الشيئَ بصورة لامحة

---

(١) التصوير الفني في القرآن صـ: ٣٤ .

بارقة عند أذهان القراء ، ويبعث المثال النفسي عند الناظرين ، ويخلق خلقا في النفس الإنسانية .

وهو البيان الفني التصويري ، يُسحَر به الحاضرون أوالسامعون ، ولذلك قال ﷺ : « إن من البيان لسحرا »، أي : جعل بعض البيان ساحرًا مؤثرًا ، وكان النبي أميًّا ، لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك انبعاث مثل هذا الكلام لا يكون إلا من تنزيل يُوْحٰى ، وهذا هو السبب الأساسي لكون أدبه أفصح الآداب .

والتصوير أصل كبير للأدب ، بل هو روح الأدب ، وهو في الحديث الشريف كالسحاب الجامد ، لم يسخره إلا ثلة قليلة بمقدار قليل بغير ترتيب ولا تبويب .

والعجب من البلاغيين أنهم توغلوا في أدغال الأشعار الجاهلية وتغلغلوا في أقاصيها في استدلالهم ، ورغبوا عن المصدر الأصلي النبوي ، فقد تأثروا بتشكيك النحويين ، واعترضوا مثلهم ، وإلا فلم يضق مخزنُ الأحاديث لأن يكون مستدلهم في كل قواعدهم وأصولهم ، وأين مثل السكاكي والتفتازاني والجرجاني من ذلك المخزن العظيم ؟ فقد أدرجوا في كتبهم الأشعار ولم يستدلوا بالأحاديث الشريفة إلا قليلا ؛ رغم إدخالهم فيها الآيات القرآنية الكريمة ! وقد فصلنا الكلام فيه في أول الرسالة .

فلذا أقمنا له قسمًا على حدة ؛ كي يفتتح باب جديد في هذا الموضوع ، فيأتي فارس مسلح مثقف يقود جيش الأدب ، ويَفتح أبوابَه من قلاع التشبيه النبوي !





المبحث الأول

التشبيه والتمثيل

معنى التشبيه

وهو لغة : شَبَّهَ عليه الأمرَ : لَبَّسه عليه وخلطه، شُبِّهَ له أوعليه : لُبِّسَ ، اختلط فيه ، وشَبَّهَه به : مثَّله به .

وتعريفه عند علماء البيان : هو الدلالة على مشاركة أمر بأمر لصفة مشتركة بينهما ، ويعبر عنها بإحدى أدوات التشبيه ظاهرة أومقدرة ، كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، فيقال: زيد كالأسد ، وكذا : وجهه كالبدر المنير .(١) وستأتي أمثلته من الحديث النبوي الشريف .

معنى التمثيل

مثَّل الشيئ بالشيئ : شبَّهه به، ومنه : فن التمثيل المسرحي والسينمائي : تقديم الأدوار والأداء المسرحي ، ومثاله من الحديث الشريف :

ومنه قوله ﷺ «مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا ، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ ، قَبِلَتِ الماءَ ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ وكانَتْ مِنْها أجادِبُ ، أمْسَكَتِ الماءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا ، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى ، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا

---

(١) سر الفصاحة للخفاجي صـ: ١١، ومرجع الطلاب في الإنشاء صـ: ٥٨ .

تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا ، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ» .(١)

وإن النبي ﷺ يضرِبُ لنا دائمًا أفضلَ وأسْمى الأمثلة، وأبدَعَها، وأبلغَها، وأوجزها ، التي بها تصلُ المعلومة ، وترسخُ في الأذهانِ . فَهُنا يشبِّهُ لنا ﷺ العلمَ الشرعيَّ المستمدَّ من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ بالمطر الغزير ، الذي ينزِلُ على أنواعٍ مختلفةٍ من الأرض :

أولها : الأرض الخِصبةُ النقيَّةُ ، أي : النقيةُ من الحشرات والديدان التي تفتِكُ بالزرع ، فهذه تقبَلُ الماءَ ، أي : تشرب مياه الأمطار ، فتُنبِت النباتَ الكثيرَ رطبا ويابسا ، وهو مَثَلُ العالِم المُتَفَقِّهِ في دين الله ، العاملِ بعلمه ، المُعلِّمِ لغيرِه .

وثانيها : الأرضُ المُجدِبة ، المُمسِكةُ للماء ، أي : الأرضُ الصُّلبةُ المُجدِبةُ ، التي لا تُنبِت زرعا ، فكانت بمثابةِ خزاناتٍ ضخْمةً ، تحفظ الماءَ ، وتمدُّ به غيرَها ، فينتفعُ بها الناس ، فيشربون ويَسقُون مواشيَهم ، ويزرَعون الأراضيَ الخِصبةَ بمائها ، فهي وإنْ لم تنتفِعْ بالغيثِ في نفسِها ، فإنها نفعتْ غيرَها ، من الإنسان ، والحيوان ، والأراضي الأخرى وهو مثَل العالم الذي يعلِّم غيرَه ، ولا يعمل بعلمه ؛ فهو كالشَّمعةِ تُضيء لغيرِها ، وتُحرِقُ نفسَها !

وثالثها : الأرضُ السِّباخُ ، التي لا تُنبِت زرعًا ، ولا تُمسِكُ ماءً ، فهي لم تنتفِعْ بذلك المطر في نفسها ، ولم تنفَعْ غيرَها به ؛ لاستواءِ سطحِها وعدم إنباتها

---

(١) أخرجه البخاري ٧٩، واللفظ له ، ومسلم ٢٢٨٢.

فهي شرُّ أقسام الأرض وأخبثُها، وهو مَثَلُ المسلم الجاهل ، أوالمسلم العالم الذي لم يعملْ بعلمه ، ولم يعلِّمْه غيرَه ، وهو المقصودُ بقوله ﷺ : «مَن لم يرفَعْ بذلك رأسًا»، أوالكافر الذي لم يدخُلْ في الدين أصلا ، وهو المقصودُ بقوله ﷺ : «ولم يقبَلْ هدَى اللهِ».

فهذا تشبيه تمثيلي ، وضرب من لطائف البلاغة النبوية التي أصلها من وحي الله . وظهر مما بيَّنَّا أن في الحديثِ شُبِّه أربعة أقسام من الناس على أربعة أقسام الأرض في إزاء هذا العلم الشرعي والاستفادةِ منه :

(١) عالمٌ عاملٌ معلِّمٌ لغيره ، وهو أشرفُ الأقسام ، ومن ورَثةِ الأنبياء .

(٢) وعالم يعلِّم غيرَه ولا يعمل بعلمه ، فهذا ينفع الناسَ ولا ينفع نفسَه ويكون علمه حجة عليه .

(٣) ومسلم جاهل أوعالم لا يعلم غيره ، ولا يعمل بعلمه ، هذا شرٌّ ممن سبق من المذكور .

(٤) وكافرٌ لم يدخل في هذا الدين أصلا ، فهذا هو أخبَثُ الأقسام وشرها وأشقاها .

وفي هذا الحديث : فضل من علم وعمل وعلّم ؛ لأن النبي ﷺ شبَّهه بخير أجزاء الأرض وأشرفِها وأزكاها ، وهي «الأرضُ النَّقيَّة» ، وفيه : ذمُّ الإعراضِ عن العِلم .[1]

---

(١) روائع من أقوال الرسول صـ: ٧٥-٩١ .

الفرق بين التشبيه والتمثيل

ومنهم من قال : إن التمثيل مرادف للتشبيه ، ولا فرق بينهما ، بل كلاهما بمعنى واحد ، وفرَّق بينهما الجرجاني بفرق دقيق ، ولإيضاحه نورد عبارته : واعلم أن الشيئين إذا شُبّه أحدهما بالآخر ، كان ذلك على ضربين : أحدهما أن يكون من جهة أمرٍ بيّنٍ لايحتاج إلى تأوّل ، والآخر أن يكون الشبه محصّلاً بضرب من التأوّل .

فمثال الأول : تشبيهُ الشيّ بالشيء من جهة الصُّورة والشكل نحو : أن يشبَّه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه ، وبالحلقة في وجه آخر ، وكالتشبيه من جهة اللّون ، كتشبيه الخدود بالورد ، والشَعر بالليل ، والوجه بالنهار ، وتشبيه سِقْط النار بعين الديك ، وما جرى في هذا الطريق، أو جمع الصُّورة واللون معًا، كتشبيه الثُّريّا بعنقود الكَرْم المنوَّر ، والنرجس بمَدَاهن دُرٍّ حشُوهن عقيق .

وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو: أنه مستوٍ منتصبٌ مديدٌ، كتشبيه قامة الرَّجل بالرمح ، وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسَل والسُكَّر وتشبيهِ اللِّين الناعم بالخزِّ ، والخشن بالمِسْحِ ، أورائحةِ بعض الرياحين برائحة الكافور ، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بهما ، فالشبه في هذا كلّه بَيّنٌ لا يجري فيه التأوُّل ، ولا يُفتقَر إليه في تحصيله ، وأيُّ تأوُّل يجري في مشابهة الخدّ للورد في الحمرة ، وأنت تراها هاهنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشَّجاعة في الأسد كتعلمها في الرجل .

ومثالُ الثاني : وهو أشبه الذي يَحْصُل بضرب من التأوُّل ، كقولك : هذه

حُجّةٌ كالشمس في الظهور ، وقد شبّهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها ..... كما شبَّهتَ فيما مَضَى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أوصورة أوغيرهما، إلا أنك تعلمَ أن هذا التشبيه لا يتمّ لكَ إلا بتأوُّل، وذلك أن تقول : حقيقة ظُهور الشمس وغيرها من الأجسام أنْ لا يكون دونها حجابٌ ونحوُه ، مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيءُ لك إذا لم يكن بينك وبينه حجابٌ، ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب ، ..... فكما أن الشمس الطالعة لا يَشكُّ فيها ذو بصرٍ ، ولا ينكرها إلاّ مَنْ لا عذر له في إنكاره ، فقد احتجتَ في تحصيل الشبه الذي أَثبته بين الحجّة والشمس إلى مثل هذا التأوّل كما ترى .

وإذ قد عرفتَ الفَرْقَ بين الضَّربين ، فاعلم أن التشبيه عامٌّ والتمثيل أخصّ منه ، فكل تمثيلٍ تشبيهٌ ، وليس كلّ تشبيهٍ تمثيلاً ، فأنت تقول في قول قيس بن الخطيم (٦٢٠م) :

وقد لاَحَ في الصُّبح الثريَّا لمن رَأَى = كَعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرا

إنه تشبيه حسن ، ولا تقول : هو تمثيل ، وكذلك تقول : ابنُ المعتزّ حَسَنُ التشبيهات بديعُها ، لأنك تعني تشبيهه المبصَرات بعضَهَا ببعض ، وكلَّ ما لا يوجد الشبه فيه من طريق التأوّل ،كقوله :

كأنَّ عُيونَ النَّرْجِسِ الغضِّ حَوْلها = مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهنَّ عقيقُ

وأرَى الثُّريّا في السَّماء كأنَّها = قَدْ تَبَدَّت من ثِيابِ حِدَادِ .[١]

---

(١) كتاب أسرار البلاغة صـ: ٧٥- ٧٨.

الفرق بين تشبيه النبي ﷺ وغيره من الأدباء

١- وقد قلنا : إن النبي ﷺ كان صاحب الوحي صادقا مصدوقا ، كان لا يقول إلا الحق ، وما ينفع المجتمع ، لم يكن في كلامه لغو فاش ولا مزاح باطل ، ولأجله أصبح أدبه يوافق كل زمن وعصرٍ ، وكل ناس وكاتب ، ومن طرق كلامه التشبيه البديع والتمثيل الحسن والاستعارة الجميلة والكناية الرائقة .

كما توجد هذه في الأدباء الآخرين ، بيد أن تشبيهه ﷺ درَّ من قلب خاشع ولسان ذاكر ولغة خِصْبة وعين نافذة ، وكان صافيا مصفى من الفحشاء والشناعة ، وطاهرًا مطهرًا بالثلج والبرد ، لم يكن فيه تصوير كلمة النفس الشاهية ولا تشبيه الصور ذات المعصية بخلاف الآخرين ، فترى في أدبهم الرموز الباطلة وأمور العصيان موفورة في ورقاتهم ، فانظر بيت أشعر شعراء العرب امرأ القيس :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له = بشق وتحتي شقها لم تحول [(١)]

والمراد منه : تصوير وقت خلوته وجماعه مع محبوبته ، وكان طفلها الرضاعي على فراشهما ، فإذا استيقظ بدأ يبكي ، وانصرف له ثديها الواحد ليمصه الطفل ، ولم تحول الشق الأخر ، الذي كان تحت أعضاء امرأ القيس !

فهذا من أروع الأشعار العربية ، فيعتبر من السبع المعلقات التي علِّقت بالكعبة بجودة أسلوبه وملاحة تشبيهه ، لكونه مصورًا لقصة حياته .

---

(١) شرح المعلقات السبع صـ: ١٤، رقم ١٧

ويا ويلهم ! فقد أمهلوا لهذا الضباب الغاشي من رذاذ الماء ، وتساهلوا مع هذا اللهب الحارق المتهيج ، وأي عذب فيه إلا الشهوة ؟

وأما صاحب الوحي فكان يحمل لواء المجتمع الصالح ، فلا ترى في تشبيهه مثل هذه القباحة . وستأتي نماذجه إن شاء الله .

٢- كان تشبيهه بما يتعارفه كل الناس ، بأسلوبٍ جديدٍ وضوح الدلالة مع اللذة البيانية كراحة الصبح البارد بالندى البل في الربيع الهنيئ ! لم تكن في تشبيهه الشوارد والتائهات . وأما غيره من الأدباء أوالشعراء فقلما يخلو كلاهم وأشعارهم منها، فقد يأتون بما يسرح الأذهانَ ويُبعد الأسماعَ ويُتعب القلوب ويزعج الأجسام ، وانظر بيت امرأ القيس :

كأني غداة البين يوم تحملوا = لدى سمرات الحي ناقف حنظل [(١)]

«لدى سمرات الحي» : عند بيوت القرية ، «ناقف حنظل»: كاسر ثمرة حنظل ، و«الحنظل» هو : نبت مفترش من الفصيلة القرعية ، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها ، فيها لب شديد المرارة .

والمراد من الشعر : أنه بفراق محبوبته يبكي في جانب البيت كالذي يقطر ماء عينه عند كسر ثمرة «الحنظل» بالأسنان ؛ لشدة مرارته وعدم التذوق به كالفلفل وغيره !

فهذا التشبيه وإن كان جميلا ؛ لكنه بعيد عن إدراك كثير من الناس ، خاصة ؛ العوام من أهل اللغة . وكان النبي ﷺ محترزا مثل هذه الشوارد التي

(١) شرح المعلقات السبع صـ: ٦، رقم ٤ .

تزن على الألسن !

وبجانبه حوِّلْ نظرَك يا من يلهيك الأدب الغربي ! في تشبيه النبي ﷺ ، تجده حلوًّا ممتزجا بالطبيعة الصالحة ، فانظر تشبيهه الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر بخرق السفينة ! وهذا حديثه صلى الله عليه وسلم :

عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:« مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» .[1]

فهذا مثل عظيم يُشبه فيه الرسول ﷺ حال الناس وموقفهم مما يكون في المجتمع من المنكرات بحال قوم ركبوا سفينة فاقتسموا أماكنهم فيها بطريق القرعة ، فكان من نصيب بعضهم الجزء الأعلى من السفينة ، وكان من نصيب الآخرين الجزء الأسفل منها ، وكان لابد لأهل السفل من الماء ، فكانوا يصعدون لأعلى السفينة ليستقوا الماء ، ولما كان ممرهم على أهل العلو فقد تأذوا بـهم ؛ إذ ربما أصابـهم شيء من رشاش الماء أوأُقلقوا وقت راحتهم أوغير ذلك ، فلما

(١) أخرجه البخاري ٢٤٩٣، و٢٦٨٦، بلفظ : «مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها.....» ، وأخرجه ابن حبان ١/ ٥٣٢-٥٣٤ رقم ٢٩٧ ، و٢٩٨ ، بلفظ : «المداهن في حدود الله والراكب حدود الله والآمر بـها والناهي عنها كمثل قوم استهموا.....» والترمذي في الفتن ٢١٧٣، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

رأى أهل السفل تأذي أهل العلو بـهم عزموا على أن ينقبوا في نصيبهم نقباً يحصلون منه على الماء دون الحاجة إلى إيذاء من فوقهم ، ولم يدر هؤلاء أن هذا الخرق الصغير سيؤدي - إن تُرك - إلى هلاك الجميع .

وفيه تشبيه لمن أخرب المجتمع بالفساد ، قال الرافعي : وهذا تمثيل لحالة طائفة في «الأسفل» ، تعمل لرحمة من هم في «الأعلى» ، شفقةً عليهم ، عاطفة شريفة ولكنها سافلة ، وحمية ملتهبة ولكنها باردة ، ورحمة مخلصة ولكنها مهلكة ، ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية والغفلة الفلسفية لأناس هم عند أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة .....

فكان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء اللذين يخوضون معنا البحر ويسمون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضروبا من الأوصاف ، كحرية الفكر والغيرة والإصلاح ، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وأدابنا بفأسه ، أي : بقلمه ..... ، زاعمًا أنه موضعه من الحياة الاجتماعية ، يصنع فيه ما يشاء ويتولاه كيف أراد ، موجها لحماقته وجوها من المعاذير والحجج .[١]

استهم القوم: أي: قرعوا ، استهم فلان : أي : عني بأمر قومه ، ويكون معنى (أصغر خرق) هو كما قال مصطفى صادق الرافعي : أوسع قبر .[٢]

---

(١) وحي القلم ٣/ ٦-١٠ .

(٢) وحي القلم ٣/ ٨ .

ووصف الرافعي كلامه ﷺ من الناحية البيانية بأنه : حسن المعرِض ، بيِّن الجملة، واضح التفصيل ، ظاهر الحدود ، جيد الرصف (الرصف : الشد والضم ، والمعنى أن كلامه ﷺ حسن التركيب ، قد ضُمَّ بعضه إلى بعض بحكمة وإتقان) ، متمكن المعنى ، واسع الحيلة في تصريفه ، بديع الإشارة ، غريب اللمحة ، ناصع البيان ، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهًا ، ولا ترى اضطرابًا ، ولا خطلاً (أي : المنطق الفاسد المضطرب) ، ولا استعانة من عجز ، ولا توسعًا من ضيق ، ولا ضعفًا في وجه من الوجوه .(١)

وقوله ﷺ في كتاب الشهادات : «فكان الذي في أسفلها يمرون»، وكذا ما جاء في بعض الروايات في كتاب الشركة «فكان الذي في أسفلها إذا استقوا مروا»، وفيه إشكال من حيث أن قوله : «الذي» مفرد ، فكيف قال في شأنه يمرون أومروا ، ولم يقل يمر أو مر؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأحد الأجوبة التالية :

الأول : أن يقال إن «الذي» يقع عند بعض العرب للواحد والجمع ؛ أي : يكون بمعنى : من وما ، فيعود الضمير إليه تارة بلفظ المفرد وتارة بلفظ الجمع ، قال القرطبي : قال ابن الشجري هبة الله بن علي : ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظ واحد ، كما قال الشاعر :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم = هم القوم كل القوم يا أم خالد .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ: ٣٢٥ .

وقيل : في قول الله تعالى : ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ [الزمر : ٣٣] ، إنه بهذه اللغة ، وكذلك قوله ﷺ : «مثلهم كمثل الذي» ، قيل : المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال : ذهب الله بنورهم ، فحمل أول الكلام على الواحد وآخره على الجمع . (١)

الثاني : أن يقال : إن الذي هنا مخففة من الذين ، وقد قال الزمخشري ما حاصله : أن الذي لكونه اسم موصول يحتاج إليه في وصف كل معرفة بجملة ويتكاثر وقوعه في كلامهم فإنه يقبل التخفيف ، فكذا يقبل جمعه (الذين) التخفيف، كما أن الياء والنون في «الذين»، ليستا كالياء والنون في جمع المذكر السالم في قوة الدلالة على الجمع ، لذا ساغ حذفها ولم يمتنع كما هو الحال في جمع المذكر السالم وأشباهه . (٢)

التشبيه التمثيلي ومثاله من الحديث

ويوجد التشبيه التمثيلي في قوله ﷺ : «مثل القائم على حدود الله ....»، وهو تشبيه معقول بمحسوس ؛ شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد ، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها ويفعل ما يشاء ، ولا ينهى عنه أهل الطبقة العليا .

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٢١١ .

(٢) الكشاف ١/ ١٩٦ .

ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد ؛ وهي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم ، وفي الحالة الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم في ما يجب عليهم ؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها ، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين ، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا ، فإن مجتمع المداهنين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم .

ومن أجله يكون هذا التشبيه هو من نوع التشبيه التمثيلي ، وذلك جريًا على اصطلاح جمهور البلاغيين الذين يرون أن التشبيه التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه منتزعًا من متعدد .[١]

ونورد هنا بعض الأمثلة من الحديث للتشبيه والتمثيل :

١- ما روي عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : ضَرَبَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدِيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا ، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ ، حَتَّىٰ تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ . وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ ، وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا ، قَالَ : فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ فِي جَيْبِهِ ، فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّعُ .[٢]

---

(١) الإيضاح للقزويني ٢/٢٧١-٢٧٣، ومعجم المصلحات البلاغية لأحمد مطلوب صـ: ٣٣٣ .

(٢) أخرجه البخاري ١٤٤٣، ومسلم ١٠٢١ .

شرح ألفاظ الحديث

قوله: « كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ »؛ « جُنَّتان » مثنى مفرده جُنَّة ، بضم الجيم بعده نون مشددة مفتوحة ، والجنة في الأصل : الدرع ، سميت بها لأنها تَجِنُّ صاحبها أي تحميه من الطعن ونحوه وتُحصِّنه ، وفي الرواية الأخرى «جُبتان» : بضم الجيم بعدها باء ، مثنى مفردة جُبَّة ، وهو ثوب مخصوص .

واختلف في أي الكلمتين أصح ؟ فقيل : «جُنتان» بالنون ، وهو اختيار القاضي عياض والقرطبي رحمهما الله ، وقال القاضي عياض : ومنه قوله ﷺ جنتان أوجبتان بالشك ، وصوابه جنتان بالنون بلا شك ، كما في الحديث الآخر بالنون بلا شك يقصد به حديث الباب والجنة الدرِع ، ويدل عليه في الحديث نفسه .[١]

وقال القرطبي: والجنة: ما يستجن به ، وكذا صحيح الرواية ، وقد روي : « جبتان» بالباء بواحدة ، وفيه بُعد في المعنى .[٢]

واستدلوا بقوله ﷺ في حديث «جنتان من حديد» ، والحديد يكون فيما يستجن به لا في الجبة .

وقيل : الأصح «جبتان» بالباء ، واختاره ابن حجر وقال : «جبتان» : بضم الجيم بعدها موحدة ، ومن رواه فيها بالنون فقد صحَّف .[٣]

---

(١) شرح مسلم ٧/ ١٥١ .

(٢) المفهم ٣/ ٦٦ .

(٣) الفتح ٣/ ٣٨٦

وذكر الحافظ ابن حجر : أن ذكر الحديد بعدها لا يمنع أن يكون الأصح بالباء «جبتان» لأن الجبة ثوب مخصوص ولا يمنع إطلاقه على الدرع .

قوله : «قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدِيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا» : ألزمت وضاقت باليدين إلى الثديين . و«ثُديِّهما» جمع ، مفرده ثدي ، والمثنى منه «ثدييهما» . و«تراقيهما» جمع تَرقوة ، بفتح التاء وضم القاف .

والترقوتان : عظمان مشرفان في أعلى الصدر إلى جهة النحر يقعان بين ثغرة النحر والعاتق .

قوله : «حَتَّىٰ تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ» : تغطي وتستر أصابعه ، «وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ» : تستر أثره واختلف في المعنى : فقيل : أي تتوسع حتى تستر وتغطي بدنه، وقيل : حتى تمحو و تستر خطاياه كما يغطي الثوب الذي يجر على الأرض أثر صاحبه إذا مشى بمرور الذيل عليه .

قوله: «قَلَصَتْ» : أي انقبضت . وقوله : «فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ فِي جَيْبِهِ ، فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّعُ» : ظاهر الحديث أن النبي ﷺ كان لابس قميص وكان في طوقه إلى جيبه ، واختلف في ثيابهم أين موضع الجيب فقيل في اليد ، وقيل في الصدر ، ورجحه ابن حجر وعلل ذلك ؛ بأنه لو كان الجيب في اليد لم تضطر يداه إلى ثدييه وتراقيه » . وذكر ابن حجر ما يدل على ذلك في الفتح . (١)

---

(١) الفتح ١٠/ ٣٢٩

قوله: «فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّعُ»؛ ظاهره أنه مدرج من كلام أبي هريرة ﷺ، والصواب أنه ليس من كلام أبي هريرة ﷺ، بل هو مرفوع كما جاء التصريح به في رواية مسلم، وجاء أيضًا التصريح بذلك عند البخاري في كتاب الجهاد بلفظ: «فسمع النبي ﷺ يقول: فيجتهد أن يوسعها ولا تتسع».

فقه الحديث

والحديث قد أوضح تفضيل المتصدق على البخيل، بضرب مثال جميل.

واختلف العلماء في المراد بالمثال الذي ضربه النبي ﷺ للمتصدق والبخيل: حيث قال القرطبي: وهذان المثالان للبخيل والمتصدق واقعان؛ لأن كل واحد منهما إنما يتصرف بما يجد من نفسه، فمن غلب الإعطاء والبذل عليه طاعت نفسه، وطابت بالإنفاق، وتوسعت فيه، ومن غلب عليه البخل، كان كلما خطر بباله إخراج شيء مما بيده شحت نفسه بذلك، فانقبضت يده للضيق الذي يجده في صدره، ولشحِّ نفسه الذي من وقيه، فقد أفلح كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وبنحو هذا قال الحافظ ابن حجر في الفتح.[١]

وقيل: المراد أن الله يستر المنفق في الدنيا والآخرة، بخلاف البخيل فإنه يفضحه، قاله المهلب.[٢]

---

(١) المفهم ٣/ ٦٦-٦٧.

(٢) فتح الباري ٣/ ٣٨٦.

وقيل : المراد تمثيل لنماء المال بالصدقة والإنفاق ، والبخل بضد ذلك .

وقيل: هو تمثيل لكثرة الجود والبخل وأن المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء وتعود على ذلك ، وإذا أمسك صار ذلك عادة له . (١)

وهنا يظهر التشبيه البليغ إذا سُلِّم رواية «الجبتان» بالباء ، وانظر عبارة الرافعي ! فما أحسن ما قاله في بلاغة هذا الحديث !

فقال : فأنت ترى ظاهر الحديث، ولكن فنه العجيب في هذا «الحديد» الذي يراه به طبيعة الخير والرحمة في الإنسان ، فهي من أشد الطبائع جمودا وصلابة واستعصاء ، متى اعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهواؤها ، ومع ذلك فإن السخاء بالمال يبسط منها وينتهي في الطبع إلى أن يجعلها لينة ، فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير في النفس الكريمة، فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة في الصراع ونحوه .

أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر ، وقد جعل الجبة من الثدي إلى التراقي ، وهذا من أبدع ما في الحديث ، لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته ، يستوي في ذلك الكريم والبخيل ، فهما على قدر سواء من هذه الناحية ، وإنما التفاوت في ما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فههنا يبسط الكريم بسطه الإنساني ، أما البخيل فهو يريد ، لأنه إنسان ، والإرادة عمل عقلي لا أكثر ، فإذا حاول تحقيق

---

(١) شرح مسلم ٧/ ١٥٢-١٥٣ .

هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها ، فهي مستعصية متماسكة ، فهو يوسعها فلا تتسع .

ألا ترى كيف تتوجه الحجة ، وكيف تدق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه، وهل تحسب طبيعة البخيل في دقائقها النفسية لو هي نطقت بالغة من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وإبداعه ؟ وهو بعدُ وصف ، لو نقل إلى كل لغات الأرض لزانها جميعا ، ولكان في جميعها كالإنسان نفسه : لا يختلف تركيبه ، فلن يكون بثلاثة أعين ، لا في بلاد شكسبير ولا في بلاد الزنوج .

إن كلام النبي ﷺ يجب أن يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه حينئذٍ كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستراه في شرحه الفلسفي كالأزهار الناضرة : حياتها بشاشتها في النور ؛ وتعرفه إنسانية قائمة تصحح بها أغلاط الزمن في أهله ، وأغلاط الناس في زمنهم ؛ وتجده يرف على البشرية المسكينة بحنان كحنان الأم على أطفالها ، والناس الآن كالأطفال غابت أمهم ، فهم في تنافر صبياني ، وما الأم بطبيعتها إلا الميزان لاستبدادهم ، والحكمة لطيشهم ، والائتلاف لتنافرهم ، والنظام لعبثهم ؛ وبالجملة فحنان قلبها الكبير هو القانون لكل هذه القلوب الصغيرة !

فإذا تدبرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النبي ﷺ على ما بينا وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذي نعيش فيه ، نظرت إلى ألفاظه ومعانيه ؛

..... لم ترى مذهبا عن الإقرار بأنه كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح ، فهو أعظم أديب وبليغ ! عليه صلوات الله وسلامه ، و رضوانه .[(١)]

٢- حديث سهل بن سعد رضي الله عنه : « إنما الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية».[(٢)]

ثم هذا خير مثل لتشبيه مرسل مفصل صريح ، حيث ذكر فيه المشبه والمشبه به كلاهما مع أداة التشبيه ووجه الشبه ، فشبه مساواة الناس بمساواة أسنان المشط ، ووجه الشبه هو المساواة ، ومن المعروف أن كل سن من أسنان المشط متساو بعضها بعضا بشكل دقيق نظرًا ، لأنه لو كان ارتفع رأس بعضها أوانتقص شيئًا ؛ لتسبب لضرر من يستعمله . ووجه الشبه في المشبه به ههنا أقوى وأظهر .

وقد ميز العلامة الجاحظ هذا التشبيهَ النبوي على الشاعرين الذين شبَّها الناس بأسنان الحمار :[(٣)]

الأول : سواء كأسنان الحمار كما ترى = لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا

والثاني : شبابهم و شيبهم سواء = فهم في اللون أسنان الحمار

---

(١) وحي القلم ٣/ ١٤-١٦.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في «مسنده» ١٦٨، والأصبهاني في «أمثال الحديث» ٤٩، والدولابي في «الكنى والأسماء» ٩٤٩، كلهم بأسانيدهم من طريق بكار بن شعيب عن ابن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعًا ، قال الإمام السيوطي : بكار ضعيف ، وقد توبع .

(٣) تصوير البلاغة النبوية صـ: ١١، والبيان والتبيين ٢/ ٣٠ .

فأسنان الحمار ليست كأسنان المشط متساوة ، بل أسنان الحمار تختلف أشكالها باختلاف الأماكن والعمليات ، في حين أن أسنان المشط لا تختلف نظرًا ، لأن عملياتها واحدة ، وهي تمشيط شعر الرأس .

٣- ماروي عن المستورد بن شداد ﷺ قال النبي ﷺ :« والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعَه في اليمِّ ، فلينظر بم يرجعُ » . [(١)]

يعني: أن الدُّنيا لا تُساوي شيئًا إذا وُضِعَت على سبيل المُقارنةِ بالآخرة ؛ فهيَ دارُ عمل واختِبار ، يَعيشُ فيها الإنسانُ مَرحلةَ ذلك الاختِبار ، وليست عُمرَه الحَقيقيَّ ، فذاك في الآخرة .

وفي هذا الحَديثِ يُقسِمُ النَّبيُّ ﷺ باللهِ أنَّ مَثَل الدُّنيا في جَنبِ الآخرَة ، والنَّظرِ إليها مَثَلُ ما يَجعلُ أحدُ الناس إِصبعَه في البحر ، فلْيَنْظرْ بِمَ يَرجعُ ، ومعناه : لا يَعلَقُ بإصبَعِه كثيرُ شيءٍ من الماء ، ومعنى الحديث : ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرَة في قِصَرِ مُدَّتها وفَناءِ لذَّاتها ، ودوام الآخرة ، ودوام لذَّاتِها ونعيمها ، إلَّا كنِسبةِ الماءِ الذي يَعلَقُ بالإصبَع إلى باقي البَحر .

ويثبت بالحديث تَحقيرُ الدنيا وشأْنِها ، وتَوضيحُ المَعاني بتَقريبِها لمِثال في الواقع ، ويقصد إلى إزاحة غشاوة الغفلة عن الآخرة لما اعتاده الإنسان من هفهفة الدنيا وتَوَافِه الأمور ، لقصد التصوير الذي يجعل السامع مستحضرًا لتلك الحالة بأن يستحضر تلك الصورة شاهدة لديه . [(٢)]

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٥٨، والترمذي ٢٣٢٣، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي صـ:٧٥

٤- ما روي عن خباب بن الأرت ﷺ : شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا : ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا ؟ فقالَ ﷺ : «قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ ، فيُجْعَلُ فيها ، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» .[(١)]

هذا تشبيه تمثيلي يضرب للرجال الذي يبلغون في الإيمان مبلغ القوة وقِمَّتَه ، الذي لا يشوبه باطل وفاسد ولا مخمصة الخرافات ووسوسة الشياطين .

وهذا هو في الظاهر تصوير وتمثيل، ولكن له باطنا أعجب من ظاهره وهو البيان حق البيان والبلاغة كل البلاغة ، فإنما يريد ﷺ أن الحديد لا يأكل ويمزع من أولائك الأقوياء بإيمانهم عظمًا ولحمًا وعصبًا ، بل هو حديد يقابل حديدًا أشد منه ، فإن للروح المؤمنة المسلطة على جسمها قوة تصنع هذه المعجرة ، فيمر الحديد في اللحم والعظم والعصب ، يسلبها الحياة ولكنها تسبله شدته وجلده وصبره ، فانظر يا هذا ! فإنه لو جمعت قوى الكون فجائت يشد بعضها بعضًا ، فنزَلتْ في عبارة من الكلام ، لتملأ نفوس المؤمنين بقوتها ؛ لما وضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المنشار في عظم الإنسان الحي ولحمه . (وحي القلم ٣/ ١٨-٢٢)

---

(١) أخرجه البخاري ٦٩٤٣، و٣٦١٢ ، وأبو داود ٢٦٤٩، والنسائي ٥٣٢٠، وأحمد ٢١٠٥٧ .

وفي الحديث علامةٌ من علامات النبوَّة ، حيث وقع ما أخبر به النبيُّ ﷺ مِن تمامِ الدِّينِ ، وانتشارِ الأمْنِ ، وإنجازِ الله ما وعَدَ نبيَّه ﷺ مِن ذلك .

٥- وكذا ما روي عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : «من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ ، ومن كانتِ الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ وفرَّقَ عليهِ شملَهُ ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لَهُ» . (١)

ولو أدرك الناس معنى قوله هذا ، لعلم سر كلامه ﷺ - إني على علم من الله ، ولو كان للناس كنز بالمشرق وكنز بالمغرب ؛ لما بلغ بهما لذة معنى هذا الحديث المبارك ! ولو ألقي كلّ ألفاظٍ لتشريحه ، لعجز عن أدائه !! فإن مثل هذا لا يدرك إلا من له قلب سليم، أو ألقى السمع وهو بصير .

فانظر كيف يبين النبي ﷺ أصول المعاشرة والعبادة بقوله ! أي : الاشتغالُ بالآخرة سببُ السَّعادة والفوزِ بنَعيم الله ﷻ، ولا يَنقُص من الرزق شيئا ، والاشتِغالُ بالدنيا يُورِثُ الهموم ويفرِّق الشَّملَ ولا يَزيد من الرزق شيئا .

يقولُ النبي ﷺ : «مَن كانَتِ الآخِرةُ همَّه»، أي: أهَمَّ ما يَشغَلُه وكانتْ هي قَصْدَه في عمله وحياته في الدنيا ، «جعَل اللهُ غِناه في قلبِه» ، أي : رزَقه الكِفايةَ وقنَّعه بما في يده فيكونُ مُستغنيا بالله ﷻ عن الناس ولا يَطمَعُ في أحد ، فتراه

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٦٥، وهذا الحديث لم يحكم عليه الترمذي بشيء من الصحة والضعف ، وفي سنده يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف على ما قال الحافظ في «التقريب» ، وقال المنذري في «الترغيب» بعد ذكر هذا الحديث : ويزيد قد وثق ، ولا بأس به في المتابعات .

يكون على ثوب ولقيمات ونحوها مما لا خطر له ، وهذا هو إرغامه ، وهو مالك الملوك ، ذو الجلال والإكرام .

«وجمَع له شَمْلَه» ، أي : وكانَت أمورُه المتفرِّقةُ مُجتمِعةً بإذنِ اللهِ ، ويسَّر له كلَّ شيءٍ ، «وأتَتْه الدُّنيا وهي راغِمةٌ» ، أي : وتأتيه الدنيا وهي ذليلة ؛ لأنَّه لم يتَطلَّعْ إليها ، «ومَن كانت الدُّنيا همَّه» ، أي : كانت قصْدَه وشُغلَه ، وكان غرَضُه منها اتباعَ الشهوات ، «جعَل اللهُ فقْرَه» ، أي : جعَل اللهُ احتياجَه ، «بينَ عينَيْه» أي : أمامَه ولو كان مِن الأغنياءِ ، «وفرَّق عليه شَمْلَه» ، أي : شتَّت عليه أمرَه فتتشعَّبُ عليه أمورُ الدنيا ، «ولم يأتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما قُدِّر له» ، أي : لم يُحصِّلْ مِنْها رغمَ هذا السعيِ فيها إلا ما قد كتَبه اللهُ له تبارك وتعالى .[1]

٦- ومنه حديث أنس ﷺ مرفوعا : «مَثَلُ المُؤمِنِ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها طيِّبٌ ، ومَثَلُ المُؤمِنِ الَّذي لا يقرَأُ القُرآنَ كمثَلِ التَّمرةِ ؛ طَعْمُها طيِّبٌ ولا رِيحَ لها ، ومثَلُ الفاجرِ الَّذي يقرَأُ القُرآنَ كمثَلِ الرَّيحانةِ ؛ رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها مُرٌّ ، ومثَلُ الفاجرِ الَّذي لا يقرَأُ القُرآنَ كمثَلِ الحَنْظلةِ ؛ طَعْمُها مُرٌّ ، ولا رِيحَ لها ، ومثَلُ الجليسِ الصَّالحِ كمثَلِ صاحبِ المِسْكِ ؛ إنْ لم يُصِبْكَ منه شيءٌ ، أصابكَ مِن رِيحِهِ ، ومثَلُ جَليسِ السّوْءِ كمثَلِ صاحبِ الكِيرِ ؛ إنْ لم يُصِبْكَ مِن سَوَادِهِ أصابكَ مِن دُخَانِهِ» .[2]

---

(١) وحي القلم ٢٨/٣ .

(٢) أخرجه أبو داود ٤٨٢٩، واللفظ له ، وفيه كلام أنس ﷺ «ومثَلُ الجليسِ الصَّالحِ كمثَلِ صاحبِ المِسْكِ ...إلخ» ، ولكن أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه، وليس فيه كلام أنس ﷺ هذا ، وقال الترمذي بعد تخريجه : هذا حديث حسن صحيح .

وذُكِرَ التشبيه في الحديث في خمسة مواضع :

١- مَثَلُ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ وَيَعمَلُ به كالأُتْرُجَّة ، وهو ثمر معروف يقال له تُرُنْجٌ ، جامع لطِيبِ الطعْم والرائحة وحسْن اللون ، ومَنافعُه كثيرةٌ . ووجه الشبه طيب الباطن والظاهر في كليهما . ثم الحموضة في الأترجة لا تنافي في طيبتها ، لأن الطيب من الثمار ما هو حلو وما هو ملح وما حموض وغير ذلك .

٢- والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيِّب ، ولا ريح لها ، ووجه الشبه هو طيب الباطن ولا الظاهر .

٣- ومثل الفاجر، أي : الفاسق المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الرَّيْحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ووجه الشبه كريه الباطن وطيب الظاهر .

٤- ومثل الفاجر ، أي : المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلةِ طعمها مر ، ولا ريح لها ، ووجه الشبه كريه الباطن والظاهر .

فهذا تشبيه مرسل لذكر أداة الشبه وهو مثل ، ومجمل لعدم ذكر وجه الشبه ، أما قوله «رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها طيِّبٌ.....» ومثله ليس بوجه الشبه ، إنما هو صفة للمشبه به . (١)

٥- ومثَلُ الجليسِ الصَّالحِ كمثَلِ صاحبِ المِسْكِ ؛ إنْ لم يُصِبْكَ منه شيءٌ ، أصابكَ مِن رِيحِهِ ، ومثَلُ جَليسِ السّوْءِ كمثَلِ صاحبِ الكِيرِ ؛ إنْ لم يُصِبْكَ مِن سَوَادِهِ أصابكَ مِن دُخَانِهِ .

(١) روائع من أقوال الرسول صـ: ٩٨

وهذا تشبيه مرسل لذكر أداة التشبيه ، ومجمل لعدم ذكر وجه الشبه ، فإن وجه الشبه هنا حصول التأثير في كل منهما . وأما قوله «وهو إنْ لم يُصِبْكَ منه شيءٌ ، أصابكَ مِن رِيحِهِ ، وإنْ لم يُصِبْكَ مِن سَوَادِهِ أصابكَ مِن دُخَانِهِ»، ليس هو وجه الشبه ، بل هو صفة المشبه به .

فائدة الحديث: أنه يثبت فَضيلةَ حامِلِ القُرآنِ وقارئه وتاليه والمتبع بأحكامه .

٧- ومنه حديث : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ! ما لك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه .[(١)]

قوله ﷺ : «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه» أي : تخرج ، و«أقتاب البطن» المقصود بها : الأمعاء ، وهي جمع قِتْب ، فتخرج أمعاؤه . «فيدور بها» أي : بأمعائه ، «كما يدور الحمار في الرحى» ، والرحى هو الحجر الكبير الذي يطحن به الحب ، ويربط بحمار ، ويطرح هذا الحجر على حجرٍ آخرَ أملس فيوضع الحب في نحو حوض أوما أشبه ذلك ، فيدور هذا الحجر الكبير الذي يجره الحمار حتى يطحن هذا الحب ، كما يدور الحمار في الرحى ، فيدور على أمعائه ، وتكون هذه الأقتاب قد خرجت من البطن ، والقِتب منها مما يتصل به ، كأنه ذلك الحبل الذي ربط بالحمار ، فيدور

---

(١) أخرجه البخاري ٣٢٦٧، ٧٠٩٨، ومسلم ٢٩٨٩، والسياق له .

بالرحى بهذه الصورة البشعة ، «فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ! ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟» وهذه النار التي يجتمع أهلها ربما تكون هي نار الموحدين ، أي : من المسلمين ، فهم يعرفون هذا الإنسان كان آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ، ويحثهم على طاعة الله ، فكانوا يظنون أنه من الناجين لما يرون من حسن مقاله ودعوته إلى الخير ، فلما رأوا حاله بهذه البشاعة سألوه وقالوا له : ما الذي أوردك هذه الموارد ؟ «ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه» .

قوله ﷺ : «فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى» ، هذا تشبيه مرسل لذكر أداة التشبيه ، وهو الكاف ، ومجمل لعدم ذكر وجه الشبه ، أي : بجامع الحركة الذليلة في الكل ، وكأن اختيار الحمار في التشبيه دون غيره مما يدور في الرحى إمعانا بتصوير المهانة والمذلة والجهل ، كما ورد في القرآن الكريم ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل حمار يحمل أسفارًا﴾ . [الجمعة ٥] [1].

---

(١) روائع من أقوال الرسول صـ:١٦٧ .



المبحث الثاني

الاستعارة

الاستعارة لغة واصطلاحا

والاستعارة في اللغة رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، كأن يُقال: استعرتُ من فلان شيئًا، أي حوّلتُه من يده إلى يدي.

واصطلاحًا: فقد عرّفها كثير من الأدباء والبلغاء، كالجاحظ والجرجاني وكلّ أقوالهم في ما يتعلّق فيها تتلخّص في أنّها استعمال كلمة، أومعنى لغير ما وُضِعت به، أوجاءت له لشبه بينهما؛ بهدف التوسُّع في الفكرة، أوهي تشبيه حُذِف أحدُ أركانه.

والاستعارة نوع من المَجاز اللغويّ، وهذا النوع فيه مشابهة بين المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي.[1]

أنواع الاستعارة

ويظهر من تعريفها أن لها قسمين:

١- **استعارة تصريحية:** وهي الاستعارة التي حُذِفَ فيها المشبه (وهو الركن الأول) وصرح بالمشبه به.

مثالها: رأيت أسدًا يحارب في المعركة، وأصل الجملة هو: الجندي كالأسد؛ ولكننا حذفنا المشبه وصرحنا بالمشبه به، فسميت استعارة تصريحية.

---

(١) سر الفصاحة للخفاجي صـ:١٢، ومرجع الطلاب في الإنشاء صـ: ٧٠.

مثالها من الحديث : ومن أمثلة الاستعارة في الحديث : ما روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ : أَنَّ النبيَّ ﷺ جَلَسَ ذَاتَ يَومٍ عَلَى المِنْبَرِ وجَلَسْنَا حَوْلَهُ ، فَقَالَ : «إِنِّي ممَّا أَخَافُ علَيْكُم مِن بَعْدِي ، ما يُفْتَحُ علَيْكُم مِن زَهْرَةِ الدُّنْيَا وزِينَتِهَا» فَقَالَ رَجُلٌ : يا رَسولَ اللَّهِ ! أوَ يَأْتي الخَيْرُ بالشَّرِّ ؟ فَسَكَتَ النبيُّ ﷺ ، فقِيلَ له : ما شَأْنُكَ ؟ تُكَلِّمُ النبيَّ ﷺ ولَا يُكَلِّمُكَ ؟ فَرَأَيْنَا أنَّه يُنْزَلُ عليه ؟ قَالَ : فَمَسَحَ عنْه الرُّحَضَاءَ ، فَقَالَ : «أيْنَ السَّائِلُ ؟» وكَأنَّهُ حَمِدَهُ ، فَقَالَ : «إنَّه لا يَأْتي الخَيْرُ بالشَّرِّ ، وإنَّ ممَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أوْ يُلِمُّ ، إلَّا آكِلَةَ الخَضْرَاءِ ، أكَلَتْ حتَّى إذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا ، اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ ، فَثَلَطَتْ وبَالَتْ ، ورَتَعَتْ ، وإنَّ هذا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ ما أعْطَى منه المِسْكِينَ واليَتِيمَ وابْنَ السَّبِيلِ أوْكما قَالَ النبيُّ ﷺ وإنَّه مَن يَأْخُذُهُ بغيرِ حَقِّهِ ، كَالَّذِي يَأْكُلُ ولَا يَشْبَعُ ، ويَكونُ شَهِيدًا عليه يَومَ القِيَامَةِ .[١]

شرح الحديث

يُبيِّنُ النبي ﷺ أنه يخاف على أمَّته من حسْن الدنيا وجمالها ، فيسأله رجل : أو يأتي الخيرُ بالشر ؟ فنزَل الوحيُ على رسول الله ﷺ ، فمسَح عنه الرُّحَضَاءَ ، أي : العَرَقَ ، ثم أجابه أن الخير لا يأتي بالشر ، ولينظر الإنسان إلى آكِلَةِ الخَضِرِ ويَعتبرْ شأنها ؛ فإن مما يُنبِتُ الربيعُ ما يقتُلُ آكِلَه ، إلا آكِلةَ الخضر والخضرُ ليس من أحرار البقول التي تستكثِرُ منه الماشيةُ فتُهلِكُه أكلا ، ولكنه مِن الجَنْبةِ التي ترعى الماشيةُ منها بعد هَيجِ العُشبِ ويُبسِه ، وأكثرُ ما تقول

(١) أخرجه البخاري ١٤٦٥، ٢٨٤٢، ومسلم ١٠٥٢ .

العربُ : الخَضِر لِمَا اخضرَّ مِن الكلأ الَّذي لم يصفَرَّ ، والماشية من الإبل ترتعُ (ترعى) منها شيئًا فشيئًا ، فلا تستكثِرُ منه ، فلا تحبَطُ بطونها عليه ، حتى إذا امتلأتْ شِبعًا وعظُم جَنْباها ، استقبلَتِ الشَّمسَ؛ لأنه الحينُ الذي تَشتهي فيه الشَّمسَ ، وجاءتْ وذهبتْ ، ثم يخرج رَجيعُها عفوا من غير مشقَّةٍ ؛ لاسترخاءِ ذاتِ بطنها ، فيبقى نفعُها ، ويخرج فضولُها ، ولا يَتأذَّى بها .

وإن هذا المال خَضِرةٌ حُلوةٌ ، أي : شيء محبوب مرغوب ترغَبُه النفسُ ، وتحرِصُ عليه بطبيعتها، كما تحب الفاكهةَ النَّضرةَ الشَّهيّةَ المنظرِ، الحُلوةَ المذاقِ ومن أُعطِيَه فأخرَج منه زكاةَ ماله على المسكين واليتيم وابن السبيل ، فهو نِعم الصاحبُ الذي يشهدُ له يوم القيامة ، وأما من أخَذه بدون طِيب نفس وبغير حقه، فإن الله ينزِعُ منه البركةَ ، ويسلُبُ صاحبَه القناعةَ ، فيُصبِح فقيرَ النفس دائمًا ، ولو أُعطي كنوزَ الأرض . وكان كالذي يأكُلُ ولا يشبَعُ ؛ فهو كالملهوف الذي لا يشبع من الطعام ، مهما يأكل منه ، ويأتي شاهدًا عليه يوم القيامة .

البلاغة في الحديث

ثم بالتأمل فيه يستخرج وجوها بلاغية ، مثل :

١- تأكيد الموضوع بثلاثة أشياء : (١) بتكرير النفي «ما» و«لا» . (٢) وبالقسم . (٣) وبالحصر «لا أخشى عليكم إلا.....» .

٢- «من زهرة الدنيا» في هذا الاستعمال استعارة أصلية ، إذ استعير لفظ الزهرة لمختلف أنواع المال ، والأصل فيها تشبيه الأموال بالزهرة بجامع المظاهر الخلابة ، وسرعة الفناء والزوال .

والغرض تخفيف زيادة الولوع بها والتعلق بأسبابها ، عن طريق تصوير حقيقتها بصورة الزهرة التي هي أقصر ما ينبت الربيع عمرًا ، وأقصره ذيولا وفناء ، وفيه أيضا مجاز بالحذف ؛ إذ الأصل من زهرة الحياة «الدنيا» ، فحذف الموصوف (الدنيا) للعلم به ، وأقيمت الصفة (الزهرة) مقامه .[١]

فائدة الحديث

وفيه : أنه ينبغي للعالم تحذير من يُجالسُه من فتنة المال وغيره ، وتنبيهُه على مواضع الخوف من الافتتان به ، والحض على الاقتصاد في المال ، والحث على الصدقة من تلك الأموال وترك الإمساك وترغيب القناعة وترك الحب للدنيا ، ومسحُ العرَقِ للشِّدَّةِ الحاصلة ، وغير ذلك من الفوائد .

الاستعارة التمثيلية

وهو أيضًا قسم من الاستعارة التصريحية ، أصلها تشبيه تمثيلي حُذِفَ منه المشبه وهو (الحالة والهيئة الحاضرة)، وصرح بالمشبه به وهو (الحالة والهيئة السابقة) ، مع المحافظة على كلماتها وشكلها ، وتكثر غالبًا في الأمثال عندما تشبِّه الموقف الجديد بالموقف الذي قيلت فيه .

مثالها : لكل جواد كبوة ، وكذا : رجع بِخُفَّي حنين ، وكذا : سبق السيف العذل ، وغيرها من الأمثلة .

مثالها من الحديث

كانَ النبيُّ ﷺ في مَسِيرٍ له ، فَحَدَا الحَادِي ، فَقالَ النبيُّ ﷺ : ارْفُقْ يا

---

(١) روائع من أقوال الرسول صـ:٤٥ .

أَنْجَشَةُ ! ويْحَكَ ، بالقَوَارِيرِ !! [(١)]

شرح الحديث

كان النبي ﷺ في سفرٍ ، وكان غلامٌ يَحدُو بِهِنَّ أي : بالنساء ، يُقال له أَنْجَشَةُ ، والحَدْوُ : سَوْقُ الإبل والغِناءُ لها ، فقال النبي ﷺ : «رُوَيْدَكَ» ، أي : أَمْهِل يا أَنْجَشَةُ ! «سَوْقَك بالقَوَارِيرِ» ، أي: ضَعَفَةِ النساء . والقَوَارِيرُ : جمعُ قارورة ، سُمِّيت بذلك لاستقرارِ الشرابِ فيها ، وكَنَى عن النساء بالقوارير (مِن الزُّجَاج) ، وشبَّهن به ؛ لِضَعْف بِنْيَتِهن ورقتهن ولَطافتِهن ، وهو قلما يسلم إلا بشدة الصيانة والمراعاة .

وفي الحديث : الحداءُ والترنُّمُ بالأرجاز في مواضعها ؛ من سوق الإبل ، وقَطْعُ الأسفار ، وإنشاد الرقيق من الشِّعر بالأصوات الحسَنة . وفيه : رحمةُ النبي ﷺ للنساء ، وأمْرُ السُّوَّاق لمطاياهنَّ بالرفق بهن . [(٢)]

فتشبيه النساء بالقوارير يستحضر أمام القاري رقتهن ولطافتهن بأحلى أسلوب وأوضح بيان ، لا تكاد تجده في أي كلام وأي أسلوب ! فصلى الله تعالى عليه وبارك وسلم تسليمًا كثيرًا .

٢- استعارة مكنية ، وهو القسم الثاني من الاستعارة

وهي الاستعارة التي حُذِفَ فيها المشبه به (وهو الركن الثاني) وبقيت صفة من صفاته ترمز إليه .

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٠٩، ومسلم ٢٣٢٣ .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية صـ: ٣٣٠-٣٣١ .

مثالها : حدثني التاريخ عن أمجاد أمتي فشعرت بالفخر والاعتزاز . المحذوف فيه المشبه به ، فالأصل : التاريخ يتحدث كالإنسان ، ولكن لم يذكر (الإنسان) ، وإنما ذكر في الكلام ما يدل عليه وهو قوله : «حدثني»، فالدليل على أنها استعارة أن التاريخ لا يتكلم .

وكذا: «طار الخبر في المدينة» ، استعارة مكنية ، فلقد صور الخبر بطائر يطير ، وحذف الطائر وأتي بصفة من صفاته (طار) ، فالدليل على أنها استعارة أن الخبر لا يطير .

مثالها من الحديث

قوله ﷺ : «مثل القائم على حدود الله» ، وقد مر تخريجه وشرحه ، وهي استعارة مكنية ، شبهت فيها المعاصي بوهدة (الأرض المنخفضة) من الأرض محدودة بحدود وحولها رجال يحرسونـها ، ويمنعون الناس من الوقوع فيها ، ثم حذف المشبه به وأتى بلازمه ، وهي الحدود .

الفرق بين التشبيه والاستعارة

والفرق بينهما : أن الاستعارة هي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه . وأما التشبيه فلابد فيه من ذكر الطرفين الأساسين وهما : المشبه والمشبه به ، فإذا حذف أحد الركنين لا يعد تشبيهًا بل يصبح استعارة ، وأما أداة التشبيه «مثل» و«نحو» و«ك» وغيرهما فيه، ووجه الشبه ؛ فيمكن ذكرهما أوحذفهما أو ذكر أحدهما وحذف الآخر .[١]

---

(١) ولمزيد التفصيل أنظر دلائل الإعجاز للعلامة الجرجاني صـ:٤٢١-٤٦٨ .



المبحث الثالث

الكناية

الكناية لغةً واصطلاحًا

والكناية في اللغة : كَنَى يَكْنِي عن كذا، تكلم بما يُستَدَلُّ به عليه ، وهو التكلم بما يريد به خلاف الظاهر .

أما الكناية في الاصطلاح : فهي تعبيرٌ لا يقصد منه المعنى الحقيقي ، وإنما يُقصد به معنى ملازم للمعنى الحقيقي .

ويمكن تعريفها أيضًا بأنها تعبيرٌ تم استعماله في غير معناه الأصلي الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته .

يعنى به : أنه لفظ يعتمد على معنيين ، أحدهما : ظاهر غير مقصود ، والآخر مخفي وهو المقصود ، بمعنى أن تدل كلمة أوجملة على شيءٍ معينٍ بشكلٍ مباشرٍ ولكنها تخفي شيئًا غيره بشكلٍ غير مباشرٍ .

مثالها : وقف مرفوع الرأس : ويأتي المعنى الظاهر لهذه الجملة بأنه رفع رأسه إلى أقصى ارتفاع ، بينما يدل المعنى الخفي لها على الفخر والاعتزاز .

وكذا قوله تعالى : ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ [سورة الفرقان ٢٧] ، نجد أن المعنى الظاهر في هذه الآية هو عض الأيدي ، ولكن المعنى الخفي هو الشعور بالندم الشديد .

وتزداد بالكناية القوة في المعنى ، وذلك لأنها تمثل دعوى مع بينة ،

بمعنى إذا قلت : إن فلانا شجاع وسُئلت عن الدليل ، ستقول بدليل مواقفه ، وفي الكناية توضح الصفة وسببها معًا .

مثالها من الحديث

من أمثلة الكناية ما ذكره الرافعي : قوله ﷺ لأسامة بن زيد : «أخاف أن تصف حجم عظامها» ، حين كساه قُبْطِيةً فكساها إمرأته .[١]

والقبطية بضم القاف ، ثوبٌ من ثياب مصر رقيقة بيضاء ، وضموا قافه فرقا بين ما ينسب إلى القبط من غير الثياب .

وهذا الحديث يدل على النهي عن لبس الثياب الضيقة التي تصف الأعضاء ، ومن المعلوم أن هذا النهي عام فيما يلبس داخل البيت أمام غير الزوج ، وخارجه ، وأما خارجه فأشد .

قال : قال الشريف الرضي في هذه الكلمة : وهذه استعارة ، والمراد أن القبطية برقتها تلصق بالجسم ، فتبين حجم الثديين ، والرادفين ، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين ، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء حتى تكون كالظاهرة للحظه ، والممكنة للمسه ، فجعلها ﷺ لهذه المحال كالواصفة لما خلفها ، والمخبرة عما استترها ، وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله «إياكم ولبس القباطي ، فإنها

---

(١) أخرجه الضياء في «المختارة» ١٤٩/٤ رقم ١٣٦٥، وأحمد ٢١٧٨٦، و٢١٧٨٨، والبيهقي في «الكبير» ٢/ ٢٣٤ رقم ٣٣١٣، والطبراني في «الكبير» ١/ ١٦٠ رقم ٣٧٦، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٣٧) : وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل ، وحديثه حسن ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات .

إلا تشف تصف» ، (أي : إن لم تشف ولكنها تصف الأعضاء) فكان رسول الله ﷺ أبا عذرة هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك فجه .

قال : قلنا : وهذا كلام حسن ، ولكن في عبارة الحديث سرا هو من معجزات البلاغة النبوية ، لم يهتد إليه الشريف ، على أنه هو حقيقة الفن ، في هذه الكلمة بخاصتها ولا نظن أن بليغا من بلغاء العالم يتأتى لمثله ، فإنه ﷺ لم يقل : «أخاف أن تصف حجم أعضائها» ، بل قال ﷺ : «حجم عظامها» مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب .

إذ ذكر أعضاء المرأة في هذا السياق ، وبهذا المعرض ، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث ، ولفظة «الأعضاء» تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضي في شرحه ، وهي تومئ إلى صور أخرى من ورائها فتنزه النبي ﷺ عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة، وجاء بكلمة «العظام» .

وذلك لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزعة ، لا تقبل أن تلتوي ، ولا تثير معنى ، ولا تحمل غرضًا ؛ أذ تكون في الحي والميت ؛ بل هي بهذا أخص ، وفي الجميل والقبيح ؛ بل هي هنا أليق ، وفي الشباب والهرم ، بل هي في هذا أوضح . والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام ، فالمجاز على ما ترى ، والحقيقة هي ما علمت .[١]

(١) وحي القلم ٣/ ٢٢- ٢٣ .

الفرق بين الاستعارة والكناية

١- أن كلاهما خلاف المعنى الظاهر ، ولكن لا تجوز بالاستعارة إرادة المعنى الحقيقي . وأما الكناية فيكون المعنى المراد فيها لازم المعنى الحقيقي ، وتجوز إرادته .

٢- ومن الفرق في أن الاستعارة يكون بها قرينة (لفظ) تمنع وجود المعنى الحقيقي ، ولكن الكناية لا يوجد بها ما يمنع وجود المعنى الحقيقي .

مثاله : رأيت أسدًا يحكي بطولاته ، هذه استعارة ، لأنه توجد قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي ؛ لأنه لا يوجد أسد يحكي أويتكلم .

وكذا يقال في مثاله : احمرت وجنتاها ، فهذه كناية عن الخجل ، لأنه لا توجد قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي ؛ فإنه قد يكون خجلا وهو محمرٌّ وجهه من أثر فعله . [١]

وكذا : فلان يده طويلة، وهذه كناية ، لأنه لا يوجد ما يمنع إرادة المعني الحقيقي ، فقد يكون الشخص طويل اليد بالفعل ، ولكن يجوز إرادة المعنى الخيالي الذي يختفي خلف المعنى الحقيقي وهو أنه لص ، هذا عند بعض . ويقول بعض : هي كناية عن كرم الرجل وسخاوته . [٢]

من أمثلة الكناية في الحديث

وعن أبي أمامة ﵁ عن النبي ﷺ قال : «من مسح رأس يتيم أويتيمة لم

---

(١) سر الفصاحة صـ:١٢ .

(٢) علم البيان للدكتور طراف صـ: ٨٣، ومرجع الطلاب في الإنشاء صـ: ٧٥ .

يمسحه إلا لله ، كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات ، ومن أحسن إلى يتيمة أويتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين ، وقرن بين إصبعيه» .[١]

قوله ﷺ : «من مسح رأس يتيم» كناية عن الشفق والتلطف إليه ، لأن مسح الرأس تنبأ عن الرحمة ، وهي المقصود ، ثم إذ أنها لا تنافي لإرادة المعنى الحقيقي ، لإمكان المعنى الظاهر مع الكناية ، وهو مسح الرأس ، والقرينة عليه قوله ﷺ «بكل شعرة تمر عليها يده» ، فكلا المعنى من التلطف والمسح الحقيقي في الحديث ممكن بين . ومع هذا كله فقد تمنع إرادة المعنى الحقيقي لخصوص الموضوع ، كقوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» . [طه ٥] .[٢]

وهذا التعبير أبلغ من الصراحة وأوقع في الذهن ، وآثر على القلب وآكد للموضوع ويندر مثل التصوير والبلاغة في كلام الفصحاء سوى النبي ﷺ .

ومنه قوله ﷺ : روي عن أسماء بنت يزيد أم سلمة الأنصارية رضي الله عنها : قال النبي ﷺ : مَن ذَبَّ عَن لَحْمِ أَخِيهِ بِالمَغِيبةِ ، كان حقًّا على اللهِ أَنْ يُعْتِقَه من النارِ .[٣]

قال العلامة الزمخشري : إنه جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان ، ولم يقتصر ، بل جعلها كأكل لحم أخيه ، لأنه أشد نفارًا من لحم الأجانب ، وزاد في

---

(١) أخرجه أحمد ٢٢١٥٣، والطبراني «الكبير» رقم ٧٨٢١، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٠/٨) : وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف .

(٢) صور الكناية صـ:٥١

(٣) أخرجه أحمد ٢٧٦٠٩، والطيالسي ١٧٣٧، والطبراني ٢٤/ ١٧٦، رقم ٤٤٣، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٥/٨) : إسناد أحمد حسن .

المبالغة، حيث جعل الأخ ميتا.

فقوله ﷺ: «من ذب عن لحم أخيه» كناية عن إبعاد الغيبة من الأخ المسلم، وقد استعمل هذا التعبير في القرآن ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه﴾ [الحجرات ١٢].

كأنه قال: من ذب عن غيبة أخيه في غيبته فقد وجب عليه دخول الجنة، أي: فرض الله على ذاته أن يبعده من الجحيم، كما أبعد نفسه عن الغيبة، وهي المبالغة التي تساعد في تقريب المعنى المتوخي إلى ذهن المستمعين، وهو التشجيع عن الابتعاد من الغيبة التي تعد من كبائر الإثم.[(١)]

ومنه قوله ﷺ: عن عطية بن عروة السعدي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنْ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ».[(٢)]

صور النبي ﷺ حالة الغضب ومنشأه، ثم أرشد إلى ما يسكنه، فذكر أن منشأ الغضب هو حث الشيطان، وأنه مخلوق من النار، فبما أن النار تطفئ بالماء، فعلينا أن نتوضأ حال الغضب، لأن الوضوء مركب معجون من الماء الحسي والمطهر المعنوي المؤثر في الظاهر والباطن، وهذا هو طب الأنبياء الذي غفل عنه الحكماء.[(٣)]

---

(١) صور الكناية في الكلام النبوي صـ:٥٢-٥٣

(٢) أخرجه أبو داود ٤٧٨٤، وأحمد ١٧٩٨٥، والطبراني في «الكبير» ١٧/ ١٦٧ رقم ٤٤٣، وسكت عليه أبو داود والمنذري.

(٣) صور الكناية صـ: ٥٤.

ثم قوله ﷺ : «إِنَّ الْغَضَبَ مِنْ الشَّيْطَانِ وَ إِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنْ النَّارِ» من الكناية أيضًا ، فكما يمكن أن يراد به الحقيقي ، كذلك هو كناية عن قباحة الغضب وسوءه أنه من الشيطان الملعون ، فكل ما يكون من الشيطان فهو شيطانة .

ومنه ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أنَّ رجلًا أتى النبيَّ ﷺ فقال : يا رسولَ اللهِ! احمِلْني ، قال النبيُّ ﷺ : إنا حاملوكَ على ولدِ ناقةٍ . قال : وما أصنع بولدِ الناقةِ ؟ فقال النبيُّ ﷺ : وهل تلدُ الإبلُ إلا النوقَ ؟ (١)

قال النبي ﷺ مُمازِحًا له : «إنَّا حامِلوكَ على ولَدِ ناقةٍ» ، أي : نُعْطيك ولدَ الناقة لتَرْكبه ، قال الرجل : وما أصنع بولد الناقة ؟ وهذا لظنِّه أنه يقْصِد الصغيرَ من ولد الناقة الذي لا يصلُح للركوب ، مما كان يشتهر في لغة العامة أن ولدَ الحيوان صغيرُها ، ولو أراد النبي ﷺ صغيرَها لقال له : فَصِيلٌ ، فقال النبي ﷺ : وهل تَلِدُ الإبلَ إلَّا النُّوقُ ؟

يعني : وهل تُولَدُ الإبلُ إلا من النوق وهي أنثى الجَمَل ؟ والمعنى : أن كل الإبل هي من ولد الناقة ؛ فعبّر ﷺ عن لفظ الولدِ ، والمْرادُ بِه أنواعُ الإبل ذَكَرًا كان أوأُنْثى كبيرًا كان أوصغيرًا ، وهذا من ملاطفته ﷺ للرجلِ ، وهذا من باب التَّوريةِ والكناية ؛ حيثُ أراد النبيُّ ﷺ شيئًا واحدًا أي العمومَ من عموم معنى اللفظ ، وهذا الرجلُ فَهِم شيئًا أخر وهو خاص ، وهذا العموم وإن يمكن منه

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩٩٨، واللفظ له . والترمذي ١٩٩١، وأحمد ٢٦٧/٣ ، وقال الترمذي : هذا حديث صحيح غريب .

أن يراد كلا معنى ألفاظ الحديث من العموم والخاص ، بيد أنه صار خاصًّا بتعيين النبي ﷺ .

التلويح

ومن الكناية التلويح ، والمراد منه ما تكون الكناية فيه ذات مسافة بينها وبين المكنى عنه متباعدة لتوسط اللوازم، كما في كثير الرماد ، فتلك كناية تلويحية ، ويناسب أن يطلق عليها «تلويح» ، لأن التلويح أن تشير إلى غيرك من بعد .(١)

مثاله : ما أخرجه مسلم (اللباس والزينة/ تحريم استعمال إناء الذهب ٢٠٦٦) من رواية أشعث بن أبي الشعثاء في النهي عن الشرب في الفضة : «وعن الشرب في الفضة ، فإنه من يشرب فيها في الدنيا لم يشرب فيها في الآخرة» .

فقوله ﷺ : «فإنه من يشرب فيها في الدنيا لم يشرب فيها في الآخرة» ، كناية عن نفي دخوله الجنة ، فإن أهل الجنة يأكلون فيها ، فنفي أكله فيها في الآخرة يكني إلى أنه لا يدخل الجنة .(٢)

الرمز

ومن الكناية الرمز ، والمراد منه الكناية التي تكون الإشارة فيها ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء ، نحو : عريض القفا وعريض الوسادة .(٣)

مثاله : ما روي عن معاوية ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المؤذنون

---

(١) مفتاح العلوم صـ: ١٧٠ .

(٢) صور البلاغة صـ: ٥٨ .

(٣) مفتاح العلوم ١٧٢ .

أطول الناس أعناقًا يوم القيامة» .[(١)]

قال العلامة البغوي : قال ابن الأعرابي : معناه : أكثرهم أعمالا ، يقال : لفلان عنق من الخير ، أي : قطعة ، وقال غيره : أكثرهم رجاء ، لأن من يرجو شيئا طال إليه عنقه. وقيل : معناه : الدنو من الله تعالى . وقيل : معناه : أنهم يكونون رؤساء يومئذ ، والعرب تصف السادة بطول العنق . وقيل : الأعناق أي : الجماعات ، يقال : جاء عنق من الناس ، أي : جماعة ، ومعنى الحديث أن جمع المؤذنين يكون أكثر ، فإن من أجاب دعوتهم يكون معهم .[(٢)]

وطويل العنق هنا ، أيما كان معناه من المعاني والتفاسير المذكورة ، كناية رمزية عن الفضل ، كما يكون «عريض القفا» كناية عن الحمق .

---

(١) أخرجه مسلم ٣٨٧، وابن ماجه ٧٢٥، وأحمد ١٦٨٦١، ١٦٨٩٨.

(٢) شرح السنة للبغوي ٢/٢٧٧-٢٧٨ .



المبحث الرابع

التعريض

التعريض لغة واصطلاحا

والتعريض لغة : الإمالة في الكلام ، فَهِمَ مِنْ كَلاَمِهِ تَعْرِيضًا بِهِ : تَلْمِيحًا مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ ، فالتعريض في اللّغة : أن تقول كلامًا لا تُصرّح فيه بمرادكَ منه ، لكنّه قد يشير إليه إشارة خفيّةً ، ويُمْكِنُك أن تتهرَّبَ من التزام ما أشرتَ به إليه إذا صِرْت مُحْرَجًا .

يقال لغة : عرّض لي فلانٌ تعريضًا : أي: قال فلم يُبَيِّن بصراحة اللفظ .

أَعْراضُ الكلام ومَعَارِضُهُ ومعاريضُه : كلامٌ غير ظاهر الدلالة على المراد وفي الحديث: «إنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب» [١]، أي : فيها سعة يتخلّص بها المتحدّث من الكذب إذا لم يرد التصريح .

والتعريض في خطبة المرأة : أنْ يتكلّم الخاطب بكلام يشبه خطبتها دون تصريح. وقد يكون بضرب الأمثال وذكر الألغاز في جملة المقال ، وقد يُراد بالتعريض المعنى الحقيقي للكلام ، وقد لا يراد . [٢]

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٨٥٧، وابن أبي شيبة ٢٦٦٢٠، والطحاوي في «شرح مشكل الأثار» ٢٩٢٤، والطبراني ١٨/ ١٠٦، رقم ٢٠١ ، وقال البيهقي : وهذا هو الصحيح موقوف .

(٢) البلاغة العربية صـ: ٥٨٢-٥٨٧ .

التعريض اصطلاحا

وهو اصطلاحًا : لفظ دال على شيئ بطريق المفهوم ، وهو لفظ أخفى من الكناية . ثم عرَّفه العلماء بمختلف ألفاظ ، فقال الزمخشري : والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره ، وقال السكاكي : التعريض ما سيق لأجل موصوف غير مذكور . [١]

الفرق بين التعريض والكناية

١- قال الشيخ محمد علي التهانوي [٢]: وللناس في الفرق بين الكناية والتعريض عبارات متقاربة : فقال الزمخشري : الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره .

وقال ابن الأثير [٣]: الكناية ما دل على معنى يجوز حمله على الحقيقة

---

(١) مفتاح العلوم ١٧٠، وكشاف اصطلاحات الفنون صـ: ١٣٨٨ .

(٢) هو الشيخ محمد علي بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (١١٥٨هـ/بعد١٧٤٥م) . وهو كاتب وعالم هندي، صاحب موسوعة «كشاف اصطلاحات الفنون». انظر حياته في ذيل «الأعلام» و«معجم أعلام المورد» .

(٣) ابن الأثير : وقد اشتهر بهذه الكنية ثلاثة أبناء من أب واحد كريم ، وكان كل منهم فارسا باسلا في مجالهم ! الأول : أصغرهم ضياء الدين نصر الله بن الأثير ، وهو صاحب «المثل السائر»، توفي سنة ٦٣٧هـ . والثاني : أوسطهم عز الدين أبو الحسن بن الأثير ، وهو صاحب «الكامل في التاريخ» و«أسد الغابة» ، توفي سنة ٦٣٠هـ. والثالث : أكبرهم مجد الدين أبو السعادات المبارك بن الأثير ، وهو صاحب «النهاية في غريب الحديث»، توفي سنة ٦٠٦هـ، ولم يكن مثل إخوته سالما ، أصيب في شبابه بالشلل ، ولكنه لم يقعد عبثا ، فاستملى =

والمجاز ، بوصف جامع بينهما . والتعريض : اللفظ الدال على معنى ، لا من جهة الوضع الحقيقي أوالمجازي ، كقول من يتوقع صلة : والله إني محتاج ، فإنه تعريض بالطلب مع أنه لم يوضع له حقيقة ولا مجازا ، وإنما فهم من عرض اللفظ ؛ أي : جانبه .....

وحاصل الفرق : أن في الكناية استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، وفي التعريض استعماله في ما وضع له مع الإشارة إلى ما لم يوضع له من السياق .[١]

قال الشيخ عبد الرحمن الميداني : التعريض طريقة من الكلام أَخفى من الكنايةِ ، فلا يشترط في التعريض لزوم ذهني، ولا مصاحبةٌ، ولا مُلابسة ما بين الكلام وما يُرادُ الدّلالة به عليه ، إنّما قد تكفي فيه قرائن الحال ، وما يفهم ذهنًا بها من توجيه الكلام ، وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والتعريض .[٢]

٢-وهو يكون في اللفظ المفرد بخلاف الكناية، فهي تكون في المركب.

٣- وهو مستفاد من السياق والقرائن، وهي (الكناية) من نفس اللفظ ، كذا في صور البلاغة في الكلام النبوي صـ : ٥٦.

مثال التعريض من القرآن الكريم : قول الله تبارك وتعالى خطابًا لرسوله ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . [سورة الزمر : ٣٩]

= وألف مثل هذا الكتاب «النهاية»، وأكثرُ تاليفِه كان في مرضه ! فرحمهم الله رحمة واسعة ! (انظر مقدمة «النهاية» ٢١-٢٣، و«فيات الأعيان» ١٤٢/٤، و«سير أعلام النبلاء» ٤٩٠/٢١) .

(١) كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد علي التهانوي صـ: ١٣٨٨ .

(٢) البلاغة العربية صـ: ٥٨٢-٥٨٧ .

ومن المعلوم في أصول الدين : أنّ الرَّسُولَ الّذِي يصطفيه الله لتبليغ رسالته للناس لا بدّ أن يكون معصومًا عن أن يشرك بالله شيئًا ، فقول الله للرسول محمّد ﷺ ولكل رسول اصطفاه الله من قبله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هو خطابٌ بصريح العبارة للرّسول ﷺ ، وهو تعريض لكل من آمنَ به واتّبَعَه أنْ يَحْذَروا من الشرْك ، لئلاَّ تحبَطَ أعمالهم ويكونوا من الخاسرين .

مثال التعريض من الحديث الشريف : حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» . (١)

قال علي القاري : قوله ﷺ : «وأن عيسى عبد الله ورسوله» تعريضًا بالنصارى ، إيذانًا بأن إيمانهم مع القول بالتثليث شرك محض لا يخلصهم من النار وعذاب الله تبارك وتعالى . (٢)

ومنه ما روي عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» . (٣)

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤٣٥، ومسلم ٢٨.

(٢) مرقاة المفاتيح ١/ ١٠١ .

(٣) أخرجه البيهقي ٢٠٩/١٠رقم ٢٠٩٧٢ بسنده من طريق بقية بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عنه نقل الحافظ ابن حجر في «اللسان» ٣١٢/١ كلام الإمام أحمد، وقال فيه: وهو صحيح .

وروى هذا الحديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا الحديث طرق كثيرة عنهم ، وهو حديث حسن لتعدد طرقه ، قال العلامة إبراهيم بن الوزير : وهو حديث مشهور صححه ابن عبد البر . وروي عن أحمد أنه قال : هو حديث صحيح . قال زين الدين : وفي كتاب «العلل» للخلال عن أحمد سئل عنه فقيل له كأنه كلام موضوع ؟ فقال : لا هو صحيح ، فقيل له : ممن سمعته ؟ فقال من غير واحد ... [(١)]

وذكر العلامة ابن القيم طرق الحديث في مفتاح دار السعادة صـ : ١٦٣-١٦٤، وجزم الحافظ العلائي بأن الـحديث حسن . [(٢)]

وقال الإمام النووي : وفي الحديث الآخر : «يحمل هذا العلم.....» هذا إخبار منه ﷺ بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه ..... وهكذا وقع ، ولله الحمد ، وهذا من أعلام النبوة ، ولا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئًا من العلم ؛ فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه ، لا أن غيرهم لا يعرف شيئًا منه والله أعلم . [(٣)]

ومع ذلك ؛ هذا تعريض لليهود والنصارى الذين حرفوا وبدلوا في كتاب الله ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله .

---

(١) العواصم والقواصم ١/ ٣٠٨ .

(٢) الحطة في ذكر الصحاح الستة صـ : ٧١ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١٧/١ .

القسم الثالث



الإعجاز العلمي : الطب النبوي

وقد ذكرنا الإعجاز البياني -الذي يتعلق بألفاظ الحديث النبوي- في القسمين الأولين ، وذلك محور حديثنا .

ونحن نذكر الآن بعض الأمور في الإعجاز العلمي -الذي يتعلق بسنة النبي ﷺ اختصارا إن شاء الله ، ومن يرد العمق فيه فليطالع « الإعجاز العلمي في السنة النبوية » للدكتور صالح بن أحمد .

ولا يخفى على القراء الكرام أننا بيناً بعض نماذج الإعجاز العلمي في الميزة الثامنة: « إنباء الأخبار المستقبلة » للإعجاز البياني في البلاغة النبوية ، والتاسعة : « إبداع الأحكام » من الفصل الثالث من القسم الأول .

وههنا نضع الإعجاز العلمي قسمًا على حدة،ونبحث عن السائنس والعلوم الحاضرة والطبية مما فيه من إيجاز علمي، ولا نبين الطب، فإنما موضوعنا في هذا القسم من حيث الإعجازفقط، ثم أكثر بحثنا في العلوم الطِّبِّية ، فلذا سميناه «الطب النبوي» وهاهو إليكم:



الإعجاز العلمي
الطب النبوي

حكمة تشريع الأحكام

ثم إن الأحكام الإلهية الفرضية ليست إلا لصلاح الناس ، وكذلك السنة النبوية ، فالصلاة في الأوقات الخمسة شرعت لذكر الله ومناجاته ، قال تعالى : ﴿وأقم الصلاة لِذكرِي﴾ [طه : الآية ١٤] .

ولتكون معدَّة لرؤية الله تعالى ، ومشاهدته في الآخرة ، كما قال رسول الله ﷺ «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا» .

والزكاة دفعا لرذيلة البخل ، وكفاية لحاجة الفقراء ، كما قال الله تعالى في مانعي الزكاة : ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ [آل عمران ١٨٠] .

وكما قال النبي ﷺ : فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تأخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .[(١)]

والصوم شرع لقهر النفس ، كما قال تعالى : ﴿لعلكم تتقون﴾ [البقرة ١٨٣] ، وكما قال النبي ﷺ : «من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ،

(١) أخرجه البخاري ١٤٥٨، ١٤٩٦، ومسلم ١٩، والترمذي ٦٢٥، وقال : حديث حسن صحيح .

وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء﴾ .[١]

والحج لتعظيم شعائر الله ، كما قال تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي﴾ [آل عمران ٩٦] ، وقال : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ [البقرة ١٥٨] .

والقصاص شرع زاجرًا عن القتل، كما قال ﷻ : ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ [البقرة ١٧٩] .

والجهاد لإعلاء كلمة الله ، وإزالة الفتنة ، كما قال : ﴿وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ [الأنفال ٣٩] .

وهذا ما قاله محدث ديار الهند الشيخ العلامة شاه ولي الله الدهلوي .[٢]

فالأحكام الشرعية كلها شرعت لمصلحة الإنسان ، ولذلك نرى علماء السائنس يقولون : إنه ينبغي لكل الناس أن يمارس بالرياضة البدنية كل يوم أكثر من مرة ، ويقوم بحركاتٍ لترويض عجلات الجسم وجعله يكتسب قوة ومرونة ، وتلك تُوجَد في الصلاة كل يوم خمس مرات !

وكذا الصوم ، يقول الأطباء : إنه ينبغي لكل الناس أن يجوع أياما في السنة الواحدة، بل في كل أسبوع من أسابيع الشهر ، وبه تقوى الحركات الدموية في أجسام الناس ، وهذا موجود في صيام المسلمين !

ولذا يقال : الصوم والصلاة رياضة بدنية وروحية ؛ لترويض عجلات الجسم والروح وتدريبها على الترفه عن ملذات الحياة وتقوية المَعْنَويات

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٠٥، ومسلم ١٤٠٠، والترمذي ١٠٨١، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) حجة الله البالغة صـ: ٥ .

وهكذا أيضا السنة النبوية ! فما من سنة إلا وفيها نفع للناس والإنسانية .

وبيَّن الشيخ مولانا ذو الفقار علي الباكستاني النقشبندي قصة عجيبة: أن أحدًا من أطباء أمريكا يقول له : لو تعلم خاصة ؛ المرأة ما في الصلاة من فوائد لم تتركها أبدا، وهي : أن في وجوه الناس كثيرًا من الحبول الصغيرة الدقيقة، ولا تصل الدماء إليها دائما، لكون الوجوه **skin** إلى الأعلى، فاحتاجت إلى تمرن رياضي تكون الوجوه فيه إلى الأسفل والجسم إلى الأعلى ، فتصل الدماء إليها بأسهل طرق، وبهذه الرياضة تكون مليحة ولينة، جميلة وحسينة، لامعة ومنبعثة الأنوار، فلو تعلمها النساء تهتممن بالصلاة وتشغلن فيها تركا ماكياجهم **-Makeup**! كذا في ملفوظاته بالأردية .[1]

فوائد المسواك

حديث : « السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب » .[2]

لقد رغَّب النبيُّ ﷺ في النظافة والتطهر في البدن كلِّه ؛ حتى جعَل الطهور شطْرَ الإيمان، وفي الحديثِ يقول النبي ﷺ : « السِّواكُ » ، أي : العودُ الذي تُدلَكُ به الأسنانُ لتنظيفها ، ويُصنَعُ من شجرة الأَرَاك وغيرها .

« مَطْهَرَةٌ للفَمِ »، أي : مُنظِّفٌ للفم من عوالق الطعام وروائحه الكريهة، وهذا من مُتطلَّباتِ النظافة التي حَثَّ عليها الشارع .

---

(١) سنت نبوية اور جديد سائنسي انكشافات صـ: ٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري تعليقا في « الصوم » ، وابن خزيمة ١/ ٢٤٥ رقم ١٣٥، وابن حبان ٣٤٧/٣ رقم ١٠٦٧، والنسائي ٥، وقال البغوي في « شرح السنة » ٣٩٤/١ : هذا حديث حسن .

«مَرْضاةٌ للرَّبِّ» ، أي : يحصل باستعماله مرضاة الله سبحانه وتعالى ؛ وذلك لما يسبِّبُه من طهارةٍ للفم فيجلبُ رِضا اللهِ سبحانه الذي يحب الطهارة والنظافة ، ولأن الإتيان بالمأمور به موجبٌ للثواب ، وطيبُ رائحةِ السواكِ قبلَ الصَّلاة التي هي مناجاةُ الرب يحبها صاحب المناجاة ، ولم يقل : السواك يُطهِّر الفم ويرضى به الله تعالى أو لم يقل يطهُر به الفم ، بل أتى بالمصدر ، فكأن السواك هو الطهر في كثرةِ قوةِ تطهيره للفم وكونه نافعا له ! وهذا زيادة تاكيد المعنى بالمصدر بدل الفاعل .

ويظهر إعجاز قول النبي ﷺ فيه ، حيث للمسواك فوائد تزيد على سبعين أيضا ، كما قاله ابن عابدين الشامي في الفتاوى الشامية ١/ ٢٣٩ .

واقتصر النبي ﷺ على ذكْرِ هاتينِ الخصْلتين مع أن للسواك فوائدَ أُخرَ ؛ لأنهما أفضلها ، أولأنهما يشملان غيرهما ؛ فإن فوائده منحصِرة في تحصيل الطهارة الظاهرية والباطنية والحسية والمعنوية في الدنيا، وفي تكميل رضا الله.

يقولون : استعمال فروع الشجرة لنظافة الأسنان أفضل من غيرها من الفرشات ، فإن المسواك كل يوم تتجدد نعومته ، فلا تجتمع في رأسه الجراثيم .

الوضوء والطب

وفيه حديث عثمان بن عفان ﷺ : «مَن توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدِّث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه» .[1]

قال الإمام النووي : إنما قال : نحو وضوئي ، ولم يقل مثل وضوئي ، لأن

(١) أخرجه البخاري ١٥٩، ومسلم ٢٢٦ .

حقيقة مماثلته لا يقدر عليها غيره .[(١)]

وتعقبه ابن حجر ، ويُثبِت أنه يروى عنه ﷺ رواية «مثل وضوئي هذا» أيضا ، كما روي عن طريق معاذ بن عبد الرحمن ، ولمسلم من طريق زيد بن أسلم، وعلى هذا فالتعبير بـ «نحو» من تصرف الرواة ؛ فإن «نحو» يستعمل في معنى «المثلية» مجازا ، إلا أن «المثل» وإن كان يقتضي المساواة ظاهرا ، لكنها تطلق على الغالب ، وبهذا تلتئم الروايتان ، ويكون المتروك بحيث لا يخل بالمقصود ، فيستعمل كلاهما في الحديث على معنى واحد .[(٢)]

والظاهر أنه ﷺ قاله بعد وُضوئه الكامل، من غسل كفيه ثلاث مرات ، ثم تمضمض واستنثار ، ثم غسلِ وجهه ثلاث مرات ، ثم غسل يده اليمنى... ثم قال : «توضأوا نحو وضوئي هذا»، كما ثبت من روايات البخاري ومسلم .

وعلاوة على ذلك أن النبي ﷺ قد بين فضيلة هذا الوضوء في أحاديث كثيرة، حيث قال : «ما منكمْ من أحدٍ يتوضأ فيبلغُ أوفيُسبغُ الوضوءَ ثم يقول: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمدًا عبدُ اللهِ ورسولُهُ ، إلا فُتحتْ له أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ ، يدخلُ من أيّها شاءَ» .[(٣)]

---

(١) شرح النووي ٣/ ١٠٨ .

(٢) فتح الباري ٢٦٠/١ .

(٣) أخرجه مسلم ٢٣٤، وأبو داود ١٦٩، وقال المنذري (٦٦/١) : وفي إسناد هذا رجل مجهول ، أخرجه الترمذي من حديث أبي إدريس الخَوْلاني وأبي عثمان ، عن عمر ﷺ مختصرًا ، وفيه دعاء ، وقال : وهذا حديث في إسناده اضطراب ، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء .

وجاء قوله ﷺ : « فإنَّهم يأتُونَ يومَ القيامةِ غرًّا مُحجَّلينَ منَ الوضوءِ وأَنا فَرَطُهُم على الحوضِ » .[(١)]

وذكرها بـ« غرًّا مُحجَّلينَ » خاصة وتشبيهها بالفرس الجياد بيض الجُبُن ؛ لأن المتوضئين يغسلون أيديهم وأرجلهم ووجوههم وناصياتهم في الوضوء ، وهذه فضيلة الوضوء عند الله ، وأما منفعته ، فهو : أنه يبرد به عَصَبيُّ الإنسان ودماغُهم الذي يتعب بتدبير الوظائف الشُّغلية واستقبال معتطيات الحواس دائمًا ، حتى تتجدد الحركة الوعيية التفكيرية والسيطرة العضلية الإرادية بغسل كل أعضاء الوضوء، ويتحسس به المتوضئون فوَّارة الأنوار في القلوب .

وقال الشيخ مولانا ذو الفقار علي الباكستاني النقشبندي : أن المسلم يتوضأ كل يوم لخمس صلوات ، ويقول الطب : أنه يبرد دماغ الناس ببرودة العنق ، ويستريح به ؛ لأنه تصل إليه كل الإشارة العصبية **signal** من العظم الصلبي من الوراء **back side**، فكلما يغسل المصلي وجهه ويده ويمسح عنقه الذي هو في الوراء يقوى ويستفيد منه دماغه .[(٢)]

والوضوء هو دواء كبير رياضي طِّبِّي لمن به صداع في عنقه وتعَبٌ في بدنه ! وقد ألف الدكتور حكيم محمد طارق الصغتائي الباكستاني في الإعجاز العلمي في السنة النبوية باللغة الأردية ، فأحسن وأوفى ، فجزاه الله خيرًا .

---

(١) أخرجه مسلم ٢٤٩، وابن حبان ٣١٠/٣ رقم ١٠٤٦، والنسائي ١٥٠، وقال ابن عبد البر (التمهيد ٢٣٨/٢٠) : روي من وجوه حسان ، وحديث العلاء هذا من أحسنها إسنادًا .

(٢) كذا في ملفوظاته بالأردية سنت نبوي اور جديد سائنسي انكشافات صـ: ٦ .

الاستنجاء بالماء و الحجر

والوضوء شرط لصحة الصلاة ، أما بعد الإستنجاء فالمستحب أن يكون دائما على حالة الوضوء ، لأنه طهارة كاملة ، ثم مدح الله من استنجى بالماء بعد استعمال التراب أوالأحجار ، فقال تعالى : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [البقرة : ٢٢٢] ؛ فلم يقل : الطاهرين ، بل قال : ﴿المتطهرين﴾ ، وهم الذين يحتاطون كثيرا في الطهارة والنظافة .

وقال ﷺ : «الطهور شطر الإيمان» .[١]

فجعل الطهارة نصف الإيمان ، فإن من لا يطهر من النجس لا تصح صلاته ويقل ثوابه من أذكاره وتلاوته ، فإذا لم تصح صلاته فأي شيئ يبقى من إيمانه ؟ وهي – الصلاة- الفرق بين الكفر والإيمان ؟

وكان النبي ﷺ يديم على الوضوء ، وكان يستنجي بالماء مع الحجر ، ولأجل ذلك يستحب عند جميع الفقهاء الاستنجاء بالماء مع الحجر زيادة في النظافة ، ثم في عدمه يمكن أن تجتمع هناك جراثيم مهلكة ، فتكون سببا للأمراض المعدية ، وقد علَّم النبي ﷺ أصحابه كل هذا باليد والأقلام عيانا ومباشرة ، ثم مضت بعده قرون ودرست آثار ولكن بقي أثر تعليمه ﷺ .

حكمة النهي عن استقبال القبلة عند الاستنجاء

روي عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «إذا أتيتُم الغائِط ، فلا تستقبِلوا القِبلةَ، ولا تَستَدبِروها ببولٍ ولا غائِطٍ، ولكِن شرِّقوا أوغَرِّبوا» .[٢]

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢٣، والنسائي ٢٤٣٧، والترمذي ٣٥١٧، وقال : هذا حديث صحيح .

(٢) أخرجه البخاري ٣٩٤، واللفظ له ، ومسلم ٢٦٤ .

ويثبت من الأحاديث كراهية الاستقبال أوالاستدبار عند الاستنجاء ، وقد جاء أنه أيضا يستقبلها ، كما في رواية جابر بن عبد الله ﵁ [١]، فأجاب المحدثون والفقهاء عنه بأجوبة مختلفة، وأجمعت المذاهب الأربعة على كراهية الاستقبال . [٢]

يقول الباحثون (الدكتور دروين والدكتور ليدبيب والدكتور سكندر) : إن الكعبة تقع في وسط الأرض الكروية ، وإن الشعاع الإيجابي **positive rays** الذي ينشر منها تستفيد منها الأرض كلها ، فمن بصق أوتبول إلى جانبها فقد ألقى الغاز السلبي **negative rays or gas** إليها ، ومن يستمر على ذلك يضر بجسمه والبيئة .

يا للعجب ! هذا ما يقوله الكفار! وقد سرقوا منا بعض خصائله ﷺ ، واتصفوا ببعض صفاتنا ، فارتقوا في هذا الزمن بنور ذلك القمر وضياء تلك الشمس ، وأين نحن المسلمين من سنة تلك الشمس المصطفاة ﷺ ؟ وقد قالت عائشة رضي الله عنها :

لنا شمس وللآفاق شمس = وشمسي أفضل من شمس السماء .

نعم وهو في الحقيقة كالشمس الكبيرة للعالمين !

البول قاعدا

ومن السنة : أن يَتبوّل قاعدا ؛ وروي عن عائشة ﵂ : «مَن حدّثكم

(١) أخرجه أبوداود ١١، وابن خزيمة ٦٠، وقال الدارقطني (٥٨/١) : صحيح ، رجاله كلهم ثقات .

(٢) البحر الرائق لابن نجيم ٢٥٦/١، والمجموع للنووي ٢/ ٩٣، والمغني لابن قدامة ١/ ١٢٩ .

أن النبي ﷺ كان يَبُول قائما فلا تُصَدِّقوه ، ما كان يَبُول إلا قاعدًا» .[(١)]

يقول الدكتور فارس علوان في كتابه القيم «وفي الصلاة صحة ووقاية» : وللبول قاعدا حِكَمٌ كثيرة وفوائد جمة :

١- يمنع تلوث الأقدام والثياب والحذاء من قطيرات البول .

٢- إن وضعية القعود أثناء البول أحجب وأدعى للأدب والاحتشام .

٣- القعود أيسر لتحرير معصرة الشرج واسترخائها ، وأمكن لتقلص عجلات البطن ، وضغطتها على الأمعاء والمثانة ، وبذلك يسهل أيضا تفريغ محتويات المستقيم إذا وجدت سواء كان بولا أوغائطا ، فيتخلص من عبء السبيلين وانتفاخ البطن معا قبل وضوئه .[(٢)]

إيفاء اللحى

وقال النبي ﷺ : وفِّروا اللحى وأحفوا الشوارب .[(٣)]

وقد أحسن الشيخ عَلَوي في رسالته «مسألة الأخذ من اللحية» ، فقال : فقد وردَتْ أحاديثُ كثيرةٌ بتوفيرِ اللِّحى وإعفائِها ، وحاصلُ مجموعِ رواياتِها أربعة ، وبقول القاضي عياض : خمسة : (١) «أوفُوا» ، (٢) و«أرخُوا» ، (٣)و«أعفُوا» ، (٤) و«وفِّروا ، (٥) و«أرجُوا» ، ومعانيها كلُّها متقاربةٌ ، ولم يَرِدْ حديثٌ بلفظِ : «اترُكوا» ولا بلفظ «أكرِموا» ، والرِّوايات هي :

---

(١) أخرجه الترمذي ١٢، وقال : هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح .

(٢) الإعجاز العلمي صـ: ٤٧٨- ٤٧٩ .

(٣) أخرجه البخاري ٥٥٥٣، ومسلم ٢٥٩ .

(١) حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا : «أحفُوا الشَّوارِبَ، وأوفُوا اللِّحَى». [(١)]

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا:«جزُّوا الشَّواربَ، وأرخُوا اللِّحَى». [(٢)]

(٣) حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا:«وفِّروا اللِّحَى، وأحفُوا الشوارِبَ». [(٣)]

(٤) حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا:«أنهِكوا الشوارِبَ، وأعفُوا اللِّحَى». [(٤)]

(٥) وقد جاء بلفظ «أرجوا» بالجيم عند القاضي عياض .

وهذه الألفاظ كلُّها تدلُّ على التركِ وتوفيرِ اللحى وتكثيرِه .

«أوفُوا» من الإيفاءِ : وهو الإتمامُ وعدمُ النُّقصانِ ، قال في «تاج العروس» : أوفى الشيء ، أي : تمَّ وكثُر ، وفي «مقاييس اللغة» : وفي كلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ .

«وفِّرُوا» من التوفيرِ : وهو الكثرةُ، قال ابن فارس في «مقاييس اللغة»: (وفر) كلمةٌ تدلُّ على كثرةٍ وتَمامٍ ، وفي «القاموس المحيط» : وفَّرَه توفيرًا : كثَّرَه، وفي «لسان العرب» : وفَّرَه : كثَّره .

فأنت ترى أن كل الألفاظ التي جاءت في الأحاديث تدل على الوفرة والكثرة ، وبصيغة الأمرِ الدالِّ على الوجوب ، وقد تأكد ذلك بفعله ﷺ ؛ فإنه لم يصِحَّ عنه أنه أخذ شيئًا من لحيته ، بل جاء في أحاديثَ كثيرةٍ في صِفتِه ﷺ أنه كان : «كَثَّ اللِّحيةِ» كما روى البراء بن عازب الأنصاري رضي الله عنه في وصف لحيته

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٩، والطبراني في «الكبير» ٢٧٧/١١ رقم ١١٧٢٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٠، والبيهقي في «سننه الكبير» ١٥٠/١ رقم ٧٠١ .

(٣) أخرجه البخاري ٥٨٩٢، والطبراني في «الأوسط» ١٩٥/٥ رقم ٥٠٦٨ .

(٤) أخرجه البخاري ٥٨٩٣، ومسلم ٢٥٩، والترمذي ٢٧٦٣، وقال : هذا حديث صحيح .

عليه الصلاة والسلام .[١] و« كثيرَ شَعرِ اللِّحيةِ »[٢]، كما ورد في صفة عددٍ من الصحابة ﷺ: أنهم كانوا كثيري شَعرِ اللِّحيةِ ، ولا يُعرَفُ عن أحد من السلف أنه حلقَ لحيتَه البتة .

ولذلك اتفقَ الفقهاء على حرمة حلقِها ، ونقل غيرُ واحد الإجماع على ذلك ؛ منهم ابن حزم بقوله : واتَّفَقوا أنَّ حَلقَ جميعِ اللِّحيةِ مُثْلةٌ لا تجوزُ . ولم يعلِّقْ عليه ابنُ تيمية .[٣]

وأما ما زاد على قدر المد فيجوز قصه ، لثبوته من السلف مثل عمر ﷺ وغيره من الأعيان الأفاضل ، كذا في «الاستذكار» ٣١٧/٤، وكذا قال شيخ الإسلام في « شرح العمدة» ١/ ٢٣٦، والشامي في « حاشيته» ٢/ ٤٥٩ .

والسائنس يقول : أنه تضعف القوة الشبابية بحلق اللحى ، وتعدم القوة البصرية ، ويفسد به جمال البشرة ونور الوجه ، ثم اللحية هي زينة الرجل وعلامة الشباب الشجاع .

الختان من السنة

وقد ورد في هذا الصدد عن النبي ﷺ قال : الفطرة خمس : الختان والاستحداد ونتف الإبط وقص الشارب وتقليم الأظافر .[٤]

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في « المختارة» ٣٥٠/٢ رقم ٧٣١، ٧٣٢ ، والنسائي ٥٢٣٢، والترمذي في « الشمائل» رقم ٨ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم : الفضائل / شيبه ﷺ رقم ٢٣٤٤ ، وابن أبي شيبة ١٦/ ٥١٧ رقم ٣٢٤٦٨

(٣) مراتب الإجماع صـ ١٢٠، والإقناع في مسائل الإجماع ٢/ ٢٩٩.

(٤) أخرجه البخاري ٥٨٨٩، ومسلم ٢٥٧، والترمذي ٢٧٥٦، وقال : هذا حديث صحيح .

والختان سنة نبوية ، وفي تركه إمكان الأدواء الفتاكة الخطيرة ، وقد يتسرب النقير في أستار الذكر لتسمم الدرن والقذارة ، ويسمى ذلك في علم الطب «التسمم» **phimosis** و«التنافي» **paraphimosis** ، فلا يبقى مجال إلا للقطع ، وإلا فيتعفن لحم الذكر لانحلال مواده العضوية بفعل البكتيرولوجية .

ومع ذلك يخل بالجماع ، وتتحرك الأمراض المتعدية بدخولها في رحم المرأة للجراثيم ، ويحدث السرطان بحبس بعض البول كل يوم في رأس العضو ، ولذا نرى أن كثيرا من الأطباء الهنادسة يختنون كالمسلمين !

نسيان العلم بسبب المعاصي

وفيه قال ابن مسعود ﷺ : إني لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله . (١)

وهذا مجرَّبٌ ، فإن العلم نور والمعصية ظلمة ، ولا يتفقان أبدا ، وقد قال الإمام الشافعي : وأخبرني بأن العلم نور = ونور الله لا يؤتى لعاصي . (٢)

وفي الأصل أن بارتكاب المعصية تخط الوصمة السوداء في قلوب الناس حتى تسود ، فتضعف القوة الحفظية ، فينسى كثيرًا من العلم للعصيان ، ولذلك مهما تمضي الأزمان وتقترب الساعة ، تنحط قوة الحفظ رويدًا رويدًا ومهلاً مهلاً بسبب انتشار المعاصي في الناس .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٩٦ .

(٢) ديوان الشافعي صـ: ٥٤، جمع محمد عفيف الزعبي .

المسبل إزاره في النار

وقد ورد عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال : «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ : فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ : خَابُوا وَخَسِرُوا ، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَال ﷺ : «الْمُسْبِلُ ، وَالْمَنَّانُ ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» . [(١)]

ويؤيد ما رواه الإمام البخاري في «صحيحه» مرفوعًا : «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ» . [(٢)]

ومنه قسم مقيد بمن يجره خيلاء أومتكبرًا ، ويدل عليه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :«لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا» . [(٣)]

الإسبال في اللغة

الإرخاء والإرسال، يقال : أسبل إزاره؛ أي: أرخاه وأرسله إلى الأرض. [(٤)]

الإسبال : هو إرسال الشيء من علو إلى سفل ؛ كإسبال الإزار ؛ أي : إرخائه ويدخل في ذلك الثوب والسراويل ، ومنه البنطال لمن لبسه من الرجال ، والقميص والمشلح ؛ لأنها جميعًا تندرج تحت أصلٍ واحدٍ ، وهو إرخاء اللباس وإرساله بحيث يتجاوز الحد المقرر في النصوص الشرعية ، وهو أن لا يجاوز

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٦، والترمذي ١٢١١، وقال : حديث أبي ذر ﷺ حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٨٧، والنسائي ٥٣٣١، وأحمد ٩٣١٩ .

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٨٨، ومسلم ٢٠٨٧.

(٤) الصحاح ٥/ ١٧٢٣، والنهاية في غريب الحديث مادة «سبل» .

اللباس كعب الرجل .

قال الحافظ ابن حجر : «وقال الطبري : إنما ورد الخبر بلفظ الإزار ؛ لأن أكثر الناس في عهده كانوا يلبَسون الإزار والأردية ، فلما لبس الناس القميص والدراريع كان حكمها حكم الإزار في النهي .

وقال ابن بطال : هذا قياس صحيح لو لم يأتِ النص بالثوب ، فإنه يشمل جميع ذلك ، وفي تصوير جر العمامة نظر ، إلا أن يكون المراد ما جرت به عادة العرب من إرخاء العذبات ، فمهما زاد على العادة في ذلك كان من الإسبال» . (١)

وتكون في عظم الكعب قوة نطفية ، تقوي طبيعيةً بحرارة الشمس ويبوسة النهار ، وتجمد وتستقر ببرودة الشتاء ورطوبة الليل حسب الضرورة ، ومن يسبل إزاره أوقميصه أولباسه تحت كعبه ويغطيه بها ؛ يحول بينه وبين تأثير الشمس فيه ؛ خاصة إذا يمشي تحت السماء !

وقد يعترض عليه بأن الخف أيضا يغطيه ؟

فالجواب عنه أنه جوَّزت لنا الشريعةُ لبسَ الخف المجلَّد ، وجوازَ المسح عليه للصلاة يومًا كاملاً ، وهذا القدر ليس بمضر ؛ فإنه أولا : صنع من الجلد، فالجلد يتصل بالجلد !

وثانيًا : حدَّدت الشريعة وقتا معينا ، وهو اليوم فقط ، كي يأخذ بعد ذلك طعمته من الشمس ، وهذا لا بأس به عند الأطباء .

---

(١) فتح الباري ١٦/ ٣٣١ .

ثم لا تجوز الصلاة بالمسح على جوارب الثوب ، لكونها مصنوعة الثوب الخالص ، وما لا تُجَوِّزُه الشريعة مضر يقينا ، وهذا كله على أنه جواز عند الشريعة، ولكنها لم تقل: إنه يجب لبس الخف، بل جوَّزتْه لمن أراد أن يفعل !

لبس الحرير والتختم بالذهب

وقد روي عن عمران بن الحصين ﷺ نَهى رسولُ اللهِ ﷺ عن الخَتَمِ ، ولُبسِ الحَريرِ ، والتَّختُّمِ بالذَّهبِ . [(١)]

وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ نَهَانِي رَسولُ اللهِ ﷺ عَنِ التَّخَتُّمِ بالذَّهَبِ ، وَعَنْ لِبَاسِ القَسِّيِّ ، وَعَنِ القِرَاءَةِ في الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، وَعَنْ لِبَاسِ المُعَصْفَرِ . [(٢)]

فهذا الحديثِ نَهى عن أربعة أشياء :

١- عَنِ التَّختُّمِ بِالذَّهبِ ، أي : لُبْس الخواتِمِ التي من الذهب .

٢- نهاه عَن لِباسِ الْقَسِّيِّ ، وهي ثياب مُضلَّعة بالحرير يُؤتَى بها من مصْرَ والشام ، والنهي عنهما خاص بالرجال ، دون النساء .

٣- نهاه عَنِ القِراءةِ أي: قراءةِ القرآنِ في الركوع والسجود ؛ لأن الركوع هو مقام التسبيح ، وكذا السجود هو مقام التسبيح والدعاء .

٤- ونَهاه عَن لِباسِ الْمُعصفَرِ : وهو الثوب المصبوغ بالعُصفر ، وهو صبغٌ أحمرُ .

---

(١) أخرجه النسائي ٥١٨٧، وأحمد ١٩٩٨٠، واللفظ له .

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٧٨، والترمذي ٢٦٤، وقال : حديث علي ﷺ حديث حسن صحيح .

سبب النهي عن لبس الحرير والذهب

ومن يسأل : لم حرم الله لبس الذهب على الرجال ؟ فسؤاله خاطئ ؛ لأن الله لا يُسئل عن أفعاله ، فيقول : ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئلُونَ﴾ [الأنبياء ٢٣] . وهذه الآية جواب حقيقي عن حكمة أصلية لتحريم كل شيئ ، فيحرم ما يشاء ويحلل ما يشاء .

ثم إنه في كل يوم تكتشف المصنوعات الجديدة في العلوم الحاضرة ، وتتجدد حقائق جديدة عن غايات تحريم الشرع كثيرا من الأمور ، ولا يَعلمها إلا مَن أعْلَمه الله تبارك وتعالى ، من مقاصد الشريعة في أحكامها ، فكم من مقاصد الأحكام وحِكَمها كانت في القديم مجهولة ؛ ومع التطور العلمي الحديث تم كشفها .

ومنها هذان : (١) النهي عن لبس الحرير ، (٢) والتختم بالذهب ، فقد قيل في سبب تحريمهما أقوال ، منها :

حُرِّمَ لبس الذهب والحرير للرجال ؛ لأنهما خاص بالنساء وهما كالتشبه بهن ، وزينتان للنساء ، وفيهما تغيير للصفات التي لا تنبغي للرجال .

ولو قيل : هذان يلبسهما الرجال في الجنة ، فما في الدنيا ؟

نقول : ليس هناك تلازم بين المحرمات في الدنيا وإباحتها في الآخرة ، فلا يصح أن تقاس الآخرة على الدنيا ، فلكلّ من الدّارين أحكام مختلفة ، ولا يصحّ أن يقال بإباحة الشيء في الدنيا قياسا على إباحته في الجنة ، وإلا تباح كل المحرمات في الدنيا ، كشرب الخمر ، والإمساك عن أكثر من أربع زوجات ،

والغناء ، وغير ذلك مما تباح في الجنة ، فيندفع بهذا القول الاستشكال على حرمة الحرير في الدنيا مع إباحته في الجنة ما قد ورد .

ولقد تكلم العلماء في حكمة تحريم الحرير في الدنيا على الرجال ، ومن ذلك ما ذكره العلامة ابن القيم : ومثبتو التعليل والحِكَم وهم الأكثرون، منهم من يجيب عن هذا بأن الشريعة حرّمته لتصبر النفوس عنه ، وتتركه لله ، فتُثاب على ذلك .

ومنهم من يجيب عنه بأنه خُلق في الأصل للنساء ، كالحلية بالذهب ، فحرِّم على الرجال لما فيه من مفسدة تشبه الرجال للنساء .

ومنهم من قال : حُرّم لما يُوْرِثه من الفخر والخيلاء والعجب .

ومنهم من قال : حُرّم لما يورثه بملامسته للبدن من الأنوثة والتخنث ، وضد الشهامة والرجولة ، فإن لبسه يكسب القلب صفة من صفات الإناث والرخاوة ما لا يخفى ، حتى لو كان من أشهم الناس وأكثرهم فحولية ورجولية ، فلا بد أن يُنقصه لبس الحرير منها ، وإن لم يُذهبها . ومن غلظت طباعه وكثفت عن فهم هذا ، فلْيسلّم للشارع الحكيم . (١)

وعند علماء الطب : أن الذهب عنصر فِلِزِّيٌّ تلقائيٌّ ، فيه حرارة شديدة ضد حرارة الرجال في أجسامهم ، فلذا يناسب للنساء التختم به ، لا للرجال ؛ وكذلك الحرير ، ثم فيه كشف الأعضاء أمام الناس ، وذلك خلاف المروئة .

وقال الشيخ عبد السلام في كتابه : عند علماء البيئة والطب : أن زينة

---

(١) زاد المعاد ٤/٨٠

الذهب أكثر من جمال الرجال ، وأقل من حسن النساء ، فإذا لبس الرجلُ الخاتمَ الذهبي يقع نظر الناس على الذهب ، لا على اللابس ، فينقص من جماله ؛ وإذا تزينت به المرأة يقع نظر الناظر عليها مع تزينها ، فيزداد في تألقها وجاذبيتها كالمغناطيس ! [(١)]

الشرب قاعدا

وقد وردتْ أحاديث عن النبي ﷺ بالنهي عن الشرب قائمًا ، منها :

١- حديث أنس ﷺ وأ بي سعيد الخدري ﷺ ، وهو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ زَجَرَ عَنْ الشُّرْبِ قَائِمًا . وفي روايةٍ « نهى » . [(٢)]

٢- ومنها حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ ، وهو أنه قَالَ : سَقَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ زَمْزَمَ فَشَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ . [(٣)]

وكذا رويت أحاديث أخرى في الشرب قاعدًا وقائمًا ، يقول الفقهاء الكرام : إن الشرب قاعدًا هو السنة في غير ماء زمزم ، أما قائمًا فكان ﷺ قد شرب قائمًا ؛ لبيان نفي الحرمة ، أوللعذر، وثبت أيضا من بعض الأحاديثِ الجوازُ ، ومن بعضها الزجرُ ، فلأجل زجره ونهيه عنه لا ينبغي للمسلم أن يشرب قائمًا ، وإن فعل يكره ذلك تنزيهًا .

---

(١) أثر السنة في البيئة والصحة ٢٩٦ ، پيس پبلی كيشن .

(٢) أخرجه مسلم : الأشربة /كراهية الشرب قائما رقم ٢٠٢٤، من طريق همام وسعيد عن قتادة عن أنس ﷺ ، ورقم ٢٠٢٥ من طريق قتادة عن أبي عيسى الأسواري عن أبي سعيد الخدري

(٣) أخرجه البخاري ١٦٣٧، ومسلم ٢٠٢٧ .

قصة تحكي أعجوبة السنة

وهناك قصة رائعة قصَّها شيخنا مولانا عبيد الرحمن خان الندوي : ذات يومٍ من الأيام أن رجلا مسلمًا بأمريكا نزل من سيارته التي يقود مِقْودها ، فذهب للماء وشرب قاعدًا أمام المشاة ، فرآه دكتور نصراني ، وعجب من فعله ، فسأله عنه ، فقال الرجل : هذا من سنة نبي الإسلام !

فقال الدكتور للرجل : بحثت عن أفضل طرق الشرب منذ زمن طويل ، واليوم وافقتَ بحثي ! ونتج لي أن القيام في الشرب بعد التعب قد يشرف به على الموت ! وفيه خطر شديد على القلب والكبد والكلاوي !! فأمْكِنِّي أن أقضي معك بعض الوقت ، وأتعلم منك المزيد في هذا الأمر ، ثم بعد لقائين أوأكثر أسلم الدكتور النصراني في المركز الإسلامي بأمريكا !

النوم على الشق الأيمن

وقد جائت في هذا الصدد أحاديث كثيرة ، فمنها :

١- حديث البراء بن عازب ﵁ ، قال : قال النبي ﷺ «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللّٰهُمَّ أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لاملجأ ولامنجى منك إلا إليك ، اللّٰهُمَّ آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت ، فإن مُتَّ من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به» .

قال : فرددتها على النبي ﷺ ، فلما بلغت « اللّٰهُمَّ آمنت بكتابك الذي أنزلت» قلت : ورسولك قال : لا ، « ونبيك الذي أرسلت» .[١]

وفي روايةٍ أخرى عن البراء بن عازب ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن قال:« اللّٰهُمَّ أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ و لا منجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت» ، وقال ﷺ : من قالهن ثم مات تحت ليلته مات على الفطرة .[٢]

اختلاف الأطباء في أفضل طرق النوم

وأغلب نومه ﷺ كان على الشق الأيمن ، وهو السنة في غير العذر ، وقد اختلفت الأطباء في أفضل طرق النوم ، فبعضهم رجحوا الجانب الأيمن ، وهم الأكثر ، والجمهور منهم . وبعضهم رجح الأيسر . وكل يستدلون بفوائد من قسم واحد !

والتوفيق بينهما : أن الأيمن هو الأفضل ، وأما الأيسر فهو لمن به مرض أوعذر ، فإن من به الأمراض القلبية (**Heartdisease**) والتنفسية (**espiratory disease**) فنومه على الأيسر خطيرة كبيرة . والقضاء فيه من حيث الطب والدواء للمريض والداء ، ولكن في الحالة العامة فليس إلا النوم على الطرف اليمين . كما شاع تقرير في الجريدة . وللتفصيل انظر الجريدة

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٤٧، ومسلم رقم ٢٧١٠ .

(٢) أخرجه البخاري ٦٣١٥ ، والترمذي ٣٣٩٤، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

اليومية «الانقلاب» ١٧ اليناير ٢٠١٦ ، تحت العنوان : «فائدة النوم على الجانب الأيسر» .

فوائد النوم على الشق الأيمن

١- ومن أول ما يذكر من منفعته : أن الكبد أكبر من المعدة ، والمعدة أصغر من الكبد ، وتقع على الجانب الأيمن فوقه ، فإذا ينوم الرجل كذلك تستريح المعدة فوقه . وأما العكس فتتأثر المعدة لثقل الكبد عليها ؛ وخاصة في أول النوم .[١]

وورد في مجلة «النفس المطمئنة» (٤١ يوليو ٢٩، ١٩٩٤) تحت العنوان «من هديه في علاج الأرق» : ومن هديه : النوم على الجانب الأيمن ، لأن النوم على الأيسر يضر بالقلب ويعيق التنفس .

٢- ويفيد النوم على الأيمن للكبد ، ويسلمه من المرض .

٣- تصلح به قوة الجهاز الهضمي الذي يحوِّل الغذاء لأن يمتصه الجسم .

٤- وقال لال كرشنو بورما دَكتور المستشفى بِبُوْمْبَاي ، الهند ، بعد بحث طويل : نرى أن أيما مريضٍ ينوم في مستشفانا على شقه اليمين يصح سريعا بمقابل النائم على اليسار ، وكذا شاع في الجريدة اليومية «الإحسان»[٢] ٢٣ ذو الحجة١٤٣٨، تحت عنوان «فائدة النوم على الجانب الأيمن» لمحمد معروف .

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية للشيخ صالح بن أحمد رضا صـ: ١٠٤ .

(٢) وهي جريدة فرقة القاديانية الضالة ، وأخذنا منها للمعلومات في الطب فقط ، وليس لنا في عقيدة بها .

كراهة السهر بعد نصف الليل

وقد وردت أيضًا أحاديث عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها.(١)

فالنظام العام الذي يعطيه الرسول ﷺ أن ينام الإنسان بعد العشاء ولا يستمر في السهر إلى منتصف الليل أوأكثر من ذلك، لأنه يؤثر على الإنسان وصحته.(٢)

وهذه سنة عادية له، وكل سنةٍ من سننه ـ سواء كانت عادية أومؤكدة ـ كأنها عجلة حياة الناس في شارع جنته، وهذه التسمية ـ عادية ومؤكدة ـ لم تكن في عهد الرسول، وإنما حدثت بعده بقرون لقلة اهتمام الناس بالسنة، وإلا فكان الصحابة ﷺ يهتمون بكل عادة من عادات النبي ﷺ حتى في مشيه وسيره وطعامه وأكله! وحتى في تبوله واستنجائه!!

العجوة دواء

وعن عائشه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في عجوة العالية شفاء وإنها ترياق أولَ البُكرة».(٣)

«أول البكرة» ظرف، و«البكرة» معناه: الصباح، «العجوة» ضرب من أجود تمر المدينة وألينه، «الترياق» دواء يعالج به المسموم، فأطلق على

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٨، ومسلم ٦٤٧.

(٢) الإعجاز العلمي صـ: ٩٧.

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٤٨، وأحمد ٢٥١٨٧ و٢٤٧٣٥ بألفاظ مختلفة.

العجوة ذلك الإسم تشبيهًا به .[١]

قال الإمام النووي : قَوْلُهُ ﷺ «أَوَّلَ الْبُكْرَةِ» هُوَ بِمَعْنَى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى «مَنْ تَصَبَّحَ»، وهو كما سيأتي في التالية .[٢]

ورواية أخرى عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاص ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ» .[٣]

وقد روي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «ومن اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة ، لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل» .[٤]

فلينظر ما في العجوة من مضادات للسم تؤثر فيه ، ويبقى تاثيرها طول النهار ، ولينظر أيضًا كونها تؤخذ في الصباح على الريق ، فهذا رسول الله ﷺ يعطينا النتيجة التي توصلنا إلى الاستفادة من التمر في أمور مختلفة .[٥]

وقد روي في روايةٍ أخرى : «خير تمراتكم البرنيُّ يذهب الداء ، لا داء فيه» .[٦]

---

(١) الإعجاز العلمي صـ: ٢٨٩ .

(٢) شرح النووي ٣/ ١٤.

(٣) أخرجه البخاري ٥٤٤٥، ومسلم ٢٠٤٧ .

(٤) أخرجه البخاري ٥٧٦٨، ومسلم ٢٠٤٧ .

(٥) الإعجاز العلمي صـ: ١٩٠ .

(٦) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» ٣/ ٢٠٦، واللفظ له ، والحاكم ٧٤٥٠ مطولاً ، وأبو نعيم في «الطب النبوي» ٨٢٢ . والحديث غير محفوظ .

وقال المناوي (١٠٣١هـ) : «خير تمركم» وفي نسخة : «ثمراتكم» البرني يذهب الداء ولا داء فيه ، أي فهو خير من غيره من الأنواع ، وإن كان التمر كله خيراً ، قال ابن الأثير : وهو ضرب من التمر أكبر من الصيحاني يضرب إلى السواد ، وهو مما غرسه النبي ﷺ بيده الشريفة بالمدينة ، قال : وأنواع تمر المدينة كثيرة ، استقصيناها فبلغت مائة وبضعاً وثلاثين نوعاً ، وزاد «ولا داء فيه» ، لأن الشيء قد يكون نافعًا من وجه ، ضارًّا من آخر .[١]

قال الدكتور صالح بن أحمد رضا : الأصل في كل ما تنتجه الأرض من الثمرات الطازجة أن لا يكون فيها داء ولا ضرر ، إلا إذا أخذ بطريقة غير طبيعية ، أو أكثر منه الإنسان ، والتمر من هذه الثمرات التي أوجدها الله لنا ، لكن التمر إضافة إلى هذا لا يكون وسيطا في نقل الجراثيم .[٢]

ما من داء إلا و له دواء إلا الهرم

وقد روي في هذا الأمر عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» .[٣]

وفي الحديث إشارةٌ إلى أن كل أمورِ الخلْق مُقدرة بقدر الله ، وقد يسَّر الله لعباده الأسباب التي توصِلُهم إلى دفع المضرَّات والوُصولِ إلى ما فيه منفعتهم .

(١) فيض القدير ٣/ ٤٨٤ .

(٢) الإعجاز العلمي صـ: ٢٨٨ .

(٣) أخرجه البخاري : الطب / ما أنزل الله داء إلا أنزل الله له شفاء ٥٦٧٨ .

قوله ﷺ : «مَا أنزَلَ اللهُ داءً» يعني ما أصاب اللهُ أحدًا من عباده من بلاء ، ومرض نفسي ، أو جسدي إلا أنزل وقدر له «شِفاءً» أي : علاجًا يُزيلُ هذا المرَض .

وفي الحديثِ الإرشادُ إلى تَعلم طب الأبدان والأخذ بأسباب التداوي . وبيانُ رحمة الله بعباده ، وأنه كما أنزل الداءَ أنزل له الدواء ، والحث على طلب الدواء من أشياء الأرض ، وأن التداوي ليس ضد التوكل .[1]

وإعجاز هذا الحديث قد ظهر كاملا في هذا العصر المزدهر ، فما كان في قديم الزمن من الداء الذي يشرف الناس على الموت لسببه ؛ قد صنع الأطباء الحاضرون دوائه مثل : الطاعون والحمى الخطير أي : حمى الأمعاء (**typhoid**) وغيرهما .

وهذا الحديث روي بزيادة «إلا الهرم» ،كذا في السلسلة الصحيحة رقم ٥١٨ . نعم ! إن الهرم لا داء له ، فمهما كانت التكنوليجية تعرج إلى العلى لا تصل إلى رده ، وقد نرى بعضهم يسعون لإطالة شبابهم بالعملية الجراحية التجميلية وغيرها ، ولكن يعجزون عنها ، فمها يزيد سنهم تضعف قوتهم لثقل العمر !

العطاس رحمة

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله، وليقل أخوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له : يرحمك الله ،

---

(١) الإعحاز العلمي صـ: ٧٨٠-٧٨٤.

فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم» .[١]

ووجه الحمد لأن العطاس نعمة أنعم الله بها على العاطس ، فتستحق الحمد منه ، وذلك لما حصله من المنفعة بخروج ما اختنق في دماغه من الأبخرة المذيئة .

رد التثائب ما استطاع

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ، وفيه وأما التثاؤب : فإنما هو من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان».[٢]

فتح الفم كراهة عند كل الناس والمجتمع ، ومع ذلك فيه وجه طبي ، قالت الدكتورة سهام سلطان: وذلك لأن فتح الفم كثيرًا بالتثائب يضر بالمفصل الفكي الصدغي ويمزق الأربطة المفصلية في المفصل مما يؤدي إلى التهابه ، وإلى الآلام الشديدة التي لا يستطيع الطبيب أن يردها في تلك المنطقة .[٣]

فظهر بما تقدم أن رسولنا الكريم ﷺ لا يدلنا إلا إلى الخير ، ولا يسن لنا إلا ما فيه صلاحنا في الدارين .

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٢٤ ، والترمذي ٢٧٤٧، وقال : هذا حديث صحيح .

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٢٦، والترمذي ٢٧٤٧، وقال : هذا حديث صحيح .

(٣) الإعجاز العلمي صـ: ١٠٥-١٠٩ .

هَلِ الْحَبَّةُ السوْدَاءُ شِفَاءٌ من كل دَاءٍ إلاَّ السَّام ؟

روي في الحديث أنَّ الحَبَّةَ السوْدَاءَ شِفَاءٌ من كل دَاءٍ إلاَّ السَّام ، والسام هو الموت ، ولكن قد اعترض عليها الغرب والمستشرقون بأنها « ليست بدواء لكل داء ، فلو كان كذلك فلا يقتضي لإحداث أدوية أخرى لأدواء أخرى ؛ بل تكون هذه الحبة الواحدة تكفي شفاء من كل داء ، وليس كذلك ، لكونه من لهو الأقاويل و عبثها ، ومثل ذلك لا يقوله الأنبياء » .

وهكذا سعوا في تعليل هذا الحديث و شككوا فيه . ولكنه روي بطرق صحيحة مشهورة ثابتة لا ينبغي الشك فيها .

عن أبي هريرة ﵁ : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « في الحَبَّةِ السوْدَاءِ شِفَاءٌ من كل دَاءٍ إلاَّ السَّام ».[1]

قال ابن القيم : والسام الموت ، والحبة السوداء : هي الشونيز في لغة الفرس ، وهي الكمون الأسود .[2]

أخرجه الإمام البخاري في « صحيحه » (الطب/الحبة السوداء رقم ٥٦٨٨) ، كما أخرجه من حديث عائشة -رضي اللَّه عنها- (٥٦٨٧) ، وكذا مسلم (٢٢١٥) عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁ ، وأخرجه الإمام الترمذي عن أبي هريرة ﵁ أيضًا (الطب/ما جاء في الحبة السوداء رقم ٢٠٤١) وقال : وفي الباب عن بريدة وابن عمر وعائشة ﵃ بالأرقام ٣٤٤٧ ، ٣٤٤٨ ، ٣٤٤٩ .

---

(١) أخرجه البخاري ٥٦٨٨، ومسلم ٢٢١٥، والترمذي ٢٠٤١، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الطب النبوي ٤٢٧ .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة (٧٢٨٧) ، قال محقق المسند : وأخرجه الحميدي (١١٠٧) كما أخرجه الإمام أحمد من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه ومن حديث عائشة رضي الله عنها .

وهكذا روي بروايات وطرق عديدة ، وليس أحد من رجال الإسناد تكلم في هذا الحديث ، فمن شك في ثبوته وقع على شفا جرف هار .

وأما الإيراد بعموم الشفاء ، فالخلاصة في الجواب عنه : أن هذا عموم الإطلاقِ واللفظِ الذي يراد به الخصوص، كما قاله ابن القيم والخطابي وغيرهم، وليس من ضرورته كونه شفاء كاملا من كل داء في كل مناسبة ، وهذا أوسع من أن تستعمل على وجه واحد ، وكيفية واحدة ، بل تستعمل مفردة أي : وحدها بلا إضافة ، ومركبة بإضافتها إلى غيرها من المواد ، ومسحوقة ، وقد تستعمل أكلا ، وشربا ، وسعوطا ، وضمادا ، وغير ذلك ، ويستفاد بها فيه .

قال ابن القيم : وقوله ﷺ : «شفاء من كل داء» مثل قوله تبارك وتعالى : «تدمر كل شيء بأمر ربها»[الأحقاف : ٢٥] ، أي : كل شيء يقبل التدمير ونظائره .[١]

وقال الكرماني : يحتمل إرادة العموم منه بأن يكون شفاء للكل، لكن بشرط تركيبه مع الغير ، ولا محذور فيه ، بل تجب إرادة العموم ؛ لأن جواز الاستثناء معيار وقوع العموم فهو أمر ممكن، وقد أخبر الصادق عنه اللفظ عام بدليل الاستثناء ، فيجب القول به .[٢]

---

(١) زاد المعاد ٤/٢٩٧، والطب النبوي ٤٢٨ .

(٢) عمدة القاري ٣١/ ٣٠١ .

وإرادة العموم ظاهرة من ظاهر اللفظ ، ويدل عليها الاستثناء في قوله ﷺ : «إلا السام» ، فلولا إرادة إفادة العموم لم يجُز وقوع مثل هذا الاستثناء ، واستثناؤه الموتَ يدل على أن ما عداه من الداء ينفع في علاجه تناول الحبة السوداء ، ولكن ذلك متوقف على انتفاء الموانع وحصول الشروط .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : مُجَرَّدُ الأَسْبَاب لا يُوجِب حصولَ المسَبَّب ؛ فإن المطَرَ إذا نزَلَ و بُذِرَ الحَبُّ لم يكُنْ ذلك كافيا في حُصول النبَات، بَل لا بُدَّ من ريح مُرْبِيَةٍ بإِذْن الله ، ولَا بُدَّ من صرْف الانْتِفاء عنْه ؛ فلَا بُدَّ من تَمَام الشُّروط وزَوال المَوانع وكُلُّ ذلكَ بِقضاء اللهِ وقَدَره .

وكذلكَ الوَلَد لا يُولَد بمجَرَّد إنْزال الْماء في الفرج ، بل كَم مَنْ أَنْزَلَ ولَمْ يُولَدْ له ؛ بَلْ لَا بُدَّ من أَنَّ الله شاء خَلْقَه فتَحبَلُ المَرْأة وتُرَبِّيهِ في الرَّحِم وسَائِرُ مَا يَتِمُّ به خَلْقُهُ من الشُّروط وزَوَال المَوانِع . [١]

وقد ذكر الحافظ ابن حجر : أن طريقة التداوي بالحبة السوداء تختلف باختلاف الداء ، فقال : مَعْنى كَوْن الْحَبّة شِفاء مِنْ كُل داء : أنها لا تُسْتَعْمَل في كُل داء صِرْفًا بلْ رُبَّمَا أُسْتُعْمِلَتْ مُفْرَدَة ، وَرُبَّمَا أُسْتُعْمِلَتْ مُرَكَّبَة ، وَرُبَّمَا أُسْتُعْمِلَتْ مَسْحُوقَة وَغَيْر مَسْحُوقَة ، وَربما اسْتُعْمِلتْ أَكْلا وشُرْبا وسَعُوطا وضِمادا وغَيْر ذلكَ . [٢]

وعلى هذا فلا مانع من اشتراط أخذ الحبة السوداء بطريقة معينة ،

---

(١) مجموعة الفتاوى ٨/ ٧٠ .

(٢) فتح الباري ١٠/ ١٤٤ .

يختلف باختلاف المرض ، ولكن بشرط أن يثبت نفع هذه الطريقة إما بالتجربة وإما بالأبحاث بالعلمية ، ومع شرط زوال الموانع الأخرى .

ومن الأمراض التي تعالجها الحبة السوداء

قال العلامة ابن القيم : وهي نافعة من جميع الأمراض الباردة ، وتدخل في الأمراض اليابسة الحارة بعرض . وقد ذكر فوائدها من الأمراض الكثيرة ، ومن يرد فليطالع «الطب النوي» ٤٢٧-٤٣٠، ونذكر منها بعضا بالاختصار :

تفيد لتساقط الشعر ، وللصداع والبرودة ، والقمل وبيضه ، والدوخة وآلام الأذن والقراع ، والثعلبة ، والقوباء ، ولأمراض النساء ، والولادة ، والأسنان ، وآلام اللوز و الحنجرة ، ولمرض الشباب ، وللأمراض الجلدية ، وللثآليل ، والبهاق والبرص ، وسرعة التئام الكسور ، ولمرض السكر لارتفاع ضغط الدم ، ولإذابة الكوليسترول في الدم ، والالتهابات الكلوية ، ولعسر التبول ومنع التبول ، وللاستسقاء ، والتهابات الكبد ، والحمى الشوكية ، والمرارة وحصوتها ، والطحال ولأمراض الصدر والبرد ، وللقلب والدورة الدموية ، والمغص المِعَوِي ، والإسهال ، والقيء والغثيان ، والغازات والتقلصات ، والحموضة ، ولأمراض العيون ، وللسرطان ، والضعف الجنسي ، والضعف العام ، ولعلاج الخمول والكسل ، والتنشيط الذهني ، وسرعة الحفظ ولغيرها من الأمراض .

ويذكر الدكتور حسام عرفة أن أكثر من ١٥٠ بحثا ، تم نشره مؤخرا في الدوريات العلمية المختلفة عن فوائد استخدام الحبة السوداء ، والتي تؤكد على

الفوائد العديدة التي ذكرها القدماء عن هذا النبات ، ويأتي معظم هذه الأبحاث من أوربا وتحديدًا النمسا وألمانيا ، والتي تأتي في مقدمة الدول الداعية لإحياء طب الأعشاب كطب بديل ، وكذلك الولايات المتحدة ، هذا بالإضافة إلى بلدان العالم العربي والإسلامي .

وهكذا تلعب دورا أكبر للصحة البدنية الإنسانية العامة ، فسبحان من ألقى هذا الشفاء بِوَحيه على عبده ﷺ .

حديث الذباب وما فيه من شفاء وإيراد

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : «إذا وقع الذباب في شراب أحدِكم فلْيغمِسْه ثم لينزعْه، فإن في إحدى جناحَيْه داء والأُخْرٰى شِفاء» ، وفي روايةٍ : «فليغمسه كلَّه ثم ليطرَحْه ، فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء» .[1]

وقد أشكل على بعض المعترضين ، فشككوا فيه وعلَّلوه ، حيث غمس الذباب في الطعام ثم أكله خلاف للطبيعة والذوق !

ولا ينبغي لمسلم أن ينكر حديثا بعد أن اشتهر من رسول الله ﷺ برواية أصحابه مثل أبي سعيد الخدري ﷺ وأبي هريرة ﷺ حيث إنه روى الأئمة الحفاظ كالبخاري وأبي داود وابن ماجة والدارمي وغيرهم في كتبهم .

ويعترض بأن الحديث ضعيف ، وأن إخراج البخاري لهذا الحديث في

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٢٠، و٥٧٨٢ (مع شرحه فتح الباري ٦/ ٤١٤ و١٠/ ٢٦٠ - ٢٦١) ، وأبو داود ٣٨٣٨ (مع شرحه عون المعبود١٠/ ٢٣١) ، والنسائي ٤٥٨٨ ، وابن ماجة ٣٥٠٤ .

«جامعه» لا يعصمه من التماس علة في رجاله تمس مناعة صحته ؛ فإن مداره عنده على عُبيد بن حُنين مولى بني زُريق ، وقد انفرد به ، وليس له غيره في صحيح البخاري ، كما أن عبيد بن حنين هذا ليس من أئمة الرواة المشهورين الذين تخضع الرقاب لعدالتهم وعلمهم وضبطهم ، كمالك عن نافع عن ابن عمر ﷺ مثلاً .[1]

ولا نُسلِّم بأن الحديث ضعيف ؛ فإن عُبيد بن حُنين ثقة مع كونه قليل الحديث ، وقد وثَّقه غير واحد من أهل العلم كابن سعد وابن حبان وغيرهما ، ولم ينفرد البخاري بالرواية عنه ، بل روى عنه أصحاب الكتب الستة ، وكونه ليس من الأئمة المشهورين لا يمنع من صحة حديثه .[2]

وفي هذا الحديث إشارة إلى معاني كثيرة

قال العلامة الخطابي : فيه من الفقه أن أجسام الحيوان طاهرة إلا ما دلت عليه السنة من الكلب وما ألحق به ، وفيه دليل على أن ما لا نفس له سائلة إذا مات في الماء القليل لم ينجسه ، وذلك أن غمس الذباب في الإناء قد يأتي عليه ، فلو كان نجسه إذا مات فيه لم يأمر بذلك ، لما فيه من تنجس الطعام وتضييع المال ، وهذا قول عامة العلماء .[3]

وقال العلامة ابن القيم : هذا الحديث فيه أمران : أمر فقهي ، وأمر طبي ، فأما الفقهي ، فهو دليل ظاهر الدلالة جدًّا على أن الذباب إذا مات في ماء

---

(١) مجلة المنار ٢٧/ ٣٧ .

(٢) تهذيب الكمال ١٩/ ١٩٨ .

(٣) معالم السنن ٥/٣٤٠-٣٤١ .

أومائع ، فإنه لا ينجسه ، وهذا قول جمهور العلماء ، ولا يعرف في السلف مخالف في ذلك . ووجه الاستدلال به أن النبي ﷺ أمر بمقله ، وهو غمسه في الطعام ، ومعلوم أنه يموت من ذلك ، ولا سيما إذا كان الطعام حارًّا ؛ فلو كان ينجسه لكان أمرًا بإفساد الطعام ، وهو ﷺ إنما أمر بإصلاحه ، ثم عدى هذا الحكم إلى كل ما لا نفس له سائلة ، كالنحلة والزنبور والعنكبوت وأشباه ذلك إذ الحكم يعم بعموم علته ، وينتفي لانتفاء سببه ، فلما كان سبب التنجيس هو الدم المحتقن في الحيوان بموته ، وكان ذلك مفقودا فيما لا دم له سائل انتفى الحكم بالتنجيس لانتفاء علته .[(١)]

أما من يقول : بأنه غريب عن الرأي لأنه يُفرِّق بين جناحي الذباب ، ولأن الحديث يدعي أن أحدهما يحمل سما والآخر شفاء ، وهذا يلزم التضاد الجنسي في جسم حيوان واحد ، وهو غير معلوم لدى الحكماء ؟ فالجواب عنه أن رسول الله ﷺ هو الذي فَرَّقَ نفسُه بينهما ، كما أن هذا الادعاء مخالف للواقع الذي يُجوِّزُ اجتماع كثير من المتضادات في الجسم الواحد كما هو مشاهد معروف ، ولو رجع أحدهم إلى أجوبة العلماء المتقدمين عن ذلك لوجد الشافي لمرضه .

قال العلامة الخطابي : «قد تكلم على هذا الحديث بعض من لا خلاق له ، وقال : كيف يجتمع الداء والشفاء في جناحي الذبابة ؟ وكيف تعلم ذلك حتى تقدم جناح الداء وتؤخر جناح الشفاء وما أربها إلى ذلك ؟

---

(١) الطب النبوي ١٦٤ .

قلت : وهذا سؤال جاهل أومتجاهل ، وإن الذي يجد نفسه ونفوس عامة الحيوان قد جمع فيها بين الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، وهي أشياء متضادة إذا تلاقت تفاسدت ، ثم يرى الله قد ألف بينها وقهرها على الاجتماع ، وجعلها سببا لبقاء الحيوان وصلاحه ، لجدير أن لا ينكر اجتماع الداء والدواء في جزأين من حيوان واحد ، وأن الذي ألهم النحل أن تتخذ البيت العجيب الصنعة وأن تعسل فيه ، وألهم النملة أن تكتسب قوتها وتدخره لأوان حاجتها إليه هو الذي خلق الذبابة ، وجعل لها الهداية أن تقدم جناحًا وتؤخر آخر ، لما أراد من الابتلاء الذي هو مدرجة التعبد ، والامتحان الذي هو مضمار التكليف ، وفي كل شيء عبرة وحكمة ، وما يذَّكَّر إلا أولوا الألباب» . [١]

وقال ابن قتيبة : فما ينكر من أن يكون في الذباب سم وشفاء ، إذا نحن تركنا طريق الديانة ورجعنا إلى الفلسفة ؟ وهل الذباب في ذلك إلا بمنزلة الحية ؟ فإن الأطباء يذكرون أن لحمها شفاء من سمها إذا عمل منه الترياق الأكبر ، ونافع من لدغ العقارب و عض الكلاب الكلبة.....إلخ ، وكذلك قالوا في العقرب : إنها إذا شق بطنها ، ثم شدت على موضع اللسعة نفعت ..... إلخ ، والأطباء القدماء يزعمون أن الذباب إذا ألقي في الإثمد وسحق معه ثم اكتحل به زاد ذلك في نور البصر ، وشد مراكز الشعر من الأجفان في حافات الجفون..... ، وقالوا في الذباب : إذا شدخ ووضع على موضع لسعة العقرب

---

(١) معالم السنن ٥/ ٣٤١-٣٤٢ .

سكن الوجع ، وقالوا : مَن عَضَّه الكلب احتاج إلى أن يستر وجهه من سقوط الذباب عليه ، لئلا يقتله ، وهذا يدل على طبيعة فيه شفاء أوسم .(١)

والمهم من إيراد هذا الكلام أن اجتماع المتضادات في الجسم الواحد ليس بمستغرب شرعًا ولا حسًّا ولا واقعًا .

وأما ما يقال : إن الحديث ينفي مضار الذباب ؛ لإثبات الحديث شفائه ؟ فإن الحديث كما سبق لم ينف ضرر الذباب بل نص على ذلك صراحة ، ومع ذلك يُثبِتُ أنه كما فيه ضرر كذلك إيفائه أيضا موجود .

وهل علماء الطب وغيرهم أحاطوا بكل شيء علمًا حتى يصبح قولهم: هو الفصل الذي لا يجوز مخالفته؟ بل هم معترفون بأنهم عاجزون عن الإحاطة بكثير من الأمور ، وهنالك الكثير من النظريات التي كانت تؤخذ إلى عهد قريب على أنها مسلمات تبين بطلانها وخطؤها فيما بعد ، بينما الذي نطق به رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا وحيًا من عند الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، فأي إشكال في أن يكون الله تعالى قد أطلع رسوله ﷺ على أمر لم يصل إليه علم الأطباء بعد ومِن قبل ؟ وهو سبحانه خالقُ الحياة والأحياء ، قال تعالى : ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك ١٤] ، فلماذا لا يكون ما يحمله الذباب على جناحيه من شفاء وسم مما خفي علمه عن الأطباء اليوم !

وقال ابن القيم : وهذا طب لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم ، بل هو خارج من مشكاة النبوة ، ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفق يخضع

---

(١) تأويل مختلف الحديث ٢٣٠-٢٣١ .

لهذا العلاج ... وقال : وقد ذكر غير واحد من الأطباء : أن لسع الزنبور والعقرب إذا دلك موضعه بالذباب ، نفع منه نفعا بينا ، وما ذاك إلا للمادة التي فيها من الشفاء .[(١)]

ثم القول فيه :كما صح هذا الحديث عن رسول الله ﷺ ، فالواجب على المسلم أن يسلمه ويعتقده فقط ، ولا يجب عليه أن يغمس جناح الذباب الأخر ، بل يجوز له أن لا يفعل ويقذب ما في إنائه ، فإن الأمر بالغمس هنا أمر إرشاد وبيان ، أي : يبين به النبي ﷺ ما فيه من حكمة طبية ،كقولنا : إذا أعجبك الطعام فكُلْ ، فلا يكون الأمر هنا للوجوب ، فللمأمور حريته واختياره أن يأكل أو لا ، وكذا الأمر في الحديث ليس أمرًا إيجابيًّا يأثم تاركه ؛ إذ لم يثبت الوجوب من الشريعة ، لا من آيات القرآن ولا من أحاديث أخرى ، ولا من أصحاب النبي ﷺ ، ولم يقل بوُجوبِه أحد من علماء الأمة وفقهائها ومحدثيها ، وهكذا قال أستاذنا المكرم العلامة سعيد أحمد البالنبوري -مُدَّ ظله العالي- شيخ الحديث بدار العلوم بديوبند ، الهند .

حديث الرعد وهل الرعد ملك ؟

وعن عبد الله بن عباس ﷺ ، «الرَّعدُ ملَكٌ من ملائكةِ اللّهِ ، مُوكَّلٌ بالسَّحابِ ، معه مَخاريق من نارٍ ، يسوقُ بها السحابَ حيث شاء اللّهُ» .[(٢)]

ويرد على ظاهر الحديث ، فإن عند الفلاسفة أن الرعد يحدث من

---

(١) الطب النبوي ١٦٥ .

(٢) أخرجه الترمذي ٣١١٧، والنسائي في «الكبرى» ٩٠٢٤، وقال : هذا حديث حسن غريب .

حركة الريح للبرود المتجمدة في السحاب . وكذا قاله المعلق على الانتباهات نقلا من روح المعاني ١٣/ ١١٩. وهذا هو المشهور الآن .

ثم الحديث لم ينف هذا المذهب الفلسفي ، ويمكن أن هناك سببَيْن ، أحدهما : كما قاله الفلاسفة ، والثاني ما قاله النبي ﷺ . [١]

ولكن يمكن أيضًا أن الرعد الحادث من حركة الريح هو الملك كما قاله النبي ﷺ ، فإنه لا يَعلم أحد صورة الملائكة ، وهذا من المخفيات التي لا تظهر إلا بالوحي ، فلا يتقين إلا بما قاله صاحب الوحي ﷺ .

تزوُّجُ الودودِ الولودِ

وقد ورد عن أنس بن مالك ﷺ : «تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلودَ ، فإني مُكَاثِرٌ بكم الأنبياءَ يومَ القيامةِ» . [٢]

قوله ﷺ : «تَزوَّجوا الوَدُودَ» ، أي : التي تُحِبُّ زوجَها محبة شديدة . و«الوَلودَ»، أي كثيرة الولادة ، ويُعْرَفُ ذلك بالنظرِ إلى نسائها القريبة منها ؛ كأمها، وأختها ، وخالتها . «فإنِّي مُكاثِرٌ بكُمُ الأُمَمَ» ، أي : مُفاخِر بكثرتكم الأممَ السابقةَ على أنبيائها يوم القيامة .

ففي الحديث الترغيبُ في التزويج بالودود الولود ؛ لما فيه من نفعٍ يعود على الزوج خاصةً وعلى الأمّة المسلمة عامةً في الدنيا والآخرة .

---

(١) الانتباهات المفيدة للتهانوي صـ: ١٧٤-١٧٦ .

(٢) أخرجه أحمد ١٢٦١٣، و١٣٥٦٩ ، والنسائي ٣٢٢٧ ، والطبراني في «الأوسط» ٥٠٩٩، وابن حبان ٤٠٢٨ باختلاف يسير ، وأخرجه أبو داود ٢٠٥٠ بلفظ «مكاثر بكم الأمم» .

قال الدكتور صالح بن أحمد رضا : وهذا الأمر وإن كان سهلا في المجتمعات الضيقة الصغيرة ، إلا أنه في المجتمعات التي اتسعت وامتدت كما في عصرنا هذا قد يبدو الأمر ليس بهذه السهولة ، ولذا وجدنا في كثير من البلدان يشترطون عند الزواج إجراء فحث الدم على الزوجين لمعرفة مدى تلائم كلاهما ، أي : هل في تزوجهما قابلية الولادة أم لا ؟ (١)

فهذه القابلية من الأمور الهامة للمجتمع ، خاصة إذا كان مجتمعا إسلاميا ، بل هي مهمة للحياة الإنسانية كلها . ومن أثر ذلك الحديث نرى المسلمين الآن أكثر عددا في هذا العالم المستعمر من الأديان الأخرى ، وقد كانوا أولا غرباء ، وكانوا أقل الناس تعدادا في الأرض !

وفي العصر الراهن يتحير الغرب في المسلمين ، ويُقْبلون بكل جد وجهد لدفع هذه النعمة العظيمة التي أنعم بها الله على المسلمين ! ويمكرون بمخططات شنيعة فجيعة مخفية مخلوطة ، ﴿ومكروا ، ومكر الله ، والله خير الماكرين﴾ [آل عمران ٥٤] .

واعجبًا للمسلمين ! فقد وقعوا في مصيدتهم بغير علم أوبتجاهُل ، فويل لمن كسبها وهو رهين .

كيف يتحدد الجنس ذكرا أو أنثى ؟

وفي ذلك الصدد رويت أحاديث ببعض اختلاف ألفاظ الحديث ، وبسببه وقع الاختلاف في سبب تحدد جنس الولد وشبهه .

---

(١) الإعجاز العلمي صـ: ٥٢ .

١- وفي صحيح مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان ﷺ : وفيه قول رسول الله ﷺ : «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجلِ منيَّ المرأةِ أذْكَرا بإذن الله ، وإذا علا منيُّ المرأةِ منيَّ الرجلِ أنثيا بإذن الله» .

وتَثبُتُ ألفاظُ هذه الرواية أن سبب كون الولد ذكرًا أوأنثى هو علو ماء أبويه ؛ سواء كان سابقا أو لا !

٢- وكذا روي عن أنس ﷺ قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأتاه فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، قال : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ ... «وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غَشِيَ المرأةَ فسَبَقَها ماؤُه كان الشبهُ له ، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها» ، قال : أشهد أنك رسول الله... .[1]

ويثبت من ألفاظ هذه الرواية أن سبب شبه الولد بأحدِ أبويه هو السبق سواء علا أم لا ، ولم يتضح من هذه الرواية ما هو سبب كون الولد ذكرا أو أنثى؟ هل هو العلو أم لا ؟ فهذه الرواية في الظاهر لم تحدد سبب كون الولد ، بل تُبيِّنُ وجهَ الشبه فقط .

٣- وروي في مسند أحمد (٢٥١٤) من حديث ابن عباس ﷺ ، وفيه قوله ﷺ لجماعةٍ من اليهود حين جاؤوه : فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٢٩، و٣٩٣٨ .

المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان الولد والشبه (له) بإذن الله ، إن علا ماءُ الرجل على ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله ؟ قالوا : اللّٰهُمَّ نعم .....

وأما هذه الرواية فتبين وجه كليهما مِن تحدد الجنس والشبه ، أي سبب كون الولد ذكرا أو إنثى ، وسبب كون الشبه بأحد أبويه .

ومن هذه الروايات يختلف العلماء فيه ، فبعضهم يقول : ليس المراد من هذه الرواية تحديد الجنس ، بل الشبه فقط . وبعضهم يقول : تحديد الجنس فقط ، ليس الشبه . فسواء كان ماء أحدهما سبق الآخر أوعلا ماء أحدهما على الآخر ، فليس منه إلا أحد الإثنين ، أي : تحديد الجنس أوالشبه فقط ، لا كلاهما .

ومن ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الإذكار والإيناث ليس له سبب طبيعي ، وأن ما جاء في حديث مسلم عن ثوبان ﷺ «فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجلِ منيَّ المرأةِ أذْكَرا بإذن الله ، وإذا علا منيُّ المرأةِ منيَّ الرجلِ أنثيا بإذن الله»، فهو الذي اشتمل النصَّ على تحدد جنس الجنين ، هو وهْمٌ من بعض رواته ، بل الحديث في الشبه بأحد الأبوين ، ليس في تحديد الذكورة والأنوثة ، كما يُثبِت حديث أنسٍ هذا الشبهَ فقط ، ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، والشيخ العثيمين من المعاصرين .

وقال العلامة ابن القيم : وسئل ﷺ عن شبَه الولد بأبيه تارة وبأمه تارة فقال : «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة كان الشبه له ، وإذا سبق ماء المرأة ماء

الرجل فالشبه لها» وهو متفق عليه .

وأما ما رواه مسلم في «صحيحه» أنه قال ﷺ : «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر الرجل بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنث بإذن الله»، فكان شيخ الإسلام ابن تيمية يتوقف في كون هذا اللفظ محفوظا ، ويقول : «المحفوظ هو اللفظ الأول» ، والإذكار والإيناث ليس له سبب طبيعي وإنما هو بأمر الرب تبارك وتعالى ، فللملك أن يخلقه كما يشاء ، ولهذا جعل مع الرزق والأجل والسعادة والشقاوة .[1]

ولكن هذا المذهب مرجوح ، فإن أكثر العلماء على أن سبق الماء هو السبب لتحديد الجنس .

وقد شرح الحافظ ابن حجر هذه الأحاديث وجمع بينها في كتابه «فتح الباري»، فقال : «قوله ﷺ «فإذا سبق ماء الرجل» ، وفي رواية الفزاري : «فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه» ، قوله : «نزع الولد» ، ووقع عند مسلم من حديث عائشة : «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه أعمامه ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه أخواله» ، ونحوه للبزار عن ابن مسعود ﷺ ، وفيه : «ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما أعلى كان الشبه له»، فالمراد بالعلو هنا السبق ؛ لأن كل من سبق فقد علا شأنه فهو علو معنوي .

وأما ما وقع عند مسلم من حديث ثوبان ﷺ رفعه : «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله ، وإذا

---

(١) إعلام الموقعين ٤/ ٢٦٩ .

علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله» ، فهو مشكل من جهة أنه يلزم منه اقتران الشبه للأعمام إذا علا ماء الرجل ، ويكون ذكرا لا أنثى وعكسه ، والمشاهد خلاف ذلك؛ لأنه قد يكون ذكرا ويشبه أخواله لا أعمامه وعكسه.

وقال القرطبي : يتعين تأويل حديث ثوبان ﷺ بأن المراد بالعلو : السبق .

قلت : والذي يظهر ما قدمتُه ، وهو تأويل العلو في حديث عائشة ﵂ ، وأما حديث ثوبان ﷺ : فيبقى العلو فيه على ظاهره ، فيكون السبق علامة التذكير والتأنيث ، والعلو علامة الشبه ، فيرتفع الاشكال ، وكأن المراد بالعلو الذي يكون سبب الشبه : بحسب الكثرة ، بحيث يصير الآخر مغمورًا فيه ، فبذلك يحصل الشبه .

وينقسم ذلك إلى ستة أقسام : الأول : أن يسبق ماء الرجل ويكون أكثر فيحصل له الذكورة والشبه ، والثاني عكسه ، والثالث : أن يسبق ماء الرجل ويكون ماء المرأة أكثر ، فتحصل الذكورة والشبه للمرأة ، والرابع عكسه ، والخامس أن يسبق ماء الرجل ويستويان فيذكر ولا يختص بشبه ، والسادس عكسه» . (١)

وبهذا يعلم أن قول السائل «والمعروف أن ماء المرأة أسرع من ماء الرجل؟» إذا كان المقصود منه أن ماء المرأة هو الذي يسبق دائما فهو غير صحيح ، وأما الإسراع في الإنزال فيرجع إلى رغبة الرجل في ذلك ، ولكن لا يلزم منه أن يسبق ، فقد يسرع الرجل و يسبق ماؤه ماء المرأة ، وقد يسرع

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٧٣ .

وتكون المرأة أسرع منه فيسبق ماؤها ماءه .

نعم ، هكذا يُعلَم بالتدبر في الحديث : أن السبق هو السبب لتحديد الجنس ، أما حديث ثوبان ﷺ فيأوَّل العلوُّ فيه بالسبق أيضا ، فيكونُ سببَ التذكير والتأنيث ، ثم إبقاء العلو في حديث ثوبان ﷺ على معناه الظاهر وهو الكثرة والغلبة هو علامةُ الشبه بحسب الغلبة ، فيرتفع الإشكال .

وقال الشيخ صالح المنجد : وقد ذهب أكثر العلماء والأطباء المعاصرين إلى أن الرجل هو المسئول عن تحديد جنس المولود بإذن الله ، وأن المرأة هي كالأرض المزروعة ، لا خيار لها في الزرع ، فما يُزرَع فيها تُنبته بإذن ربها ، وقد صرح به القرآن الحكيم .

وقال الدكتور محمد علي البار : ومن المقرَّر علميًّا أن جنس المولود يتحدد في اللحظة الأولى التي يلتقي فيها الحيوان المنوي بالبويضة فيلقحها ، فإذا ما التقى حيوان منوي يحمل شارة الذكورة "**Y**" بالبويضة ؛ فإن الجنين سيكون ذكرًا بإذن الله ، وأما إذا كان الحيوان المنوي سيلقح البويضة يحمل شارة الأنوثة ؛ فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله ؛ إذًا الحيوان المنوي أونطفة الرجل هي التي تحدد نوعية الجنين ذكراً أم أنثى ، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم ٤٥-٤٦] .

فالنطفة التي تُمنٰى هي نطفة الرجل بلا ريب ، ويقول الله تعالى أيضًا : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن

يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة ٣٦ -٤٠] . (١)

وذهب إليه الأكثرون ، ويقولون : إن حديث ثوبان ﷺ وغيره صحيح ، وإنه لا إشكال في كون علو ماء المرأة يسهم في تخلق المولود إلى أنثى ، إن أذن الله بذلك ؛ فإنه يؤثر في اختيار الحيوان المنوي المذكر أوالمؤنث ، دون أن يكون له دور رئيسي ، فرجع الأمر إلى أن المؤثر الحقيقي هو ماء الرجل ، فالمرأة هنا تُسَاهِمُ بِدَوْرٍ ثانويٍّ ، وذلك بتهيئة الظروف لاستقبال الحيوان المنوي، فالوسط الحامضي يقتل "**Y**" ويبقي على "**X**" من الحيوانات المنوية ، فيكون جنس المولود أنثى "**XX**" .

وقال الدكتور محمد علي البار : وتضمن الحديث يعني : حديث ثوبان ﷺ وصفًا لماء الرجل وماء المرأة ، كما تضمن قضية الذكورة والأنوثة ، وأرجعها إلى أي الماءين علا ، فالإذكار أوالإيناث تبع له .

ويبدو ذلك معارضاً للآيات الكريمة التي ذكرت أن جنس الجنين يحدده مني الرجل فحسب ، (وذكر آية النجم وآية القيامة)، كما يبدو معارضًا للمعلومات الطبية التي تؤكد أن جنس الجنين إنما يحدِّده الحيوان المنوي الذي سيلقح البويضة ؛ فإن كان حيوانًا منويًّا يحمل شارة الذكورة "**Y**" ، كان الجنين ذكرًا بإذن الله ، وإن كان حيوانًا منويًّا يحمل شارة الأنوثة "**X**" كان الجنين أنثى بإذن الله .

وفي الواقع ليس هناك تعارض ، وربما أثّر علوُّ ماء الرجل أوماء المرأة

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن صـ: ٢٩٧-٢٩٨ .

في الحيوانات المنوية التي سيفلح واحد منها بإذن الله في تلقيح البويضة أيضًا ، ونحن نعلم أن إفرازات المهبل حامضية وقاتلة للحيوانات المنوية ، وأن إفرازات عنق الرحم قلوية ، ولكنها لزجة في غير الوقت الذي تفرز فيه البويضة ، وترق وتخف لزوجتها عند خروج البويضة ، وإلى الآن لا ندري مدى تأثير ماء المرأة على نشاط الحيوانات المنوية المذكرة أوالمؤنثة ، ولا بد من إجراء بحوث دقيقة لنتبيَّن مدى تأثير هذه الإفرازات على الحيوانات المنوية المذكرة أوالمؤنثة ، ومدى تأثير علوها أوانخفاضها على نشاط هذه الحيوانات . وهناك من يقول: إن معنى العلو هو الغلبة والسيطرة، فإن كانت الغلبة للحيوانات المذكرة كان إذكار ، وإن كان للمؤنثة كان إيناث بإذن الله . [١]

والعجب كل العجب أن هذه النكتة الدقيقة والسبب المخفي قد بينها النبي ﷺ قبل أربع عشرة قرنًا ، حين لم يحدث مثل الآلات الحادثة ! [٢]

سعيد أحمد خان

دار العلوم لندوة العلماء

١٣، ١٢، ٢٠١٩م

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن صـ: ٣٩٠-٣٩١ .

(٢) الإعجاز العلمي صـ: ٥٦ .

خاتمة البحث

وهذا ما وفقناه الله تعالى في الإعجاز البياني والعلمي في الحديث النبوي الشريف ، ولقد أسلفنا البحث فيه وأجملنا اختصارًا، وأتينا بما أتيناه تحصيلاً. واكتفيت ببعض النماذج في كل أصل وقاعدة ، ولم نكثر في تقديم الأمثلة ؛ لكي لا يثقل على نظر القراء ، فإن الحديث النبوي هو نهر وحي يبقى ولا ينفد ، وعين جارية تدوم ولا تفنى ، فمن أين أخذت منه نفذت ، ومن حيث تأديت به تهديت .

وقد بيننا الفروق والعلاقات بين الأدب والدين ، فلا يفترق الأدب عن الدين ، فإن نشأة الأدب تبدأ من حيث تبدأ منه علاقة المذهب والدين ! ثم يُعَبَّر عن الأدب بتهذيب الأخلاق ، والحق كما يعبَّر عنه ، نعم! ولا ريب فيه !! فإن ما من حركة -علمية كانت أوعملية ، فكرية كانت أوعقلية- أمطرت كالغيث الكثير أوجرت كالسيل العرم ، فلم تكن إلا اتكالا على كواهل الأدب! وما من تيار أتى أوأصاب ، جَفا أوقَسا ، فلم يكن مشيا إلا بطريق الأدب !!

ومن هنا تتضح علاقة الأدب مع الحديث النبوي وبلاغته ، وقد ذكرنا في القسمين الأولين من المقالة تلك العلاقة تحت الإعجاز البياني النبوي ، فعندما ذكرنا مزايا البلاغة النبوية وأساليبها ، جهدنا أن نلزم الجانب اللغوي

في الإعجاز النبوي ، وبيننا أصل المصادر والمراجع في كل مباحث المقالة ما أخذنا منها مباحثنا .

وإن وقع اختلاف بعض النحاة في كون الحديث مستدلا لقواعد النحو والإعراب ! فقد أجبنا عنهم ، والحجة عليهم استشهاد ابن هشام وسيبويه وغيرهما بالحديث النبوي ، ثم حديث النية « إنما الأعمال بالنيات » يثبت به الإعجاز الكلامي النبوي على سائر أخواته ، فلو لم تتعدد الروايات في هذا الحديث لم تثبت فضيلته على سائر أجناسه .

وليس في وسع الناس أن يفصل ويشرح ذخائر الحديث كلها تفصيلا وشرحا كاملا ، فإننا وإن استطعنا القول في كيفية إجماله لم نستوعبه في كيفية تفصيله ، فما من أحد يغوص في بحره يجد دررا ولآلئ جديدة في كل غوصه ، وما علِمْناه قليل من كثير مخزنه !

فانظر ما روي عن النعمان بن بشير ، أن النبي ﷺ قال : « الحَلَالُ بَيِّنٌ ، والحَرَامُ بَيِّنٌ ، وبيْنَهُما مُشتبهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى المُشبهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهَاتِ : كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى ، يُوشِكُ أنْ يُوَاقِعَهُ ، ألَا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، ألَا إنَّ حِمَى اللَّهِ في أرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً : إذَا صَلحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، ألَا وهي القَلْبُ .[1]

إذ مثَّل -صلوات الله عليه وسلامه- حال من يقع في الشبهات فيتورط

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩، باختلاف يسير .

بسبب ذلك فيقع في الحرام ، لاقترابه من حدود الحرام ، بحال الراعي الذي يرعى أنعامه حول الحمى ، إنه يوشك أن يرتع في داخل الحمى .(١)

ومثْل هذا -مِن حسن التشبيه والتمثيل وروعة البلاغة- في الحديث النبوي قد جعله معجبا معجزًا ، فهذا تشبيه نقش به المعنى في ذهن القراء ، واتصلت به صوره بقلب الناظرين ، وهذا أسلوب قد أعجب به شرق الأرض وغربها ، واستعد الناس للنبي ﷺ بكلامه المعجز أن يضحوا أنفسهم للإسلام والإيمان !

نعم ، هكذا تفجر الكلام النبوي من أول يوم وروده من لسان النبي المبارك -على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام- وتدفق كمياه العين الحلوة الباردة ! وظل نبعا لا يجف ولا ييبس ، فأثْبَت أنه معجز من حيث الكلية على جميع أدباء الأرض وبلاغائها ، وليس أحد في العالم يساويه كلا وجمعا في كونه أفصح الدنيا وأبلغها ، فصلى الله تعالى على حبيبه وأحسن خلقه وأفضل مبلغي دعوته ورسالته ، وعلى آله وأصحابه ، الذين هم نجوم الهدى ومصابيح الدجى ، وبارك وسلم تسليما كثيرًا ! وسبحان الله بكرة وأصيلا !!

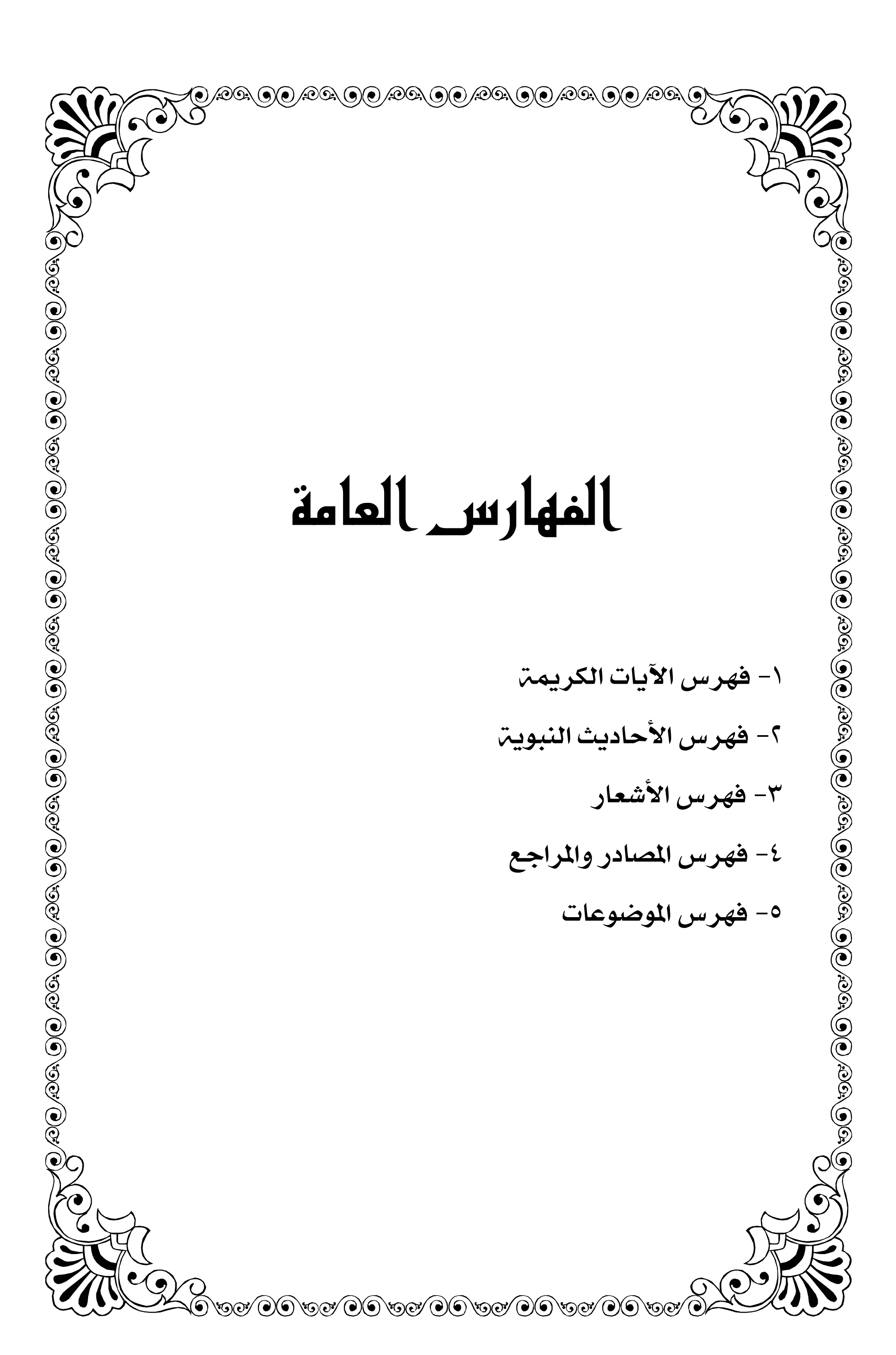
سعيد أحمد خان

دار العلوم لندوة العلماء

٢٠٢٠/٢/٨م

---

(١) روائع من أقوال الرسول صـ: ٢٢٩



الفهارس العامة



فهرس الآيات الكريمة

سورة يونس

سورة الهود

سورة الرعد

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الفرقان



فهرس الأحاديث النبوية

الحديث **الصفحة**



فهرس الأشعار



المصادر والمراجع

القرآن وتفسيره

القرآن الكريم

تفسير الطبري

تفسير القرطبي

تفسير ابن كثير

الكشاف للزمخشري

متون الحديث

صحيح البخاري

صحيح مسلم

سنن النسائي

سنن أبي داود

سنن الترمذي

سنن ابن ماجه

مسند أحمد

صحيح ابن حبان

المستدرك على الصحيحين

المعجم الكبير للطبراني

مصنف عبد الرزاق

مصنف ابن أبي شيبة

سنن الدارمي

شروح الحديث

فتح الباري للحافظ ابن حجر

عمدة القاري للعلامة العيني

نيل الأوطار للشوكاني
شرح النووي
شرح الطيبي
مرقاة المفاتيح لملا علي القاري
معالم السنن للخطابي
جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، إدارة الطباعة المنيرية
جامع العلوم والحكم لابن رجب ، ط، دار ابن الجوزي

التخريج والزوائد

التلخيص الحبير لابن حجر ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
نصب الراية للزيلعي
المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي ، دار الكتب العلمية .
كشف الخفاء للعجلوني ، مكتبة العلم الحديث
البدر المنير لابن الملقن

مصطلح الحديث

فتح المغيث للسخاوي
تاويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري

الأعلام والرجال

تهذيب الكمال للحافظ المزي
تقريب التهذيب
زاد المعاد
سير أعلام النبلاء للذهبي ـ مكتبة بيت الأفكار الدولية، السعودية
معجم الأدباء للحموي
وفيات الأعيان لابن خلكان ـ مكتبة دار صادر، بيروت
الأعلام للزركلي ـ دار العلم، بيروت

الفقه والفتاوى

رد المحتار (الفتاوى الشامية)

البحر الرائق

المجموع للنووي

المغني لابن قدامة ، ط، دار الحديث القاهرة

مراتب الإجماع لابن حزم

الإقناع في مسائل الإجماع للحميري

مواهب الجليل للشنقيطي

إرشاد الفقيه لابن كثير

غريب الحديث

النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، ط، دار ابن الجوزي

مجمع بحار الأنوار ، ط ، مجلس دائرة المعارف بحيدرآباد ، الهند

الأدب والبلاغة

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، ط، دار الكتاب العربي بيروت

وحي القلم ، ط، ١٩٤١

البلاغة النبوية في الأربعين النووية لخالد عبد العزيز، وزارة التعليم، جامعة أم الدمان، جمهورية السودان

روائع من أقوال الرسول لعبد الرحمن حسن حبنكة ، دار القلم دمشق

الإعجاز العلمي في السنة النبوية لصالح بن أحمد رضا ، مكتبة عبيدكان ١٤٢١

الإعجاز العلمي من القرآن والسنة للدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح

أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية عند بن هشام لإبراهيم صباح سلامة الطرشان ، عمادة الدراسات العليا ، جامعة موتة ، ٢٠١٤

النبوات لابن تيمية

أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة

دلائل الإعجاز للجرجاني ، مكتبة الخانجي بالقاهرة

البيان والتبيين للجاحظ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة

البلاغة النبوية في ضوء تعدد الروايات للدكتور يوسف العليوي ، مجلة العلوم العربية ، العدد الرابع والعشرون ، رجب ، ١٤٣٣

علم البيان للدكتور طراف ، دار الكتب العلمية

المثل السائر لابن الأثير
تصوير البلاغة النبوية للشيخ محمد أرشد
بلاغة التراكيب في كتاب الإيمان من صحيح مسلم للشيخ نوير عيد مرزوق وزارة التعليم ، جامعة القصيم ، المملكة العربية السعودية
أسرار التعريف والتنكير في الحديث النبوي للشيخ أحمد محمد النور ، رسالة دكتوراة ، جامعة أم درمان
الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ـ دار الكتب العلمية
التجريد في علم المعاني للعلامة البناني ، المطبعة الكبرى الأميرية ـ مصر
التصوير الفني في القرآن لسيد قطب
سر الفصاحة للإمام ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية
مرجع الطلاب في الإنشاء للشيخ إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية
أسرار البلاغة للجرجاني
شرح السبع المعلقات
البلاغة العربية للميداني ـ دار القلم دمشق
مفتاح العلوم للسكاكي ، المطبعة المينية بمصر

التواريخ والسير

تاريخ الأدب العربي للزيات ، دار نهضة مصر ، القاهرة
تاريخ الأدب العربي للشيخ واضح رشيد الندوي ، مؤسسة الصحافة ، ندوة العلماء ، الهند
تاريخ آداب العرب للرافعي ، مكتبة الإيمان
الكامل في التاريخ لعز الدين ابن الأثير ، دار صادر، بيروت
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية

اللغة والمعاجم

لسان العرب لابن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت
تاج العروس للشيخ مرتضى الزبيدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت
المزهر للسيوطي
كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد علي التهانوي ، مطبعة (إقدام) بدار الخلافة العلية ١٣١٧هـ
معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت

المجلات والجرائد

مجلة مركز بحوث السنة ، أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي لنور الدين عتر ، العدد السابع ، ١٤١٤ ه
مجلة فصلية إضائات نقدية السنة ٣، العدد ٩، ١٣٩٢ه، صور الكناية في الكلام النبوي للشيخ الحجة
مجلة «المنار»
مجلة يومية الانقلاب ١٧، الينابر ٢٠١٦ ، فائدة النوم على الجانب الأيسر
جريدة يومية الإحسان ٢٣ ذو الحجة ١٤٣٨ ، فائدة النوم على الجانب الأيمن للدَّكتور محمد معروف
مجلة «البعث الإسلامي» ، العدد الخاص ، في الشيخ واضح رشيد الندوي ٢٠١٩ م

المتفرقات

حجة الله البالغة للعلامة المحدث شاه ولي الله الدهلوي ، كتب خانة رشيدية دهلي ، الهند
الطب النبوي لابن قيم الجوزية ، دار السلام رياض ، السعودية
خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار
أثر الحديث الشريف في قواعد اللغة العربية لإقبال كاظم ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد ٨، العدد ٤، ٢٠٠٩
سنت نبوي اور جديد سائنسي انكشافات للشيخ ذو الفقار علي النقشبندي باللغة الأردية
سنت نبوي اور جديد سائنس ، طارق محمود الصغتائي ، باللغة الأردية
أثر السنة في البيئة لمولانا عبد السلام ، پيس پبليكشن
الآيات البينات للآلوسي ، مكتبة المعارف ، الرياض
عبقرية محمد للعقاد ، مؤسسة هنداوي للتعليم، القاهرة
الانتباهات المفيدة للتهانوي ، مكتبة دار العلوم كراتشي
مفتاح دار السعادة لابن القيم



فهرس الموضوعات